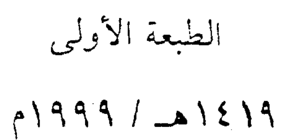
استانبول

عبق التاريخ .. روعة الحضارة

الدكتور
الصفصافى أحمد المرسى





الطبعة الأولى

١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

رقم الإيداع	٣٤٩٦ / ٩٩
الترقيم الدولى I.S.B.N	977-5727-44-8



القاهرة ـ ٥٥ شارع محمود طلعت من شارع الطيران

مدينة نصر ـ ت : ٢٦١٠١٦٤

إهداء

إلى من

أحبتني ...فتزوجتها

صمدت بجانبي فأسعدتها

غفرت لي حماقاتي.... فاحببتها

تنسمنا سويا عبق التاريخ..... فأبدعنا معا

أروع ما تنتجه الحضارة

ثناءاً ... إلى ثناء زوجتي

﴿ إهـــداء ﴾

إلى الشعـــب التركـــي الصـــــديق ،
بمناسبة مـــرور سبعمائة سنة على تأسيس
الدولة العثـــمانية [١٢٩٩هـ - ١٩٩٩م]،
حبـــاً..واحتراماً ...لكـــل أساتذتي
وأصـــدقائـــي الأتـــــراك
القـــاهرة
١٤١٩هـ=١٩٩٩م

Ithaf

Hocalarıma ,..Türk Dostlarima
ve
Tüm müslüman Türk Halkına,...
Osmanli Devletinin Kuruluş'unun
700 - yili (1299-1999) Münasebetiyle
sevgi ve saygilarımla
ithaf ederim
Kahire
1419..H-1999..m



الحمد لله الذى جعل من تقلب الزمان عبرة لمن يعتبر، والصلاة والسلام على من قال الحكمة ضالة المؤمن فليجدها حيث وجدت . . .

ما أن سطرت آخر سطر، وطويت آخر صفحة من كتاب « استانبول؛ عبق التاريخ، وروعة الحضارة » ودفعت به إلى الناشر حتى قادنى الحديث عن المقدمة التى لم تكتب بعد . .

تنازعتنى الأفكار، وتجاذبتنى التيارات، والأهواء. فأخذت أقلب فى جنبات الذاكرة؛ عما أكتب فى المقدمة . . ؟

ـ هل أكتب عن وصولى إلى مدينة استانبول فى الثالث والعشرين من رمضان سنة ١٣٨٧هـ الأول من يناير سنة ١٩٦٧ م وعن الحياة الجديدة التى عشتها فى استانبول . . . أم أكتب عن المعاناة التى عشتها عقب نكسه يوليو سنة ١٩٦٧م التى قسمت ظهورنا، ولكنها لم تهزمنا ؟ ـ هل أكتب عن النشاط المحموم، والصداقات المتعددة التى كنت أسعى من وراءهما إلى شرح قضية الوطن الجريح، وقلب الريفى الكسير وهو الوحيد فى عاصمة الخلافة . . ؟

ـ هل أكتب عن غليان القومية، والأممية، والناصرية، والتنحى ، واليسار، واليمين، وعن التيارات التى كانت تتلاطم فى شوارع استانبول الصاخبة تأييداً لمصر ؟ ـ هل أكتب عن توافد زملاء الدراسة من ابراهيم الدسوقى شتا، والسباعى محمد السباعى، ومحمد نور عبد المنعم، وحسين عليوه، وفتحى النكلاوى، وادريس نصر، ومساجلات الفكر، وجولات اللهو، ورحلات التنزه عبر متنزهاتها وآثارها . . ؟

ـ هل أكتب عن النشاط الفنى مع السينمائيين المصريين واللبنانيين والأتراك؛ من فريد شوقى الممثل ونيازى مصطفى المخرج وسعد شنب المنتج، والسينارست عبد الحى أديب، وعن خُلقى سنر المنتج ، وعاطف يلماز، ومتين أركصان، ومحمد آرسلان المخرجون، وعارف اونال المنتج، ويوجال جقمقلى المنتج والمخرج، وآتيلا كوك بوريه المخرج، وچتين طونجه المصور . .وآمال صابين الممثلة . . ؟ ـ هل أكتب عن النشاط الجامعى، وعلاقاتى المتعددة مع أساتذتى الأفاضل وزملاء الدراسة من العالم

العربى كله ومن ايران وباكستان، ورحلات الخارج إلى اليونان وبلغاريا، ويوغوسلافيا، والمجر، والنمسا، وايطاليا وفرنسا وسويسرا، وآلمانيا وانجلترا، وبلجيكا، وسوريا، والعراق، والكويت بحثاً عن العلم، والمعرفة، واكتساباً للخبرة . . ؟

ـ هل أكتب عن عواطف الجندى البسيط، وأنا فى أعماق السجن الحربى، أو عن النقاش الفكرى العميق الذى يستهدف استكشاف الأعماق فى السجن السياسى، أم حواديت، وآحاديث مهربى المخدرات، ومروجى الدعارة، والتهريب فى «التخشيبة» قبل الترحيل من استانبول عقب اغتيال فريق الكرة الاسرائيلى فى الدورة الأولمبية التى نظمتها مدينة ميونيخ سنة ١٩٧٣م ؟ . هل أكتب عن المشاعر المتضاربة، والإنفعالات المتباينةعقب تلقى خبر وفاةعبد الناصر، ونحن على نقاط الحدود بين يوغوسلافيا والمجر، ومظاهر الحزن والآسى التى أصابت المواطن العادى فى المجر والنمسا والمانيا خلال أسبوع الحداد على موته رغم ما كان يكيله للغرب . . فالرجل قد عمل لبلده وأمته، وبذل الجهد والعرق، والحياة بشرف دون أن تكون هناك بقعة تلوث شرفه العسكرى، أو السياسى . ؟ عمل بشرف . . ومات بشرف . .

ـ هل أكتب عن المعاناة النفسية التى انتابتنى عقب الإبعاد السياسى وكنت قاب قوسين أو أدنى من مناقشة رسالة الدكتوراه . . ؟ أم عن الجهد الخرافى الذى بذلته لأقف من جديد شامخاً، مرفوع الرأس، فلم أرتكب ما أخجل منه، بل ما يوجب على الجامعة أن تُقيم تمثالاً لمن قام بمثل ما كنت أقوم به وأنا فى استانبول حيال بلدى على حد قول الأديب، والناقد الكبير الدكتور / عبد القادر القط، عميد الكلية آنذاك . . ؟

تركت القلم، وطويت الأوراق، وخلدت إلى النوم . . وماهى إلا سويعات قلائل حتى استيقظت، وقد نحيت كل هذه الأفكار جانباً . . كيف أجعل همومى تطغى على هموم الأمة . . ؟ فتشت فى الذاكرة فإذا بى أجد أن :

ـ العرب قد أدخلوا الإسلام إلى غرب أوروبا على يد موسى بن نصير، وطارق بن زياد . وأقاموا فى شبه جزيرة أيبيريا أى فى الأندلس حضارة شامخة، مازالت آطلالها باقية . . أى أن العرب قد عبروا بالإسلام إلى غرب اوروبا من مضيق مازال يُسمى مضيق جبل طارق .

ـ الترك العثمانيون قد أدخلوا الإسلام إلى شمال شرق اوروبا بعبور سليمان ابن اورخان من غالببولى إلى الروميلى أى إلى بلاد الروم . . واستمر الكفاح والنضال حتى انتقلت العاصمة من بورصة إلى أدرنة، ومنها إلى استانبول لكى تُصبح حاضرة العالم الإسلامى، وتندرس بيزنطة الشرقية بين طيات التاريخ .

ـ فى الغرب حيكت المؤامرات، وتوحدت الصفوف، وأقيمت الأحلاف وبدأ الضغط على العرب واليهود للخروج من الأندلس . . واستقبل العالم العربى آعرابه، وفُتحت الصدور، والمدن الإسلامية المتسامحة آحضانها إلى أصحاب الديانة اليهودية، ليلجئوا إليها، ويلوذوا بجمالها . . وينعموا بخيراتها . .

ـ فى الشمال الشرقى وصلت الرماح العثمانية إلى أسوار فينا، وأوشكت أن تخترق سهام ال « قيزيل ألما » جدران روما، وتعلو فوق أسوارها . . ولكن حِيكت مؤامرة روكسلانة المدسوسة إلى القصر السلطانى، بمهارة فائقة مع الصدر الأعظم أحد أقطاب الدوشيرمه، فيقتل السلطان الأب، فلذة كبده ولى العهد بفعل الدسيسة، ويتجرع كئوس الغم عندما اكتشف الخديعة . وانسحب السلطان، وتراجعت السهام .

ـ خلت الأندلس من معالم الحضارة الأسلامية، إلا من بعض الأطلال، ومحاكم التفتيش تبحث بين الصدور والجدران عن كل ما يتصل باليهودية والإسلام . .

ـ بدأ التقهقر، والتراجع فى البلقان، ولم تعد الأوامر؛ « إلى الشمال تقدم » بل « إلى الخلف دور » . .

ـ يكتب الشاعر، والأديب، والمفكر عبد الحميد ضياء الدين باشا (ضيا باشا) فى منتصف القرن التاسع عشر كتابه الضخم (ستة مجلدات) عن تاريخ العرب فى الاندلس . ويخص المجلد السادس بمعالم الحضارة الإسلامية وبصماتها فى الأندلس . بعد أن حلل عوامل الدفع، والإرتقاء، وأسباب التدنى والتقهقر . . وكأنه أراد أن يحذر آل بيته، وبنى قومه، وقادة امته، ويضرب لهم المثل بما حدث فى الأندلس محذراً . .

ـ تفرغ الغرب الصليبى، والماسونية، والصهيونية العالمية إلى الشمال الشرقى من أوروبا . . وقاد الصليبيون الجدد المظاهرات فى مدن أوروبا، وشوارع لندن يطالبون بضرورة اخراج الترك من كل آوروبا . . لابد من تطهيرها من . .

ـ مرة آخرى حِيكت المؤامرات، وتعاون أحفاد روكسلانه من الماسونيين والدونمة، والصهاينة مع حملة الصليب الكاذب . . وبدأ الضغط . . وأعادوا إلى الذاكرة جرائم مصاص الدماء « دراكوله » بما هو أشنع منها . . وما القتل الجماعى . . والمقابر الجماعية، وقتل الأطفال، واغتصاب الفتيات، وتلقيح النسوة بأجنة الكلاب ببعيد عن الذاكرة . .

ـ اشتد الضغط، وعاست الخيانة، واستشهد الأبرياء فى « سلسترا » وخرجت على شواطىء البحر الأسود الزجاجات بتقارير الجاسوسية الماسونية، وخرجت الجيوش العثمانية من صوفيا،

واقتربت الحدود والأسلاك الشائكة من استانبول . . وتزايد الضغط، والدفع، والشحن، وتعاونت المؤامرة مع الخيانة وتدثرت بالخديعة . . وخرجت الجيوش العثمانية من حاضرة ملكها من استانبول . . واتجهت الرماح لتقتل الأبناء . . وأخوة العرق والدين . . وتعاون الغافل مع آحفاد روكسلانة، ومعبئوا زجاجات الخيانة . .

- يا إلهى . . شريط التداعيات . . وارهاصات الخوف أطارت النوم من عينى فماذا أفعل . . ؟ فهل تحت وطئة الغفلة، وبتأثير الخديعة، تندثر معالم حضارة اسلامية انسانية من كل شمال شرق القارة الحاقدة . . نحن لم نهدم معبداً، أو كنيسة، لم نسفك دماً باسم الدين . . لم نطمع فى الثروات، لم نحقد . . فبلادنا مهبط الأديان جميعاً، وحتى الديانات الوضعية أو لنقل الفلسفات التى تدعوا إلى خير الإنسان والأنسانية كلها خرجت من الشرق الدافيء، المتسامح، المحب الحنون . . فالشرق الذى إذا ما أتجه إلى الشمال فإنما يتجه من أجل السمو وشمول العالم برحمتُه وتسامحه، وسموه، فمحراب جوامعه نصف دائرة تحتوى العالم بالهدوء والرضا والسكينة إذا ما دخلها للصلاة، ومآذن الجوامع، والمساجد السامقة تنطلق من الأرض إلى السماء، تسمو بالانسان من الدنو، والدونية إلى الرفعة، والإرتقاء . . لكى يعلو عن الخطايا . . ويتسامح فى الإنسانية . .

- قفزت إلى الذاكرة كلمات البطل طارق بن زياد فى المسرحية التى تحمل اسمه، والتى ألفها الشاعر التركى الأعظم عبد الحق حامد فى النصف الثانى من القرن ١٩ وهو يتأمل قاعة التيجان ويتساءل أين أصحابها . . ؟ وكلمات السلطان محمد الفاتح وهو يطوف بآرجاء قصر قسطنطين، ويرى معالم الإهمال . . وهروب ساكنيه أثناء الحصار، فيتمثل ببيت من الشعر الفارسى أمام كل المختالين بساعة النصر، والمزهووين بتملكهم لتلك الصالونات الفاخرة، وعلى مسمع من كل أركان الدولة، وقادة الجيش المنتصر، حيث قال :

(برده دارى ميكند در قصر قيصر عنكبوت   بوم نوبت ميزند بَرقية آفراسياب)

« لقد نسج العنكبوت بيته فى قصر القيصر   ونعقت البوم نوبتها على قبة آفراسياب »

- استاذى ومحك اطروحتى للدكتوراه « ضيا باشا » هاأنذا أتمثل بما قمت أنت به، فقد أرخت لشركاء العقيدة لتحذر أبناء جنسك، وهاأنذا أكتب عن عبق التاريخ، وروعة حضارة أجدادك، لأضم صوتى إلى صوتك وصوت كل المحبين لأمتهم . . وأحذر بأن التخطيط قائم . . والمؤامرة مستمرة، وأحفاد روكسلانه يسعون بكل مقومات الغش ، والخداع، والدسيسة لكى تتحول رماح أحفاد الفاتح، وسليم الأول، وسليمان القانونى إلى الجنوب لتمزق صدور أخوة الدم، وشركاء العقيدة . . بدلاً من أن تقف، شامخة، متحدية، يقظة لكى تظل استانبول هى استانبول، ولا تعود وتُصبح بين عشية وضحاها على ما كانت عليه سنة ٨٥٧ هـ = ١٤٥٣م .

ـ كتبت فى « عبق التاريخ » عن القسطنطينية، ومحاولات الفتح الإسلامية قبل الفتح المبين، تناولت صدى الفتح ورسائل البشرى إلى العالم الإسلامى، والصدى المعاكس فى دول العالم المعروفة آنذاك .

ـ تتبعت خطى أبناء، وأحفاد الفاتح فى العاصمة الجديدة، وما توالى عليها من آحداث، ليس تاريخاً بمفهوم التاريخ، ولكن محاولة لاستنشاق العبق الصادر عن التاريخ، ووصلت بهذه الخطى حتى تخلى الحفدة الجدد عن استانبول كعاصمة، ولكنها احتفظت بعبقها الفواح حتى اليوم .

ـ وفى « روعة الحضارة » وقفت وقفة المتأمل أمام التراث الحضارى فى العاصمة الجديدة؛ منذ الفاتح حتى أواخر القرن التاسع عشر، رصدت معالم الحضارة المعمارية، والمؤسسات العلمية، والتعليمية وحركة الفكر والأدب والثقافة فى العاصمة .

ـ لا أدعى أننى أوفيت استانبول حقها، ولكنى أدعى أن هذه هى المحاولة الأولى باللغة العربية . وكل ما آتمناه أن تتجه إليها الأنظار ليس للسياحة، واللهو فقط بل للحفاظ عليها، والزود عنها، والعناية بها، والعض عليها بالنواجذ لكى تظل در السعادة . . ومدينة آلاف المساجد، والكنائس، والمعابد المتحابة . . المتعانقة . . ولكى تحتضن الجميع فى تسامح الأديان . . وسمو الجنس البشرى الحق . .

وعلى الله قصد السبيل،

القاهرة فى غرة رجب سنة ١٤١٩ هـ

٢١ اكتوبر (تشرين اول) سنة ١٩٩٨ م

أ . د/ الصفصافى احمد المرسى القطورى

عبــق التاريــخ

للتاريخ عبق فوَّاح، تستنشقه الأجيال؛ لتصمد، ضد الأهواء، والأطماع، ولتنطلق نحو الأفاق الرحْبة،لتُعيد الوعى بكياناتها، والإدراك لمقوِّماتها، وخصائصها . . فتقتحم المجهول، وتُبصر المستقبل . . ومن هنا تتأتى أهمية دراسة التاريخ، والتراث الإنسانى لكل أُمة من الأمم . .لقد درج بعض المفكرين على تقسم الزمن إلى؛ ماضى وحاضر، ومستقبل . .وهذا تقسيم إعتبارى، فالثوابت وحدها هى التى يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام، أما المتحرك فمن الصعب إخضاعة لنفس المنطق؛ فما نعتبره الأن حاضراً، فما هىْ إلا سُوَيْعات، ويكون فى عداد الماضى . .والمستقبل بمنطق المتحركات، يُصبح حاضراً، ويشمله الماضى . .فالواقع . .ليس هناك ماضى، وحاضر ومستقبل . .إنما هناك إمتداد، وتواصل . .

وسط خط هذا الإمتداد، يَمثِّل الحال . .والحاضر . .ونحن نعيش الحاضر، ولا نرى المستقبل . .بل نستشفه، ونستطلعه . .أما القسم الذى انقضى، فنحن نعرفه؛ بالشكل الذى وصفه لنا المؤرخون . .أو أننا نرى المتراكمات التى تركها لنا هذا القسم.

وما نحبه من الماضى، وما نعجب به، ونرتبط بوشائجه هو الأشياء الجميلة؛ هو الخير، والصدق . . الجمال وما ننفر منه هوالقبح، والشر والظلم . .معنى هذا أننا بعيدون كل البعد عن حب الماضى بكل جوانبه، بل نتخير ما يعجبنا؛ فنفخر به، وما يسوؤنا فنواريه وبهذا المنطق؛ فالحال يحتوى على ما نحب، ومالا نُحب . .وفى المستقبل ربما نحب نفس ما نحب ، ونكره نفس ما نكره . .

ولمدينة استانبول عبقها الخاص بها . .قلما تَجد له مثيلاً؛ فالمدينة تحتل موقعاً فريداً بين مدن العالم، وما عليك إلا أن تطل إطلالة عابرة على الخريطة حتى تُدرك ذلك . .فهى عند ملتقى القارتين؛ آسيا العتيقة بفلسفاتها، وروحانياتها . .وأوروبا الفتية . .بحيويتها . .وعنفوانها . .تحيط بها البحار من ثلاثة جوانب؛ فحبتها الطبيعة؛ بجمال الأرض، وخصوبتها . .وينعة الخضرة . ونضارتها . .وجودة المناخ . . ومتعة التضاريس . .أنعم عليها الخالق بكل آسباب القوة، والمتعة؛ فللقسطنطينية - قديما - ميناء القرن الذهبى؛ أوسع، وآمن موانىء العالم . .كانت، ومازالت مركزاً عظيماً للتجارة، والعمارة، والفنون؛ تفد عليها المتاجر من كل فج عميق . .براً، وبحراً . .وتعلو ربواتها آجراس الكنائس، وآهلة المآذن، مسرح مفتوح لكل أنواع الفنون، تكتظ بأجمل ما أبدعه الإنسان على مر العصور . .مَزْج فريد بين إبداع الخالق واستلهام المخلوق . .مدينة تتداخل فيها الأجناس، والأعراق، تتفاعل فيها الإسهامات

البشرية، وتنصهر فى بوتقتها كل الثقافات؛ فتُعْطيك رحيقاً طيب المذاق . . فواح الرائحة . . شديد الجاذبية . هى على حد قول نابليون بونابرت . . (لو كانت الدنيا مملكة واحدة، لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها)

أدرك الغزاة، والفاتحون منذ القدم أهمية المدينة، وخطورة الموقع . . فحاصروها . . أحاطوا بها . . حاولوا الإستيلاء عليها، مرات، ومرات . . فتعالت عليهم؛ بمناعة موقعها، وقوة حصونها . . الأكيدة فى أن تصد عن نفسها؛ حيل الغزاة، وطمع الطامعين . . وهوس الفاتحين . . ولا تُفَتّح أبوابها إلا لمن ملك زمامها . . وعرف كيف يفك رموز طلاسمها . .

القسطنطينية خلال العصر البيزنطى :

ظلت القسطنطينية، مدى عشرة قرون معقلاً للنصرانية، وعاصمة للإمبراطورية الرومية الشرقية؛ فقد قسَّم الإمبراطور تيودور عند وفاته سنة ٣٧٥م . الإمبراطورية الرومانية إلى؛ إمبراطورية غربية، وعاصمتها روما، وامبراطورية شرقية وعاصمتها القسطنطينية، ليتفرغ كل قسم لحماية نفسه، والدفاع عن كيانه، ومقدساته . لم تعش الإمبراطورية الغربية طويلاً بعد هذا التقسيم؛ فقد توالت عليها هجمات البرابرة حتى اسقطوها فى أيديهم سنة ٤٧٦ ميلادية . أما الإمبراطورية الشرقية، والتى تُسمى أيضاً بالإمبراطورية البيزنطية، والإمبراطورية الرومية، أو الإغريقية، فقد ظلت قائمة بعد ذلك التقسيم أكثر من عشرة قرون، وذلك لمناعة العاصمة، وعمق الروحانية، وثبات العزيمة، ومتانة العقيدة تلك العوامل التى استلهمتها من الشرق المتدين . . ومن آسيا العريقة .

بلغت الإمبراطورية الشرقية ذروة مجدها، وكمال تطورها فى عهد الإمبراطور جُسْتَنْيَان الذى نظم القوانين، وجمع فى حوزته السلطتين؛ الدينية، والدنيوية . . . وطمحت نفسه فى السيادة على العالم؛ فبدد ثروة البلاد، واستنزف مواردها فى الحروب المتواصلة ضد الفرس فى آسيا، والبرابرة فى آوروبا، وفتوحاته فى شمال أفريقية . وكَلَفَه، وشغفه بإقامة المبانى، وتشييد القصور الفخمة، والكنائس المنيفة، وما أن واتته المنية؛ حتى كانت البلاد منهوكة القوى، خائرة العزيمة، فطمع فيها من طمع، وتكاثر عليها الأعداء، ولم يتورعوا عن الهجوم على القسطنطينية ذاتها . . سادت الفوضى، وعم الفساد، حتى كان عهد هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) فأنقذها مما كانت فيه، واسترد من الفرس ما سبق أن احتلوه من البلاد، واسترجع مصر والشام وآسيا الصغرى، واستعادت بيزنطة بعض ما كان لها من الهيبة، والصولة، والصيت بين العالم . . (١)

---

(١) سالم الرشيدى، محمد الفاتح، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية ايلول = سبتمبر سنة ١٩٦٩، ص ٥٤ . ٥٧ .

الصراع بين أقطاب المسيحية :

كان السلاف، والبلغار قد تمكنوا من البلقان، ورسخوا أقدامهم بها، وشرعوا يتطلعون إلى أرض الجوار، فشنوا هجماتهم على ممتلكات بيزنطة، ووصلت هذه الهجمات إلى مشارف القسطنطينية.

كانت المستعمرات، والمدن، والتكتلات، والأقليات التابعة للمدن الإيطالية؛ كالبندقية، وجنوه، قد انتشرت داخل نطاق الإمبراطورية البيزنطية انتشاراً كبيراً. .واستقر الكثيرين منهم فى بعض أحياء مدينة القسطنطينية، حتى أصبحت حكراً عليهم، وأضحى لهم فيها نفوذ، وجاه، يستأثرون لأنفسهم بالثروات والخيرات، ويتسلطون على الأباطرة أنفسهم، الأمر الذى أحنق الروم، وأغضبهم، وأثار حفيظتهم، وسخطهم، بل وزاد من كراهيتهم وحقدهم على اللاتين. .ومما لا شك فيه؛ أن هذه السياسة التى سلكها التجار الإيطاليون، والقائمة على الجشع، والأثره، والإحتكار، وإستنزاف الموارد الإقتصادية للبلاد من العوامل التى عاونت على تأجيج العداوة بين أهل الملة الواحدة، وساعدت على إنهيار الدولة البيزنطية.

وبلغ الفلس بالدولة البيزنطية مبلغاً أجبرها على أن تبيع للتجار مدناً برمتها، ففى سنة ١٤٢٣م = ٨٢٧ هـ باعت سالونيك للبنادقة بخمسين ألف دوقة (*)

وكان البلاط البيزنطى منذ أول قيامه مباءة للمكائد والدسائس والمؤمرات. .وقد ظلت بيزنطة فى أيام ضعفها وإضمحلالها فريسة للمؤامرات، ومحاولات الإغتصاب، والنزاع بين الطامعين فى السلطان من أمراء الأسرة الإمبراطورية. .ولما مات الإمبراطور يوحنا الثامن سنة ١٤٤٨ م = ٨٥٢ هـ إحتدم النزاع، والتنافس بين إخوته، حتى استنجد أخوة قسطنطين آخر أباطرة بيزنطة بالسلطان مراد الثانى (١٤٢١ - ١٤٥١م = ٨٣٠ - ٨٥٥ هـ) (*) فأنجده، وأعانه على إرتقاء العرش. على أن الطامة الكبرى التى نزلت بيزنطة وقضت عليها؛ هى المسألة الدينية، والخلاف بين الكنيستين؛ الشرقية، والغربية. فقد كان لذلك أعظم الأثر فى إثارة العداوة، والخصام بين بيزنطة والغرب. .ويرجع هذا الخلاف بين الكنيستين إلى عدة مسائل فقهية، تتعلق بالعقيدة، وبعض الطقوس. إلا أن اهم أسباب

(*) الدوقة : Doka = Duka عملة كانت تُستخدم فى البندقية وفرنسا، وتُسك من الذهب، والفضة وكانت هى الأكثر رواجاً بين التجار الذين يجوبون الديار العثمانية. بالرغم من وجود وتداول العملات التى كان يسكها السلاطين العثمانيين. وكان السلطان اورخان هو اول من سك عملة معدنية عثمانية، وكُتب على أحد وجهيها (لا اله إلا الله محمد رسول الله) وعلى الوجه الآخر (اورخان خلد الله ملكه). وحرص بعده كل سلطان ان يضرب لنفسه عملة خاصة به . .« المؤلف »

(*) مراد الثانى : ١٤٢١ - ١٤٥١م تولى عرش السلطنة وهو فى الثامنة عشر من عمره، والده هو السلطان محمد چلبى، ولد سنة ١٤٠٣م. تولى السلطة أول مرة ١٤٢١م، ترك السلطنة ١٤٤٤م ثم عاد إليها مرة ثانية سنة ١٤٤٥م. وكانت وفاته سنة ١٤٥١م. حاصر بلجراد، كما فتح عاصمة بلاد الصرب، وهزم امبراطور آلمانيا وملك المجر آلبرت الثانى. كانت آخر مرة يخرج فيها للحرب سنة ١٤٥٠ حيث خرج إلى بلاد الأرناؤوط [آلبانيا].

النزاع يرجع إلى الخلاف بين بابا روما، وبطريرك القسطنطينية على الرئاسة والصدارة . . ووصل الأمر إلى حرمان بعضهم البعض . . وعندما أصدر البابا نيقولا الأول فى القرن التاسع قرار الحرمان على بطريرك القسطنطينية . . قابله هذا بالمثل، وأصدر عليه كذلك قراراً بالحرمان .

كان أهل بيزنطة شديدي التعلق بالدين، شديدي الإيمان بالخرافات والأساطير، ولِعين بالجدل، والنقاش فى المسائل الدينية وأصبح ذلك فيهم غريزة، وسليقة لاتفارقهم . . وقد وجدوا فى مسائل الخلاف بين الكنيستين، مجالاً واسعاً، ومادة دسمة لإشباع هذا النهم الفريد . . وكان الروم يحرصون كل الحرص على حضور المجالس التى يعقدها رجال الدين للمناظرة، والمجادلة، ويجدون فى ذلك متعة وسلوى . . وبينما هم فى هذا الجدل المحتدم على أشده، كان الأتراك على الأبواب . . (١)

وكان البيزنطيون بطبيعة مزاجهم الديني يجلون رجال الدين ويوقرونهم، وكانوا أكثر ميلاً إلى البطاركة المتعصبين الذين يتصلبون فى مواقفهم تجاه بابوات روما . . زادت العلاقة بين الكنيسة الشرقية، والغربية سوءاً حتى أصبح الغربيون يعتبرون الروم خوارج مارقين يجب قتالهم كالمسلمين . . أما فى بيزنطة فقد انقلب الشعور الدينى فيها إلى شعور وطنى، وأصبح فى نظرهم مجرد الميل إلى أهل الغرب، أو اللاتين خيانة وطنية . . وكان الروم فوق ذلك يعتقدون فى أنفسهم أنهم أهل علم، وحضارة، وكانوا ينظرون إلى الغربيين على أنهم برابرة أجلاف .

نعم . . استردت الإمبراطورية البيزنطية فى أثناء الحملة الصليبية الأولى بعض أملاكها فى آسيا الصغرى . . ولكن ذلك لم يدم طويلاً . . فقد جاءت الحملة الصليبية الرابعة فى بداية القرن الثالث عشر فقضت على الإمبراطورية البيزنطية، وفيها انتقم الغربيون من الروم شر انتقام، وارتكب الصليبيون فى القسطنطينية التى أحرقوها، أبشع، وأقسى ضروب الوحشية والقسوة؛ فأمعنوا فى القتل، والتنكيل، وأعملوا السلب، والنهب، وانتهكوا الحرمات، ودنسوا الكنائس، وإقتحموها بخيولهم، وإرتكبوا فيها أحط الفواحش والمنكرات .

فوق هذا رداً على التهم التى توجه ألى المسلمين، وليعقد القارىء فيما بعد مقارنة بين هذا، وما سيفعله محمد الثانى (١٤٥١ - ١٤٨١ = ٨٥٥ - ٨٨٦هـ) عند دخوله إلى المدينة فاتحاً . .

لقد أثارت هذه الحملة الصليبية أشد الكراهية والحقد فى نفوس الروم ضد اللاتين، وكان ذلك من أهم العوامل، والبواعث على فشل المحاولات التى بُذلت بعد ذلك للتوفيق بين كنيستى الشرق والغرب .

---

(١) سالم الرشيدى؛ مرجع سبق ذكره ص ٦١ - ٦٢ .

عندما إسترد الروم بقيادة ميخائيل الثامن القسطنطينية من يد اللاتين سنة ١٢٦١ م = ٦٦٠هـ كانت المدينة على أسوأ حال من الضعف، والإنحلال، والتعاسة.

وفى القرن الرابع عشر الميلادى، الثامن الهجرى أحدق بالإمبراطورية البيزنطية خطران عظيمان؛ من الشرق والغرب. فالدولة العثمانية بعد أن توطدت أركانها فى آسيا الصغرى فى عهد السلطان اورخان (*) (١٣٢٦ - ١٣٥٩م = ٧٢٧ - ٧٦١هـ) أخذت تغزو المناطق الرومية فيها حتى شواطىء بحر مرمرة. وفى أوروبا الشرقية كان ستيفان دوشان = Stephane Douchan (١٣٣١ - ١٣٥٦م = ٧٣١ - ٧٥٨هـ) يجدُّ فى توسيع مملكته الصربية، فبسط سلطانه على معظم البلقان، وإمتدت دولته من نهر الطونه حتى بحر إيجه، وأصبح يهدد القسطنطينية نفسها.

ولما تولى يوحنا الخامس عرش القسطنطينية، كان العثمانيون قد رسخوا أقدامهم فى أوروبا، خصوصاً بعد إنتصارهم على جموع الصليبيين فى مارتزا سنة ١٣٦٣م = ٧٦٥هـ واضطر الإمبراطور يوحنا أن يدفع الجزية للسلطان مراد (١٣٥٩ - ١٣٨٩م = ٧٦١ - ٧٩٢ هـ

على أن الروح الصليبية كانت حية ومشتعلة فى نفوس الأوروبيين فى الغرب؛ فمنذ أن إستولى السلطان خليل قلاوون على عكة آخر معاقل الصليبيين فى الشرق سنة ١٢٩١م = ٦٩١هـ حتى وُجِّهت حملات صليبية كثيرة إلى مصر وآسيا الصغرى وأفريقية.

تزايد الخطر العثمانى على القسطنطينية، واستفحل، فلم يجد الإمبراطور يوحنا مناصاً من اللجوء إلى روما مرة آخرى، فشخص إليها بنفسه سنة ١٣٦٩م = ٧٧١هـ، وكان بذلك أول امبراطور بيزنطى يزور الغرب، ويعلن للبابا أوربان الخامس Urbain V فى كنيسة القديس بطرس إعتناقه لمذهب اللاتين، وإيمانه به، ثم سجد بين يديه، وأخذ يُقبله، إحتفى البابا به، وأكرم وفادته ولكنه لم يفلح فى حشد ملوك أوروبا لتأييده، فقد إنصرفوا إلى منازعاتهم الخاصة بهم. ولم تكن معونة البابا، أو ملك فرنسا شارل السادس فيما بعد بالشىء الذى يذكر أمام الحشود العثمانية فى زمن السلطان بايزيد الأول (١٣٨٩ - ١٤٠٢م = ٧٩٢ - ٨٠٥هـ)(*).

(*) السلطان اورخان: ١٣٢٦ - ١٣٥٩م ولد سنة ١٢٨١م؛ تلقى علومه الدينية على يد الشيخ آده بالى، والتعليم العسكرى على يد والده عثمان غازى. تولى السلطة فيما بين سنة ١٣٢٦ - ١٣٥٩م. يُعتبر من أوائل الذين اقاموا دعائم الدولة العثمانية. وحمل على اكتافه عملية تنظيم الجيش العثمانى بمساعدة شقيقه سليمان باشا. الذى عينه وزيراً له. فتح العديد من البلدان، والمدن البيزنطية. توفى سنة ١٣٥٩م

(*) بايزيد الأول: ١٣٨٩ - ١٤٠٢م ولد سنة ١٣٦٠م. تولى السلطنة وعمره ٢٩ عاماً أُطلق عليه لقب «يلديرم» الصاعقة، لأنه كان ينقض فى حروبه انقضاض الصاعقة. له دور كبير فى توسيع رقعة الدولة العثمانية، وارساء دعائم قيامها كدولة اسلامية. استمرت مدة حكمه ثلاثة عشر عاماً اتسمت بالعمل الجاد والشاق، وإلى جانب شدته كان عادلاً. ومن اوائل الذين حاصروا أسوار مدينة إستانبول. وإن وقع فى أسر تيمورلنك. ويُقال أنه انتحر فى الأسر.

غادر الإمبراطور مانويل القسطنطينية فى ديسمبر من عام ١٣٩٩م = ٨٠٢ هـ وعهد بأمور الدولة إلى إبن أخيه يوحنا . .ووضع كل من البندقية وجنوا سفناً لحماية المدينة وغلطة . .ظل مانويل يطوف ببلدان أوروبا، أكثر من سنتين، دون أن ينال شيئاً ذو بال، فعاد أدراجه إلى بلاده . .وكان منذ أن خرج منها يتوقع فى كل لحظة أن يصله خبر سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين . .ولكن كم كانت دهشته، وفرحته عندما علم قبل وصوله إلى عاصمته بهزيمة بايزيد، وموته فى أسر تيمورلنك(١) (١٣٣٦-١٤٠٥م = ٧٣٦-٨٠٨هـ) .

محاولات العرب لفتح القسطنطينية :

المحاولة الأولى :

فى الوقت الذى كان فيه جيش لمعاوية ابن أبى سفيان (٤١-٦٠هـ = ٦٦١-٦٧٤م) يصول ويجول فيما بين شمال آفريقيا، حتى جزيرة (سجيليه) كان جيش الشرق يقوم بمناوشات، وهجمات مباغتة على حدود بيزنطة، ولما أصيب جيشه ببعض الخسائر فى الأناضول، فوجد أن الفرصة سانحة لإرسال قواته لمحاصرة مدينة القسطنطينية حتى يصرف النظر عن تلك الخسائر المحدودة . فجهز أسطولاً بقيادة سفيان بن عوف، ودفع به إلى أسوار المدينة سنة (٦٨ / ٦٧٢م = ٤٨ / ٥٣هـ

. وشكل العربُ بهذه التحركات تهديداً خطيراً لبيزنطة وبينما كانت بعض القوات قد خرجت إلى البر على سواحل بحر مرمرة، كان الأسطول الإسلامى، يحاصر الساحل الممتد أمام قصر الحكم فى المدينة . وبدأ يمارس ضغطاً ملموساً على أسوارها وأظهر الجيش العربى فى حصاره للمدينة شجاعة لم تبد منه فى أى حرب آخرى وكأنه كان يود أن ينال البشارة التى بشر بها الحديث النبوى الشريف، ولكن اكتشاف السلاح النيرانى الجديد فى أيدى الروم، جعل الحصار يطول حتى إمتد إلى ست سنوات كاملة، كان الجيش العربى فيها ينسحب شتاءاً إلى مدينة «سيزيك» ويعاود الحصار. وتشديد الهجوم مع بداية الربيع . وقد شارك فى هذا الحصار الأخير حامل راية الرسول «صلعم» أبو أيوب الأنصارى ويزيد الإبن الأكبر لمعاوية . وقد نال الصحابى أبو أيوب الأنصارى شرف الشهادة فى إحدى هذه الهجمات(٢)

طوال سنوات الحصار هذه، لم تستسلم المدينة بالرغم من شدة الهجوم وشجاعة المهاجمين . وشكلت الأسوار المنيعة، التى تحيط بالمدينة، العامل الأساسى فى مقاومة البيزنطيين، ثم أدت النيران

---

(١) سالم الرشيدى، المرجع السابق ص ٦٨ .

(٢) أحمد رفيق، بيوك تاريخ عمومى، بشنجى جلد، استانبول، ١٣٢٨، ص ٩٥-٩٩ .

الرومية إلى التقليل من أثر الهجمات العربية . وعندما أدرك العرب؛ أن الوسائل المتاحة لديهم لن تجدى أمام هذين العاملين، ركبوا سفنهم، وعبروا مضيق الدردنيل إلى آفاق البحر الأبيض المتوسط، متجهين نحو سوريا ـ وخلال العودة تعرض الأسطول للخسارة والجيش لمشكلات جسام، إضطر تحت تأثيرها، لقبول الصلح بالشروط المناسبة لبيزنطة حينذاك .

المحاولة الثانية :

جاءت المحاولة الثانية فى زمن الخليفة وليد بن عبد الملك الذى رأى أن يجمع كل جيوشه المظفرة، ويضع نصب عينيه فتح القسطنطينية، فأمر بقطع آخشاب الأرز من لبنان، وحملها إلى الإسكندرية لصنع السفن اللازمة لحصار القسطنطينية عاصمة بيزنطة . وما هى إلا مدة وجيزة، حتى كان هناك جيش برى جرار، يقطع بلاد الأناضول، تحت قيادة أخيه مسلمه بن عبد الملك الذى كان مشغولاً بالإستيلاء والفتح فى البلاد البيزنطية، ومن ناحية أخرى وصلت السفن الحربية العربية لمحاصرة المضيق. وما أن حلت سنة ٩٥ / ٩٩هـ = ٧١٣، ٧١٤ م وفى الخامس عشر من أغسطس حتى كان الجيش العربى يضرب حصاره البحرى والبرى حول المدينة ولكن فى هذه المرة أيضاً كان خلاص المدينة بسبب كثافة النيران الرومية. ففى اليوم المذكور هبت عواصف لم تكن متوقعة، فأدت إلى انتشار النيران البيزنطية، وكانت تلتهم كل من يحاول تسلق الأسوار من العرب . ولما رأى العرب أن لا حيلة لهم أمام هذه النيران، فتملكهم اليأس من فتح المدينة، فصرفوا النظر عن هذه المحاولة، ولكنهم لا يودون العودة؛ فقد كانوا يودون أن يرى الخليفة الجديد «عمر بن عبد العزيز» هزيمة إمبراطور بيزنطة، عدوهم اللدود.

فى الواقع كان سليمان بن عبد الملك يود أن يكون بنفسه على رأس القوات المحاصرة للمدينة العنيدة . .فسلك طريقه على رأس قواته ولكن عندما توفى بالقرب من مدينة بعلبك، تولى عمر بن مروان بن عبد العزيز الخلافة، (٩٩ ـ ١٠١هـ = ٧١٧ ـ ٧١٩م) فكان أول عمل يقوم به هو إرسال « ٤٠٠ » أربعمائة سفينة محملة بالغذاء، والكساء، ،والمؤن الحربية للقوات التى تحاصر عاصمة الإمبراطورية البيزنطية الشرقية. ولكن السفن لم تتمكن من الإقتراب من مواقع الحصار خوفاً من النيران الرومية، وظلت تتجول فيما بين سواحل «بى تينى ـ خداوندكار» وكان القسم الأعظم من الأسطول الإسلامى فى هذا الحصار من المصريين، الذين تخلصوا حديثاً من التبعية البيزنطية وقد تمكن الجزء الأعظم منهم من دخول القسطنطينية. ولكن تحت تأثير النيران الكثيفة للمدافع البيزنطية الحديثة تم إحراق الأسطول العربى، مما حرم العرب تحت قيادة مسلمه من المؤن، والذخائر، والأسلحة. .هذا بالإضافة إلى تفشى الغلاء، والقحط فى ضواحى المدينة، مما حرم الجيش العربى من

تأمين إحتياجاته فإضطر إلى رفع الحصار، والعودة. وتأثر عمر بن عبد العزيز من هذا، تأثيراً عظيماً. (١)

إلا أن العرب لم تصرفهم هذه الهزيمة عن محاولة الفتح مرة آخرى، وكانت هذه المحاولة فى زمن الخليفة العباسى المهدى [٧٧٥ - ٧٨٥م] الذى أجبر ليون الرابع على التسليم للعرب بالتفوق بعد إستيلاءهم على فيريكيا، وإكتفى الأخير بمناوءة القوافل العربية. .إلا أن المهدى عاود فى السنة التالية إعداد العدة، وبعث بقوة إلى كيليكيا، وعسكرت فى ضواحيها، وقد تصادف وفاة ليون الرابع، وحل نجله الصغير قسطنطين بورفيروكه نه طوس محله إمبراطوراً على بيزنطة، ولكن أمه إيرن، Eireneهى التى كانت تمسك بزمام الأمور. وقد عقدت العزم على الإستمرار فى محاربة العرب. .ولما أدرك المهدى ذلك فما كان منه إلا أن إستدعى إبنه هارون الرشيد من آذربايجان، وعينه قائداً للجيش المعسكر فى كيليكيا وبعث معه بمعلمه، ومربيه يحى بن خالد البرمكى ليكون بجواره. واتضح للعيان أن هدف تحركات الجيش العربى هو القسطنطينية وخاصة بعد أن انتصر هارون الرشيد على الجيش البيزنطى بقيادة نيكه طاس، وإتجاهه نحو العاصمة حتى واصل إلى أسكيدار (١٦٥ هـ = ٧٨١م)، وما هى إلا أيام قليلة حتى رأت واسيليسا إيرن أضواء معسكر جيش هارون الرشيد على سواحل مضيق البوسفور من نوافذ قصرها. .وعندما تغلبت المفرزة التى بعث بها هارون الرشيد على الجيش البيزنطى الموجود فى «ليديا» فدب الخوف، وتملك القلق بايرن. فقبلت شروط الصلح الذى فرضها العرب. .ودفعت جزية سنوية قدرها سبعون ألف دينار ذهبى، ولتيسير عودة الجيش العربى، وضعت تحت إمرته المرشيدين، والأرزاق، والمؤن اللازمة لهذا الهدف. .

ولكن عقب انتصار الأسطول الإسلامى على الأسطول البيزنطى عند سواحل «بامفيليا» آثناء حصار جزيرة قبرص. وتم أسر بعض الضباط الروم، وإعدامهم فى بغداد لما صدر عنهم من تجاوزات. وفى نفس هذه الأثناء كان جيش المسلمين بقيادة إسحاق بن سليمان يتابع إنتصاراته داخل آراضى بيزنطة، وأراد هارون الرشيد أن يتابع هذه الإنتصارات بنفسه، فسار إلى الآناضول، وأحرز عدة انتصارات، مما أوقع الإمبراطوره إيَرن فى حيرة، وقلق فأرسلت بالرسل لطلب الصلح فوراً. ونتج عن هذه الصلح الذى عُقد بالقرب من طرسوس مبادلة الأسرى فقط. وفى السنة التالية لهذا الصلح، تقدم الجيش العربى بثلاثة أجنحة نحو القسطنطينية. وأجبر المسلمون الإمبراطوره على رفع الحواجز والعوائق التى وضعتها فى المضيق. وإن لم يصلوا إلى الهدف المنشود.

ولكن ما أن تولى نيكه فوروس Nikephorosالإمبراطورية، حتى بعث إلى الخليفة العباسى

---

(١) أحمد رفيق، مرجع سبق ذكره ص ١٣٤ - ١٣٦.

هارون الرشيد خطاباً تنكر فيه لكل ما كانت تقدم عليه إيرن، فكتب هارون الرشيد رده المختصر على ظهر نفس الرسالة قائلاً. .«لقد قرأت رسالتك. .ولن تسمع ردى. .بل ستراه. .» وعلى الفور زحف بجيشه الجرار، ودخل إلى الأراضى البيزنطية، ولم يتوقف عن زحفه إلا بعد أن وافق نيكه فوروس صاغراً على إعادة دفع الجزية. ولكنه عاد، ونقض عهده سنة ١٩٠هـ = ٨٠٥م فلقى الجزاء الأوفى، ووافق على كل الشروط المهينة التى فرضت عليه. .(١)

محاولات الترك العثمانيين لفتح القسطنطينية:

نستنشق من نسمات التاريخ أن الترك العثمانيين منذ أن أسسوا دولتهم، وهم - طوال القرن الرابع عشر الميلادى = الثامن الهجرى يهتمون بشكل أو بآخر بالقسطنطينية، وبداية من نهايات هذا القرن وحتى أول حصار حقيقى، وإعتباراً من اورخان (١٣٢٦ - ١٣٥٩م) وحتى مراد الأول (١٣٥٩ - ١٣٨٩م) وقواتهم تطل على أسوار المدينة بعين الصديق حيناً وبعين الغازى حيناً آخر. .فجندُ الترك فى سنة ٧٤١هـ = ١٣٤٠م تقدمت حتى أبواب القسطنطينية؛ وأوشكت المدينة على السقوط فى يد مراد الأول سنة ٧٧٧ هـ - ١٣٧٥م زمن الإمبراطور ليونيس الخامس Loannis V . وأن السلاطين العثمانيين، كانت لهم تدخلاتهم فى شئوون الإمبراطورية البيزنطية، بشكل أو بآخر. .، بالرغم من هذا، فإن أول محاولة حقيقية لمحاصرة المدينة جاءت على يد يلديرم بايزيد (١٣٨٩ - ١٤٠٢م). فبعد انتصارات قوصوا، وعقد الصلح مع المسيحيين وتقوية نفوذه فى الروميلى بدأ فى اتخاذ تدابير أكثر صرامة ضد البيزنطيين. وقد ساعده على ذلك ما كان متفشياً بين الأسرة الحاكمة فى بيزنطة، من صراعات، واختلافات. .وقد سار نحو استانبول من أدرنه سنة ٧٩٣ هـ = ١٣٩٠م متزرعاً بآسباب شتى. .وعندما وصلت طلائع الجيش العثمانى إلى أسوار المدينة، تحرك ليونيز الشاب، ونجح بتأييد من بايزيد ومعاونوه فى الداخل من دخول المدينة فى ١٥ نيسان سنة ١٣٩٠م = ٧٩٣هـ وأعلن نفسه إمبراطوراً تحت لقب ليونيز السابع، وظل يدفع مقداراً من الذهب، والفضة سنوياً، لقاء ذلك، للسلطان العثمانى.

منذ ذلك الحين وبايزيد يهتم بأمور القسطنطينية، وبِمَنْ سيتولى الحكم من الأباطرة، وبناءاً على تأييده، ودعمه للإمبراطور ليونيز الخامس الذى تمكن من الفرار من محبسه، والوصول إلى الحكم. قبل الأخير أن يُقدم إلى السلطان بالإضافة إلى المبالغ السابقة، مقداراً من الخيالة، والمشاه بلغ ١٢ ألف جُندى. وقبل أن يكون شبه تابع للعثمانيين، يصادق صديقهم، ويعادى عدوهم. وإضطر ليونيز

(١) المرجع السابق ص ١٥٢ - ١٦٧.

السابع الذى حُرِم من تأييد بايزيد إلى ترك القسطنطينية، والفرار منها. إلآ أنه بسبب مساعى بايزيد، ووساطته تركت له إدارة مناطق سيليڤرى وتكيرداغ، وسلانيك. وهذا ما يُشير صراحة إلى توجه السلطان العثمانى ونواياه تجاه مدينة القسطنطينية.

ولكن من التلميح إلى التصريح؛ فبعد إنتصار السلطان بايزيد على الصليبيين، بزعامة ملك المجر، فى نيكوبولى (ذو الحجة ٧٩٨هـ = سبتمبر سنة ١٣٩٦م) قال وهو فى نشوة النصر، والظفر؛ أنه سيفتح إيطاليا ذاتها، ويُطْعم حصانه الشعير فى مذبح القديس بطرس بروما..،، رداً على استفزازات الغرب.

عاد بايزيد إلى أدرنه، وقد ترك كتيبة من جنده تُحاصر القسطنطينية فقد أصبح يرى ألاَّمندوحة له من الإستيلاء عليها؛ لتأمين كيان دولته، وطلب من الإمبراطور أن يسلمهاله، ووعده بالأمان لنفسه، ولجميع أهل المدينة قبل أن يفتحها عنوة، وتزهق الأرواح، وتراق الدماء وكان هذا الحصار سنة ٨٠٢هـ = ١٤٠٠م ويعتبر آخر حصار للمدينة فى زمن بايزيد.. وتأتى الرياحُ بما لا تشتهى السفن، فالعاهل التترى تيمورلنك كان قد وصل فى زحفه من المشرق إلى حدود الدولة العثمانية، وشرع فى التوغل فيها. وكان سقوط سيواس سبباً فى رفع الحصار عن القسطنطينية.

إلتقى جيشى العثمانيين والتيموريين، فهُزم العثمانيين هزيمة «ساحقة»، ووقع بايزيد فى الأسر هو، وإبنه موسى، وبعض كبار رجال جيشه سنة ٨٠٤هـ = ١٤٠٢م [١]. فثملت دول الغرب، بعد أن هزها الفرح، والطرب لما آصاب بايزيد، وما آلت إليه دولته، من التفكك، والإنحلال..

ولكن ماهى إلا سنوات قلائل، حتى إنبعثت الدولة العثمانية من بين الأنقاض من جديد..، واستأنفت سيرها، فى ثبات وقوة؛ فبعد عشرة سنوات من الحرب الأهلية تولى محمد الأول (١٤١٣-١٤٢١م) الحكم، وقضى سنوات حكمه الثمانى فى إعادة بناء الدولة، وتوطيد آركانها. توفى محمد الأول فى سنة ٨٢٤هـ = ١٤٢١م، فخلفه على السلطة، إبنه مراد، الذى كان فى الثامنة عشرة من عمره حينما ولى السلطنة سنة ٨٢٤هـ = ١٤٢١م. وواصل سياسة والده السلمية؛ فصالح أمير القرامان، وهادن ملك المجر لمدة خمس سنوات.

ولكن إضطرته الظروف أن يفرض على المدينة حصاراً شديداً سنة ٨٢٥هـ ١٤٢٢م واستمر هذا الحصار من ١٥ حزيران = يونيه حتى ٢٤ أغسطس. وقد بدأ هذا الحصار بعشرة آلاف مقاتل تحت قيادة ميخال أوغلى محمد بك، ثم تبعه السلطان على رأس جيش جرار.. وكان البنادقة رجالاً ونساءً من بين من يقاومون الحصار. ومع أن مراد الثانى لم يكن يملك القوة البحرية التى تساعد على

---

(١) سالم الرشيدى، مرجع سبق ذكره، ص ٣١-٣٥.

أحكام هذا الحصار، إلا أن التفوق العَدَدى، والعُدَدى الذى شهدت به كل المصادر قد عوضه عن نقص القوات البحرية. ،لم ير الإمبراطور البيزنطى بداً من عرض الصلح، وتقديم مبالغ مالية، فى مقابل رفع الحصار. وتسجل كل المصادر التى تُؤرخ لهذا الحصار أن المدفعية التركية، التى كانت تحاصر المدينة، والتى كثفت هجماتها، فيما بين طوپ قاپى = باب المدفع، وباب أدرنه قد إستطاعت أن تفتح فتحات كبيرة فى أسوار المدينة. وأن السلطان قد أمر بصناعة أبْراج من الأخشاب تتفق مع إرتفاع الأبراج الموجودة فى الأسوار، وقد إستطاعت القوات التركية، أن تسحبها، على عجلات حديدية، حتى أوصلتها إلى جانب الأسوار، وأن هذه الأبراج قد سهلت الهجوم، ومكنت القوات الأخرى من القيام بشتى أعمال الحصار، والهجوم، والمقاومة؛ كفتح فجوات فى الأسوار وإشعال النيران، واستخدام العربات التى تجر آلات الحرب، وأن السلطان بنفسه كان يَشد من أزر الجنود، ويُشعل حماسهم؛ ويمنيهم بالغنائم، والمجد إن هم تمكنوا من فتح الأسوار. ومن ناحية آخرى كان الميئات من الدراويش، والمتصوفة، والأولياء يعملون بجد بين الجنود؛ وعلى رأس هؤلاء أمير سلطان، الشيخ سيد بخارى الذى كان يقلد السلاطين سيف السلطة ومشهوراً بين الناس بورعة وتقواه. وكان لمقدم هذا الشيخ الجليل من بورصة، واشتراكه فى الحصار أشعل الحماس، ورفع الروح المعنوية لدى الجنود. وقد شارك هذا الشيخ الجليل،والمتصوف الورع أمير سلطان فى الهجوم الذى تم يوم ٢٤ من آغسطس غير أن ثورة جديدة فى آسيا الصغرى إضطرته إلى رفع الحصار والتوجه إلى بورصه... فقد نجح إمبراطور القسطنطينية فى إغراء الأخ الأصغر للسلطان مراد والذى يدعى مصطفى، وحمله على الخروج على أخيه، ليخفف بذلك، عن نفسه، وطأة الحصار المضروب.. تمكن هذا المصطفى من هزيمة جيش للسلطان فى آسيا الصغرى.. فلم يجد السلطان بداً من رفع الحصار عن القسطنطينية، والإسراع لقمع الثورة، وقضى على الثائر [1].

صرف مراد الثانى النظر لفترة ما، عن معاودة الحصار، بل وعقد صلحاً، بعد سنتين مع مَنْ خَلَفَ مانوييل فى السلطة، دفع الإمبراطور بمقتضى هذا الإتفاق، جزية بلغت ثلاثمائة ألف آقچة سنوياً، إلى السلطان. وقد تم عقد هذا الاتفاق فى ٨٢٨هـ ٢٤ فبراير سنة ١٤٢٤م.

كان من الواضح أن هذا الصلح، والسلام لن يدوم طويلاً، بين الدولتين؛ فعقب قيام البنادقة بهجوم سنة ٨٣٨ هـ = ١٤٣٤م على بيزنطة، وإحداث تخريبات كبيرة فى أسوار المدينة، استغل ليونيز الثامن الفرصة، وقام بإجراء استحكامات متينة للمدينة؛ وأجرى ترميمات قوية لأماكن متعددة فى الأسوار المحيطة بها.. والكتابات المكتشفة تثبت ذلك. وفى سنة ٨٤١ هـ ١٤٣٧م توجه ليونيز

(1) Yavuz Bahadiroglu, Osmanl, padisahlarl, Ansiklopedisi, Yeni Asya Yayin IsT, 1986. s, 85 - 107.

الثامن إلى إيطاليا فى رحلة الهدف منها هو توحيد الكنيستين، وجمع كلمة الغرب، ومحاولة للحفاظ على بقاء دولته . . والملفت للنظر، أن هذا الإمبراطور، قبل أن يخرج إلى هذه الرحلة، إستطاع أن يستصدر قراراً من مجلس الإمبراطورية بإرسال سفير إلى السلطان العثمانى ليخبره بالقصد، والهدف من هذه الرحلة . ولم يعترض مراد الثانى على هذا، بل على العكس من ذلك؛ أرسل إلى الإمبراطور مُعْرباً عن استعداده لتقديم كافة المساعدات التى تضمن نجاح الرحلة . ولكنه فى نفس الوقت أدرك أن الفرصة قد حانت للقيام بحصار جديد حول المدينة . . وعرض الأمر على مجلس الديوان، وخلال المناقشة قدَّم خليل باشا، الصدر الأعظم(*)، العديد من الطروحات التى جعلت السلطان يصرف النظر عن ضرب الحصار حول مدينة القسطنطينية؛ ولم تواتيه الفرصة بعد . . ولكن حل مشكلة هذه العاصمة المؤثرة، بشكل نهائى قد نال شرفه، خلفه العظيم .

آفاق الفتح المبين:

كانت وفاة السلطان مراد الثانى فى اليوم الثالث من شهر فبراير سنة ١٤٥١م = ٨٥٥ هـ . ولم ينطق بالشهادتين إلا بعد أن أوصى مَنْ حوله قائلاً (نصِّبوا ابنى محمداً سلطاناً، وساعدوه على فتح القسطنطينية) ثم أسلم الروح، وعاشت أدرنه حزناً عميقاً . .

تحرك الصدر الأعظم، جليل باشا الچندرلى، وقضاة الجند، والوزراء والقادة، والقواد بسرعة، وطيَّروا الخبر سريعاً إلى ولىِّ العهد فى مغنسيا، وكتموه عن أقرب المقربين، حتى لا يتسرب إلى الأعداء، المتربصين بالدولة، فى الداخل، والخارج .

ما أن تسلم الأمير محمد الرسالة، وعلم بالخبر المحزن، حتى وجد نفسه أمام مهام جسام، ولم يكن لديه الوقت للحزن، فرتب أمور الولاية، وامتطى صهوة جواده الأبلق، مخاطباً كل من حوله قائلاً (مَنْ أحبنى فليتبعنى) وانطلق نحو أدرنه . ووصل آسوارها بعد ثلاثة عشر يوماً . وما أن وصل الخبر، حتى هب إلى استقباله الصدر الأعظم ورجالات الدولة، ومفتى الإسلام الشيخ فخر الدين العجمى . وعند الإستقبال، كان العالم الجليل، موللاخسرو، يقف على يمين ولى العهد . . ومن هذه

(*) الصدر الأعظم : الچندرلى قره خليل باشا :أول من تولى هذا المنصب فى الدولة العثمانية هو علاء الدين، الأخ الأكبر لأروخان، ثم تلاه سليمان باشا . وكانا من العائلة الحاكمة .وأول صدر أعظم من الرعية هو الچندرلى قره خليل « خير الدين باشا » . وبعد وفاته تولى أبنه الصدارة . وحتى السلطان سليمان القانونى كان يُطلق على الصدر الأعظم . .الوزير الأول . . ثم تلاه الوزير الثانى، والثالث والرابع وحتى الخامس . وكانوا يجتمعون تحت قبَّة الديوان ولذلك أُطلق عليهم وزراء القبَّة انحصر هذا المنصب فى عائلة چندرلى حتى عصر السلطان محمد الفاتح، بعدهم، بدأ فى توجيه هذا المنصب واسناده إلى أهل العلم، والخبرة، والدراية .كان الصدر الأعظم يدير أمور الدولة من قصره . وبعد فتح استانبول واتخاذها عاصمة، أصبح يُطلق على سراى الصدر الأعظم « باب الباشا » أو باب العدل = آصفى وأخير « بابا عالى » أى الباب العالى . وبعد ذلك أصبح هذا اللقب يطلق على الدائرة الرسمية التى تدار منها البلاد كان الصدر الأعظم هو الذى يحمل ختم السلطان . وكان الصدر الأعظم يضعه فى يده . ثم صنع له محفظة من الذهب ليوضع فيها .والصدر الأعظم هو المرجع العسكرى والإدارى لكل شئوون الدولة . « المؤلف »

اللحظة، استبان للجميع مدى إحترام السلطان المرتقب للعلم والعلماء. وكانت الجموع الغفيرة تهتف بحياة السلطان الجديد . .

تمت مراسم إعتلاء العرش يوم ١٨ فبراير من نفس العام في السراى الجديد على ضفاف نهر الطونة في العاصمة أدرنه . . وكان حفلاً مشهوداً . . وبينما أصطف الوزراء، والقادة، والقواد ورجالات الدولة للبيعة، والتهنئة، لمح السلطان الجديد أن الصدر الأعظم خليل باشا لم يأخذ مكانه في الإحتفال، بل يقف بعيداً . . فإلتفت السلطان إلى ياوره قائلاً :

ـ لماذا يقف وزيرى العظيم بعيداً . . إنه ذكرى والدى . . فليقترب . إنفعل الصدر الأعظم خليل باشا، من هذا الموقف، وتقدم من السلطان مدمع العينين، وقبَّل يديه، مقدماً البيعة، والتهنئة . فما كان من السلطان الشاب إلا أن إبتسم للصدر الأعظم قائلاً ؛

ـ إن هذا الشعر، وهذه اللحية؛ قد إبيضتا في خدمة والدى العظيم، وسيَّرت أمور الدولة على خير ما يرام . . فليرضى عنك المولى . . ولتستمر في خدمة الدولة . وننتظر منك الهمة والغيرة . . ،،

تبين للجميع أن العهد الجديد، ليس عهد حقد، وإنتقام، بل هو عهد الفتح، والفاتح . عهد الفتوحات وتحقيق الطموحات . (١)

طفولة الفاتح :

تُسجل كتب التاريخ أن السلطان محمد الثانى ولد في ليلة ٢٩ / ٣٠ مارس سنة ١٤٣٢م = ٨٣٦هـ كانت أمه سلطانة متدينة، تسمى هوما خاتون، وقد حرصت على تعليمه، وتربيته الدينية منذ الصغر .

قضى الأمير، فترة من حياته المبكرة، في السراى العتيق، في أدرنه . ثم بعث به والده إلى بورصة(*) للإستمرار في التعلم، بعيداً عن القصر، وظل في بورصة حتى بلغ العاشرة من عمره . وذات يوم، ومازال الأمير صبياً، اصطحبه والده السلطان مراد الثانى، إلى مجلس الصوفى الورع، والولى التقى، حاجى بيرام (*) . كان السلطان مراد مهموماً، ومشغولاً في هذه الأوقات بمشاكل القسطنطينية، وحصارها . . وفتح السلطان قلبه للحاجى بيرام، وحدَّثه عن معاناته . . فما كان من الولى إلا أن إبتسم للسلطان، وقال :

---

(١) ياووز بهادراوغلى، المرجع السابق . ص ١٠٩ ـ ١١١ .

(*) بورصة : إحدى اشهر المدن التركية المعاصرة . . وكانت أول عاصمة للدولة العثمانية . ثم تلتها أدرنه ثم استانبول . لها مكانة مرموقة في الحضارة التركية العثمانية حيث شيد بها العديد من المساجد والجوامع والمدارس والأضرحة العثمانية . وظلت الى عهد بعيد من الفتح العثمانى لمدينة استانبول وهى المدفن الاساسى للسلاطين العثمانيين . « المؤلف »

(*) حاجى بايرام والى : من شعراء التصرف الكبار في القرن الرابع عشر وحتى السادس عشر . بعد أن أتم دراسته العالية توجه إلى أنقره وبدأ التدريس بها، وبعد مدة ترك التدريس وسلك طريق التصوف، تجول في الشام والحجاز في معية الشيخ بابا . . وعقب وفاة الشيخ عاد الي أنقره واسس الطريقة البايرامية . ذاعت شهرته، وكثر مريدوه، فدعاه السلطان مراد الثانى إلى أدرنه . ترك لنا اشعاراً في التصوف ما زالت رائحته بين المتصوفة والدراويش في الآناضول .

ـ مولاى السلطان؛ إن الذى سيفتح القسطنطينية، هو هذا الطفل الصبى وصبى الأقرع . .

وكان الطفل الذى أشار إليه الولى، هو محمد الثانى، والأقرع هو التلميذ آق شمس الدين(*) . وتحققت بشارة الولى كما سنرى.

كان السلطان مراد الثانى، يود لإبنه تعليماً، وتربيةً راقيةً، فجعل بجانبه أكبر علماء عصره. وكان بينهم الشيخ مولاكَورانى (*) وعين السلطان إبنه الأمير محمداً ـ حسب قواعد العصر ـ والياً على أمارة مانيسا = مغنيسيا وهو فى العاشرة من عمره. ومن الطريف أن السلطان مراد الثانى قبل أن يبعث بالشيخ مولا غورانى لكى يكون بجانب الأمير فى مانيسا، أن استدعاه إلى القصر. وبعد استقباله ناوله عصا، وطلب منه إن أبدى الأمير أى نوع من الكسل فى الدرس أن يضربه بهذه العصا.

ذهب الشيخ إلى مانيسا، وكان كلما دخل على الأمير فى قاعة الدرس، تكون العصى التى آعطاه إياها السلطان مراد الثانى فى يده. وذات يوم سأله الأمير فى دهشة؛

ـ ماذا ستصنع بهذه العصا التى فى يدك . . ؟

فرد عليه الشيخ مولاغورانى بمنتهى الجدية؛

ـ لقد أمرنى والدكم السلطان، أن أنفض بها غبار الكسل إذا ما حط عليكم . . وأنا مطيع للأمر.

ولكن لم يستخدمها الشيخ قط، لأن الأمير كان جاداً فى الدراسة مطيعاً لأستاذته . . تعلم العربية فى زمن قياسى، وقد بدأ فى عمر الصبا يقرأ الشعر الفارسى. يقضى نهاره فى تعلم أصول الفروسية وفنون الحرب، ولياليه فى الجلوس إلى الأساتذة لتلقى العلم، وأصول المحاورة . . وبعد أن تعلم فنون الشعر، تعلم أيضاً حرفة صهر وصب المدافع كعادة عصره (*) . وقد تعلمها على يد مشايخ الفتوة.

(*) الشيخ آق شمس الدين :. متصوف، وحكيم طبيب عاش فى عصر السلطان محمد الفاتح، وكان برفقته أثناء حصار وفتح مدينة القسطنطينية وتحويلها إلى استانبول. اسمه الأصلي الشيخ محمد شمس الدين بن حمزه. أصبح فى شبابه مريداً للشيخ «حاجى بايرام ولى» كان مربياً ومعلماً للسلطان محمد الفاتح. توفى بعد فتح استانبول فى غوينوك التى ذهب إليها، وتوفى بها سنة ١٤٥٩م. ومازالت مقبرته هنالك. وتعتبر من اوائل الذين اكتشفوا الميكروبات. وقد ذكر ذلك فى اعماله.

(*) الشيخ مولاكَورانى :. ولد سنة ١٤١٦م فى قصبة كَوران = غوران فى العراق. تلقى دراسته العالية فى البلدان العربية عمل معلماً، ومدرساً للسلطان محمد الفاتح. أصبح قاضى عسكر استانبول بعد فتحها. ثم صار شيخاً للإسلام فى زمن بايزيد الثانى. وتوفى سنة ١٤٨٨م وهو فى مقام المشيخة. له عمل جيد فى مجال التفسير، والحديث النبوى. (المترجم).

(*) لما كان السلاطين العثمانيون منذ السلطان أورخان منتسبون إلى الطرق الصوفية وأعضاء فى جماعات الفتوة = الآخيان. فقد جرت العادة، أن يتعلم كل أمير مهنة أو حرفة يهواها. إمتثالاً، وإقتداءا بالأنبياء؛ فداوود عليه السلام ذاب الحديد فى يده، وكان إدريس خياطاً، ونوح بحاراً، وزكريا نجارا، ويوسف ساعاتياً.

(الآخيان) (*)، ومن يدرى لعله تعلمها عامداً، تمهيداً لفتح القسطنطينية . وربما سبب إختياره لهذه الحرفة، حُبَّه الشديد للنبى داوود عليه السلام، حيث ترسخت فى وجدانه قصته التى وردت فى القرآن الكريم وكان كثيراً ما يقرأها فى كتب التراث (*).

عندما بلغ الأمير محمد الثالثة عشر من عمره، آراد والده السلطان مراد الثانى أن يعتزل الحياة السياسية، ويتفرغ للحياة الدينية فوقع معاهدة صلح وسلم مع المجر، العدو اللدود للدولة العثمانية فى ١٢ تموز = يوليو سنة ١٤٤٤م = ٨٤٨هـ لمدة عشر سنوات، وترك العرش لإبنه مختاراً وإعتزل الحياة فى مانيسا . وأصبح على عرش السلطنة العثمانية صبياً فى الثالثة عشر من عمره . فى الواقع، لم يكن الصدر الآعظم خليل باشا ومعه بعض الوزراء، راضون عن هذه التغيرات . ولكن السلطان مراد الثانى لم يلتفت إليهم .

أراد المجريون أن يستفيدوا من هذه الظروف، فالسلطان الجديد صبى عديم الخبرة . وعليهم أن يستغلوا الفرصة، فيهزموا الترك ويلقوا بهم خارج الآناضول . فنقضوا العهد . ورتبوا حملة صليبية، دخلوا بها الآراضى العثمانية .

فأصر الصدر الأعظم خليل باشا، ومعه بعض الوزراء . .والقواد على عودة مراد الثانى إلى أدرنه، واعتلاء العرش من جديد . وأقنعوا السلطان الشاب بذلك . فبعث السلطان محمد برسالة إلى والده . ولما لم يعد مراد الثانى . .فبعث إليه برسالة آخرى فيها ما يلى :

ـ إذا كنتم أنتم السلطان، فعد، وتولى قيادة جيشك . وإذا كنا نحن السلطان . .فإنا نأمركم، بإطاعة الأمر، وتولى أمر جيوشنا . .

وبناءاً على هذا جلس السلطان مراد على العرش مرة آخرى . وحقق النصر الذى عُرِف فى التاريخ العثمانى بـ (انتصار وارنه) فى ٩ نوفمبر سنة ١٤٤٤م = ٨٤٨ هـ [١].

(*) الآخيان : = الفتوة : هم الفتوة، ويمثلون الفروسية الإسلامية، وهم من المتصوفة آصحاب الحرف . وقد تكونت تشكيلاتهم المهنية والصوفية فى البلاد الآذرية والسلجوقية قبل ظهور العثمانيين . وكانت تعمل على نشر التآخى والتعاون والمحبة بين أرباب المهن والصناعات المختلفة . وقد استطاع الآخيان تكوين حكومة فى أنقره . وبعض سلاطين آل عثمان كانوا ينتسبون إليهم لتعلم بعض الحرف، وقد تتلمذ السلطان محمد الفاتح على واحد منهم فى تعلم اذابة الحديد وصهره وصناعة المدافع . وهذا ما جعله مهيئاً لصناعة المدافع العملاقة عند فتح مدينة القسطنطينية وتحويلها إلى استانبول . «المؤلف»

(*) تحكى كتب التراث، أن النبى داوود، ذات يوم غير من قيافته، وتجول فى الشوارع، فصادف شخصا لا يعرفه، وسأله قائلا : ـ كيف ترى داوود؟

فرد الرجل قائلا : إنه طيب . . ولكن فيه عيباً . . ، فسأله : ـ وما هو هذا العيب؟

ـ إنه يطعم أهله مما يتقاضاه من خزينة الدولة . عندئذ توسل دادود إلى الله أن يمنحه حرفة، فاستجاب الله لدعاءه، وألان له الحديد، وجعله يشكله بالشكل الذى يريده . وبعدها توقف عن آن يتقاضى أى شىء من بيت مال الدولة، وأخذ يطعم أهل بيته من حرفة الحدادة .

(١) ياووز بهادراوغلى، المرجع السابق. ص ١١٥ .

وإن أراد السلطان مراد الثانى الإنسحاب من الحياة السياسية والعودة إلى مانيسا مرة آخرى، إلا أنه عدل عن عزمه، تحت إصرار الصدر الأعظم خليل باشا، وضغوط السياسة الخارجية؛ وحملات الأعداء، وأطماعهم فى الدولة العثمانية؛ وكلها مهام جسام، لا يقوى عليها الأمير الشاب.

بقى مراد الثانى على العرش، وآعاد الأمير، والياً على مانيسا، وظل بها إلى أن واتت والده المنية.

إرهاصات الفتح :

إن محمد الثانى الذى قضى فترة ولاية العهد فى أدرنه، وبورصة، ومانيسا كان يداوم على التعلم، والتدريب أينما ذهب.. كان يدرك أنه فى يوم من الأيام سيحل محل والده.. فاستعد لذلك.. فتعلم إلى جانب ما تعلم اللغة اللاتينية، واليونانية، والأرمنية. ودَرَسَ على يد استاذه موللاخسرو حديث البشارة (لتُفْتَحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش) «صدق رسول الله»

كان محمد الثانى كثيراً ما يستغرق فى تفكير عميق، وربما منذ ذلك التاريخ، وهو يعيش آحلام الفتح، وإرهاصاته، ويبحث عن طريق تحقيق هذه البشارة.

كان يقلب صفحات التاريخ، ويدرس أسباب مناعة القسطنطينية على الفتح رغم تعدد الحصار الذى ضُرب حولها طوال التاريخ.. لابد من وسيلة.

المدينة محاطة بالأسوار المتينة، والأبراج العالية، ورغم هذه الجدران الحجرية الصلبة، إلا أن بيزنطة ينخر فيها السوس، والفساد من الداخل، ولفتح هذه المدينة لابد من إحداث فتحات فى هذه الأسوار. وكان لابد من إختراع مدافع، لم ير الزمان مثلها حتى ذلك الحين.. مَنْ ينجح فى صب هذه المدافع؟ لابد أن نيرانها تشق هذه الجدران.. ذات يوم وهو يُحادث شيخه فى بشارة الفتح.. إلتفت إليه بعد استغراقة فكر، وقال :

- «لو إعتليت العرش ذات يوم، فسأعمل على تحقيق بشارة سيدنا، ورسولنا الكريم.. وما عليكم إلا أن تنيروا لنا الطريق بعلمكم، وتؤيدوننا بدعواتكم..» (١).

هاهو محمد الثانى يجلس على عرش السلطنة. ولابد أن ما يشغله هو تحقيق البشارة.. ولابد من فتح القسطنطينية. وهكذا طار النوم من عينيه منذ الليلة الأولى لإعتلاءه العرش.. لابد من إعداد العدة، ورسم الخطة.

---

(١) المرجع السابق ص ١١٨.

على الجانب الآخر، فى بيزنطة، كانت السلطة قد تبدلت منذ بضع سنين، ففى سنة ١٤٤٨م = ٨٥٢هـ قد مات الإمبراطور البيزنطى وحل محله إبنه قسطنطين الحادى عشر. وكانت آراضى الإمبراطورية البيزنطية أصبحت محاطة بأملاك الدولة العثمانية، من كل جانب، فلا هى إمبراطورية بمعنى الكلمة، ولا هى تمارس إستقلالها كدولة مستقلة كل أملاكها عبارة عن بضع قصبات ممتدة على سواحل بحر مرمرة مثل سيلف Siliv وفيزه Vize ، ومسيفرى Misivri، والقسطنطينية فقط . كان بقاء هذه المناطق بعيداً عن نفوذ، وسيطرة الدولة العثمانية، لا يتمثل فى قدرتها الدفاعية، بل إرتبط ذلك ببعض الصدف البحتة. . فلابد أن تكون هناك بعض العوائق، التى حالت دون سقوط القسطنطينية فى المحاصرات السابقة، وأجلت من إنقراض الإمبراطورية البيزنطية .

إعداد ساحة المعركة :

لابد أن لب تفكير محمد الثانى منذ ولايته الأولى للعرش مشغول بحل هذه المشكلة. . فمن وجهة نظره، إن القسطنطينية ضرورية لتوحيد الممالك العثمانية فى الشرق والغرب. . ولإن ممالك الدولة فى الآناضول، والروميلى = «روميليا» لا يمكن إرتباطهما ببعضهما البعض إلا بالإستيلاء على هذه البقعة. وبها يمكن إحكام السيطرة على البلقان بشكل مطلق. ولا يمكن أن يكون هناك مكان آخر يعادل هذه المدينة فى صلاحيتها لتكون عاصمة للدولة. وأدرك محمد الثانى أنه لن يستقر أمن ولا طمأنينة، ما بقيت القسطنطينية العاصمة الطبيعية لدولته فى يد غيره. ولابد من الإعداد الجيد لذلك . . .

جدد محمد الثانى عقب تولية السلطة عقد الصلح مع قسطنطين، وغيره من الأمراء، والحكام الغربيين، وذلك قبل زيادة مخصصات الأمير العثمانى اورخان الذى كان معتقلاً فى القسطنطينية .

فعل محمد الثانى هذا لكى يتفرغ للقضاء علي القلاقل التى أطلت برأسها فى الشرق، على أيدى أمراء القرامان، وآيدين، ومنتشه. وما أن زحف محمد الثانى إلى آسيا الصغرى لقمع إبراهيم أمير القرامان، حتى بعث إليه قسطنطين وفداً يطلب منه أن يدفع من فوره مخصصات الأمير اورخان، بل ويدفعها مُضاعفة وإلا فإنه سيطلق سراحه، ويثيره عليه، ويمده بالعدة والعتاد. ويجلسه على عرش السلطنة.

لابد أن هناك ثمة تواطىء، وتآمر بين إبراهيم القرامانى فى آسيا وقسطنطين فى أُوروبا للإيقاع بالسلطان الشاب، والقضاء علي دولته، وشجعهما على ذلك حداثه سنة .

استسلم ابراهيم، وقدَّم إبنته للسلطان، وتعهد بالخروج معه ضد مَنْ يُحارب . . .

وصل رسل قسطنطين. وهم يحملون الإنذار، والوعيد [1]. . .ولقيهم الصدر الأعظم خليل باشا الذى تربطه بالروم صلات ودية، إلا أنه لم يتمالك نفسه من الصياح فى وجوههم غاضباً : (. .أيها الروم الحمقى. .لقد عرفنا فيكم الغدر والخيانة، وأنكم تجهلون الخطر الذى يحدق بكم. .لقد ذهب السلطان مراد بحلمه، وسعه صدره، وخلفه على العرش سلطان جديد، فتى لا يفل عزمه شيىء، لئن نجت القسطنطينية هذه المرة من يده، فإن الله إذن قد غفر لكم جرمكم ومكركم. . .أيها الروم الحمقى. .إن العهد بيننا قريب. .والآن تأتون إلينا تهددون، وتتوعدون كعادتكم. . ولكننا لسنا بصبيان آغرار. .أطلقوا أسيركم اورخان إجعلوه سلطاناً على تراقيا. .استنفروا المجرمين، وادعوا أمم الغرب لنصرتكم، وازحفوا علينا بجحافلكم، فإنكم لن تنالوا من وراء ذلك شيئاً. .بل ستعجلون بالقضاء على أنفسكم. .سأذكر لسيدى كل هذا . .وإن ما يريده لن تحول أية قوة دون بلوغه. . .) [2].

ولكن محمداً الثانى، لأمر إرتآه هو، أحسن مقابلة الرسل، ولاينهم فى القول، ووعدهم بالنظر فى طلبهم عقب عودته إلى أدرنه. .وما أن وصلها حتى أمر بقطع المخصصات، وإعداد العدة لحصار القسطنطينية والقضاء على النفوذ البيزنطى الذى يُهدد الدولة العثمانية من حين لآخر.

أدرك السلطان محمد الثانى إن أوروبا النصرانية لن تظل مكتوفة الأيدى، تنظر إلى مصرعها على أيدى المسلمين بغير إكتراث ولا مبالاه. .فتحرك تجاهها وعقد الإتفاقات السلمية مع البنادقة، والمجرمين، والأفلاق، والبوسنة. .وعقد هدنه لمدة ثلاث سنوات مع هونياد المجرى. ثم شرع فى بناء قلعة الروميلى على الجانب الأوروبى من البوسفور؛

قلعة الروميلى : Rumal Hisar

ما أن إستقر عزم محمد الثانى على فتح القسطنطينية، وإعداد ساحة المعركة، وضرب الحصار، حتى تحرك بطلائع جيشه، ووصل إلى الضفة الآسيوية من البوسفور؛ وقام بتفحص قلعة الآناضول التى تتحكم فى المضيق من الناحية الأسيوية، فتاقت نفسه إلى إنشاء مثيل لها على الضفة المقابلة، حتى يتم التحكم فى المضيق، بل إغلاقه تماماً لو اقتضى الأمر. .فخاطب مَنْ حوله من رجالات الدولة وقادة جيشه قائلاً :

(كم كان جدى السلطان بايزيد عظيماً، فقد أحسن إختيار موقع القلعة، ونحن بدورنا لوأقمنا

---

(١) سالم الرشيدى، مرجع سبق ذكره ص ٧٨ - ٧٩.
(٢) المرجع السابق ص ٧٩.

فى مواجهتها قلعة آخرى، لأحكمنا الحصار، وقطعنا طريق البوغاز البحرى إلى القسطنطينية. .وبهذا تفقد اتصالها بالعالم الخارجى. .يجب أن تكون هذه المدينة هى عاصمة ملكنا. .) [1].

تم على الفور؛ إختيار الموقع فى أضيق مكان مطل على البوسفور من الشاطىء الأوروبى، ليحكم الإغلاق. .ويحول دون وصول الإمدادات الأوروبية من البحر الأسود. .

أمر بجلب الأخشاب ومواد البناء، من أصلب الجبال الحجرية المحيطة، وأحضر أمهر العمال والبنائين، والنجارين، والمهندسين من شتى أنحاء الإمبراطورية. .وعندما شُرع فى البناء؛ شارك بنفسه ورجالات الدولة، والقضاة، والعلماء، والفقهاء فى إلقاء حجر الأساس؛ فى الحادى والعشرين من مارس سنة ١٤٥٢م = ٨٥٦ هـ ، وعين المعمارى الأشهر آنذاك مصلح الدين آغا . رئيساً لمهندسى المعمار، والوزير شهاب مشرفًا عاماً على أعمال البناء، والتشييد، وكان شيخه، الشيخ خسرو يساعد فى البناء، ويزيد من الشحن المعنوى للعمال، والبنائين، وكل المشاركين، مبشرهم بالفوز بتحقيق البشارة النبوية. ويجسد التفانى فى الجهاد، ورفعة شأن البلاد وقت الجهاد.

قامت القلعة على شكل مثلث، سمك جدارها عشرون قدماً، فى كل زاوية برج ضخم مغطى بالرصاص، سمكه إثنان وثلاثون قدماً، فى كل زاوية برج ضخم مغطى بالرصاص، سمكه إثنان وثلاثون قدماً. ونصبت على الشاطىء مجانيق ومدافع ضخمة جثمت كالغيلان وقد صوبت أفواهها إلى البوغاز لتمنع السفن من المرور هذه القلعة (بوغازكسن) أى قاطع أو قافل البوغاز = قافل المضيق

إنتهى البناء فى نهاية شهر يوليو = تموز من نفس العام، وعيَّن محمد الثانى القائد فيروزآغا محافظاً عليها ومعه أربعمائة من الإنكشارية، وأمره بألا يسمح لأى سفينة بالمرور من بوغاز البوسفور إلا بعد التفتيش، وتأدية ضريبة المرور، وإلا، فتطلق عليها المدافع وتغرق. .وهكذا تم إغلاق طريقة البحر الأسود بالكامل أمام بيزنطة.

على الجانب الآخر، كانت أعمال البناء، والسرعة التى تسير بها قد خلقت قلقاً، وإزعاجاً شديداً، لدى الإمبراطور البيزنطى، فأرسل الرسل والسفراء إلى محمد الثانى، راجياً عدم إقامة القلعة، فما كان من السلطان إلا أن رد على هؤلاء قائلاً :

(ـ إن كيفية استخدام آراضينا، أمر راجع إلينا. .ولسنا فى حاجة إلى الإستئذان من أحد، بهذا الصدد. .إن سواحل الروميلى ملكنا. .نستخدمها بالشكل الذى نريده. .وليست هناك قوة تحول

---

(١) ياووز بهادراوغلى ـ المرجع السابق ص ١٢٠ .

دون ذلك . .إذهبوا . .وأخبروا سيدكم أن السلطان العثمانى الحالى لا يشبه الآخرين . .) [١] .

عاد السفراء والرسل إلى القسطنطينية .

وجاء السلطان لمعاينة القلعة، فأعجبته، وانتقل إلى الضفة الأخرى، وتفقد الأسوار . وعاد إلى أدرنه فى الأول من سبتمبر سنة ١٤٥٢م = ١٥ من شعبان ٨٥٦ هـ للإسراع فى استعدادات الحرب . وكان يرد على الذين يستصعبون فتح القسطنطينية قائلاً :

(- إما أن نأخذ القسطنطينية . .أو تأخذنا القسطنطينية فسوف نسير فى طريق الفتح حتى باب القبر)

المدافع العملاقة :

عاشت الأسوار فى ذاكرته طوال رحلة العودة، ولابد لها من حلٍ، وقد حان الوقت لصب المدافع، فأسند ذلك إلى مهندسه المجرى الأصل أوربان « URBAN (*) » وكلَّف المهندسان مصلح الدين آغا، وصاروجه سكبان بهذه المهمة لإنجازها فى أقصر وقت ممكن فوعدوا السلطان بإنجاز المهمة .

استمرت التجارب وتدريب الجنود ليلاً ونهاراً بلا انقطاع تُجرب المدافع الجديدة، ويقضى السلطان لياليه فى رسم الخطط ووضع الخرائط، والتوسل إلى الله بالعبادة .

نجح أوربان والمهندسان التركيان فى صنع المدافع التى طلبها السلطان، وكان من بينها مدفعا ضخماً عملاقاً، لم ير مثله قط، فى ضخامته، وكبر حجمه؛ فقد كان يزن سبعمائة طن، واسع الفوهة، تزن قذيفته الواحدة إثنى عشر ألف رطل، ولا يطيق جره إلا مائة ثور، يساعدها مئة من الرجال الأشداء، تزحف به زحفاً على مهل، وتؤدة . .وقد قطع الطريق من العاصمة أدرنة إلى موضعه أمام أسوار القسطنطينية فى شهرين، وهو طريق يقطعه السائر العادى فى يومين .

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة .

(*) اوربان : يُعتبر اوربان المجرى الأصل أمهر صانع للمدافع فى عصره، وقد طاف ببعض بلدان أوروبا لعرض بضاعته، فلم يصغ إليه أحد، فذهب إلى القسطنطينية ولبث هناك زمنا يقدم خدماته للإمبراطور، ويعينه على اتخاذ أسباب الدفاع عن هذه المدينة، غير أن الإمبراطور ضن عليه بالمال، وقد كان أوربان جشعاً يحب المال حباً جماً، فبرم بذلك، كما برم بالمناقشات الدينية التى كانت تسود العاصمة، ففرإلى السلطان محمد الثانى، فبالغ فى الحفاوة به، فتح له أبواب خزائنه، وغمره بالمال والعطايا، وطلب منه أن يصنع مدفعاً أكبر من كل ما صنعه من قبل. وفعل اوربان ما وعد به .

عندما عاد السلطان محمد الثانى إلى أدرنه كان الإمبراطور قسطنطين يُؤمن أبواب، وأسوار العاصمة. وقام بحبس المسلمين الذين كانوا يقيمون فى المدينة قبل الفتح.

وما أن علم السلطان محمد بوصول مدافعه العملاقة حتى تحرك ببقية جيشه نحو القسطنطينية. وأقام مركز قيادته فوق تبة تواجه (اكرى قبو) أى بوابة آكرى. وعلى ميمنته مائة ألف جندى، وعلى ميسرته خمسين ألف جندى. وكان زاغانوس باشا يُسيطر على تباب غلطه، ويعسكر فيها. .وإلى جانب المدافع العملاقة الثلاثية كانت هناك أربع عشرة بطارية من المدافع المختلفة الأحجام. كما كانت معدات تسلق الأسوار، والأبراج على أهبة الاستعداد. كما كان الأسطول قد توجه نحو مياه القسطنطينية تحت قيادة القبطان بالطه اوغلى سليمان، فى ربيع الآخر سنة ٨٥٧هـ = ١٤٥٣هـ

لم يكف الإمبراطور قسطنطين دَراغوزس، منذ أن رأى أعمال البناء فى قلعة الصفة الرومية، عن عمل الإستحكامات فى المدينة، وكانت هذه الآعمال تجرى جنباً إلى جنب مع مساعيه لمنع محمد الثانى من إتمام عملية البناء. وتُجمع المصادر الغربية على أن القوات التى توفرت لدى الإمبراطور داخل المدينة كانت فيما بين ثمانية وتسعة آلاف مقاتل محترف إلى حانب ما بين ثلاثين وخمس وثلاثين ممن يحملون السلاح. إلى جانب المتطوعين من كل الجنسيات الغربية، حتى أن العديد من ربابنة السفن الغربية قد انضموا إلى الصفوف البيزنطية. وكان إلى جوار الإمبراطور مدفعيًّا آلمانياً يُدعى (غران). وكان الأسطول البيزنطى عبارة عن تسع وعشرين سفينة حربية، بينها ست قطع كبيرة أجنبية. وأصبحت معدات الحرب من مجانيق مختلفة، ومن تلك التى كانت تُسمى (قـاتـابـولـت Catapalte) تواجه بعضها البعض. كانت المدافع البيزنطية أقل عدداً، وحجماً. .ولكن المدافع العثمانية كانت أكثر عدداً. .وأقوى نيراناً، حتى أنها عند استعمالها قتلت حتى مخترعها اوربان.

أما الأسطول العثمانى فقد كان أقل عدداً، وخبرة. .لدرجة أنه هُزِم منه تسع عشرة قطعة أمام خمس قطع أوروبية قدمت من (صاقيز) فى أول هجوم بحرى. .ودفعت الرياح بهذه السفن حتى أدخلتها وسط سفن الأسطول العثمانى، وتمكنت هذه القطع الخمس من إنزال السلاسل التى كانت تقفل المضيق بآلات خاصة بها، ودخلت إلى المدينة. أثرت هذه المحاولة الأولى بعض الشيء على الروح المعنوية للفاتح، والجنود، مما دفع بالصدر الأعظم خليل باشا أن يقترح الإنسحاب، وترك الحصار، إلا أن السلطان محمد الثانى لم يصغ إليه، وكتمها فى نفسه. وفى البداية أيضاً لم تجد المدافع المنصوبة، بل إن الروم تمكنوا من إحراق الأبراج الخشبية.

أمام هذا الموقف عقد السلطان مجلس الحرب المكون منه ومن زاغنوس باشا،، والمولى غورانى،

والشيخ آق شمس الدين. وكبار القادة، والعلماء. انتصر جانب الفتح، وأمكن - بخطة عبقرية - إنزال السفن - بعد سحبها على ألواح خشبية مغطاة بالزيت والقار - فى الخليج الذهبى أمام منطقتي «بلاط» و «آيوانسراى».

أُبدى الإمبراطور دفاعاً قوياً، ونضالاً مستميتاً. استمر الحصار ثلاثة وخمسين يوماً. ولكن، فى النهاية، أثمر الهجوم الذى تم على سراى طوپ قاپى، واكرى قاپى. ودخلت الجيوش العثمانية فى السابع والعشرين من جمادى الآخر سنة ٨٥٧ هـ = ٣٠ / ٥ / ١٤٥٣م إلى مدينة القسطنطينية، وسط تكبيرات الجند، وهتافاتهم.

حدد القتال بداية أيام النصر، وأبيحت المدينة للجنود ثلاثة أيام فقط. وعقب ظهر اليوم الأول من أيام النصر، وربما فى اليوم الثانى، دخل السلطان محمد مظفراً، إلى المدينة المفتوحة. كان شاباً يافعاً، ربما لم يتجاوز الخامسة والعشرين، ويجعله بعض المؤرخين فى الحادية والعشرين والبعض الأخر فى الثالثة والعشرين من عمره. كان بشاربه الكث الأشقر، وهيئته المهيبة، وثيابه الأنيقة، وفرسه الأبيض، يسير ومن خلفه قواده، وفرسانه، وقوات الإنكشارية بملابسهم الخلابة، وسيوفهم الوامضة يسيرون من خلفه فى خيلاء، ونشوة الانتصار. تملىء فؤادهم. ووسط هذه الحشود المظفرة، والشوارع التى خلت إلا من أجساد القتلى، توجه الفاتح إلى كنيسة الآياصوفيا. وقبل أن يصلها ترجل عن فرسه، وخاطب رجاله مهنئهم بالنصر، وقرأ عليهم الحديث النبوى الشريف، لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش ونهاهم عن القتل، والنهب والسلب، وأن يكونوا أهلا للشرف الذى حباهم به الرسول ﷺ. واستقبل القبلة، وسجد على الأرض، وحثا التراب على رأسه شكرا لله على ما منحه من توفيق ونصر. ثم استأنف سيره إلى كنيسة الآياصوفيا.

- وأدى فيها الصلاة، بعد أن سمع الوعظ من فوق منبرها. وأصدر أوامره بتأمين حياة الناس، وأموالهم، ووقف أعمال السلب، والنهب فى المدينة، وخص نفسه بكل مبانى المدينة لأمر فى نفسه. وبهذه الصلاة، تحولت الكنيسة العملاقة التى بناها «جوستنيان» وزوجته «تيودورا» باسم الديانة المسيحية، ولكي تسود الشرق كله، إلى جامع تُقام فيه الصلاة الإسلامية، وظل يُؤدى وظيفته فى نشر الثقافة، والحضارة الإسلامية إلى سنة ١٩١٢م = ١٣٣١هـ حيث حوِّلت تحت الضغط الأوروبى إلى متحف.

قصد السلطان أيضاً إلى قصر الإمبراطور، الذى كان مثالاً للعظمة والأبهة، والرواء، يزخر بساكنية وزائرية، ولكنه وجده خراباً، وأقفر من ساكنيه منذ اشتداد الحصار، وبدت عليه الوحشة، والظلام، وبينما كان يطوف بين صالوناته الفاخرة، تعجب الفاتح من دوران الفلك، وتمثل أمام

مرافقية، وعلى مسمع منهم بهذا البيت الفارسى (برده دراى ميكند در قصر قيصر عنكبوت بوم نوبت ميزند برقية آفراسياب) (١) .

وعلم السلطان بما آل إليه الإمبراطور الشجاع قسطنطين جوستنيان ونوتاراس . وحزن لذلك، وأمر بقطع رأس الجندى الصربى الذى قطع رأس قسطنطين، وأمر بأن يُحتفل بدفن الإمبراطور بما يليق به .

وسلك الفاتح مسلكاً متسامحاً مع أهل المدينة، وأمر جنده بحسن معاملة مَنْ هم تحت أيديهم من الأسرى، وأفتدى عددا كبيراً من كبار الأسرى بماله الخاص . وأظهر عناية فائقة بالناحية الدينية، وعمل على تنصيب بطريارك جديد على نفس المنوال القديم، واحتفى السلطان به أيما احتفاء، ورافقة حتى الباب الخارجي للقصر .

استعرض الفاتح جنوده فى اوق ميدان، وأقام بينهم المباريات، والمسابقات فى الرماية، والفروسية . وبعدها أقام لهم وليمة فاخرة استمرت ثلاثة أيام متتالية . . ووزع العطايا، والهدايا . . والأوسمة، وأمر ببناء جامع فوق الموضع الذى اكتشف فيه العالم آق شمي الدين قبر الصحابى الجليل أبى ايوب الأنصارى . وآمر بارسال رسائل البشرى إلى ملوك وسلاطين العالم الإسلامى، وغيرهم من الملوك، وكان لهذا الفتح المبين صدا واسع النطاق فى العالمين الإسلامى والمسيحى . .

مدى الصدى السياسى والديبلوماسى والعسكرى للفتح (*) :

بعد ظهيرة الثلاثين من مايو سنة ١٤٥٣م = ٨٥٧ هـ يدخل السلطان محمد الثانى . والذى سيُلقب من الآن فصاعداً بالفاتح على صهوة فرسه الأبلق المدينة . والتى سوف تُسمى منذ ذلك الحين

---

(١) استانبولك محاصره سى وضبطى؛ مؤلفى كَوستاو شلوسيه رزه، مترجم، م. ناهد، استانبول ١٣٣١، ص ٣٣٩ . (ان العنكبوت قد نسجت شباكها فى القصر وأن البوم ينعق من فوق قبة آفرسياب) .

(*) العالم المعروف آثناء فتح القسطنطينية :. عند فتح القسطنطينية لم تكن قارتا أمريكا واستراليا قد اكتشفتا بعد . وكانت القارات الثلاث المعروفة الى حد ما هم؛ أوروبا، وآسيا، وآفريقيا . كانت أشهر حكومات اوروبا هى؛ فرنسا، انجلترى، الدنمارك، سويسرا، النمسا، آلمانيا، روسيه، لهستان بوهميا، المجر، وفى الأندلس حكومة بنو الأحمر المسلمة . وقامت الإمبراطورية العثمانية مقام الإمبراطورية البيزنطية فى الشرق . وبهذا التحول بدأ التاريخ للعصور الجديدة، وأنتهى عصر القرون الوسطى . أما فى آسيا، فقد كانت هناك حكومات؛ العرب، والسلاجقة وامبراطورية طرابزون، وقفقاسيا، وايران، والترك، والتتار، والهند والصين . . وحتى الهند والصين لم تكونا مشهورتان بالشكل الكافى . وفى آفريقيا، كانت المغرب، والجزائر، ومصر . وتقريباً كل ما كان معروفاً من العالم آنذاك لم يكن يتجاوز الخمسة والعشرين دولة .

فصاعداً أيضاً بإسمها التركى استانبول (*)، ويجتازها على متن جواده حتى كنيسة الآياصوفيا = سانت صوفيا، فيؤدى فيها الصلاة، وتتحول منذ ذلك الحين أيضاً إلى جامع تؤدى فيه الصلاة.

كان لإنتقال المدينة فى يد الأتراك المسلمين صدى عظيم فى العالم المعروف آنذاك وإن اختلف الوقع وأثره فى الغرب عن وقعه وأثره فى الشرق.

ففى الشرق الإسلامى، عم الفرح، والإبتهاج بين المسلمين، فى ربوع آسيا، وآفريقيا لهذا الفتح الإسلامى المبين. وما أن وصل رسل السلطان محمد الفاتح إلى مصر، والحجاز، وفارس يحملون آخبار الفتح، حتى هلل المسلمون، وكبروا، وأذيعت البشائر من منابر المساجد والجوامع؛ وأُقيمت صلوات الشكر وجُللت المنازل، والدكاكين، والحوانيت بالزينات، وعُلِّقت على الجدران الأعلام، والبيارق، والأقمشة المزركشة الألوان. وأمضى الناس فى البلدان الإسلامية أياماً كأحسن ما تكون أيام الأفراح، والأعياد الإسلامية، وكيف لا يغتبط كل مسلم وقد رأى تحقق النبوءة النبوية الكريمة، فهاهى القسطنطينية التى استعصت على المسلمين منذ صدر الإسلام قد دانت للمسلمين، ودخلت تحت حوزتهم.

ولندع فى هذا المقام المؤرخ المصرى المعاصر لتلك الأحداث أبا المحاسن بن تغرى بردى(= هـ) (*) يصف لنا شعور الناس، وحالهم فى القاهرة بعد أن وصل إليها مبشر السلطان الفاتح، ورفاقه فى الثالث والعشرين من شوال سنة ٨٥٧هـ = ٢٧ اكتوبر سنة ١٤٥٣م بآخبار الفتح العظيم، ومعهم الهدايا، وأسيران من عظماء الروم حيث قال: «قلت ولله الحمد والمنة على هذا الفتح العظيم وجاء القاصد المذكور ومعه أسيران من عظماء اسطنبول وطلع بهما إلى السلطان (سلطان مصر إينال) وهما من أهل قسطنطينية وهى الكنيسة العظمى باسطنبول فسر السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم ودقت البشائر لذلك وزينت القاهرة بسبب ذلك أياماً ثم طلع القاصد المذكور وبين يديه الأسيران إلى القلعة فى يوم الاثنين خامس وعشرين شوال بعد أن اجتاز القاصد المذكور ورفقته بشوارع القاهرة، وقد احتفلت الناس بزينة الحوانيت والأماكن وأمعنوا فى ذلك إلى الغاية وعمل السلطان الخدمة بالحوش السلطانى من قلعة الجبل...» (١) ويقول ابن تغرى بردى فى كتاب آخر: «ثم طلع قاصد متملك بلاد الروم ورفقته إلى القلعة من غير أن يحضر القضاة وتمثلوا بين يدى

(*) استانبول: هى القسطنطينية، هى در السعادة، ودر السلطنة، ودر الخلافة. واسلامبول، واسطنبول. والباب العالى. وكانت قديماً هى: سينو، آسيتانه، آستانه، بيزانس، بيزانسه، = بيظانسه، بيزانطة، قنسطنطينوبل.

(*) أبو المحاسن بن تغرى بردى: هو أبو المحاسن يوسف بن تغربردى، مؤلف كتابى / ١ - حوادث الدهر فى مدى الآيام والشهور.

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة وقد طبع فى كاليفورنيا سنة ١٩٣٠م.

السلطان وقدموا ما معهم من الهدية التى أرسل بها مرسلهم وكانت تسعة أقفاص سمور وتسعة وشق وتسعة قاقم وتسعة سنجاب وتسعة مخمل مذهب وتسعة مخمل ملون بلا ذهب وتسعة شقف أطلس ومماليك نحواً من ثلاثين فقبلها السلطان ورحب به ثم أنزل إلى محل إقامته ومعه رفقته وهم يتفرجون فى الزينة وكانت عظيمة واستمرت أياماً وتغالى العوام فى شأنها مع استمرار دق البشائر فى صباح كل يوم أياماً » (١).

وهذا الذى ذكره ابن تغرى بردى من وصف احتفال الناس وأفراحهم فى القاهرة بفتح القسطنطينية ما هو إلا صورة لنظائر لها قامت فى البلاد الإسلامية الأخرى. وقد بعث السلطان محمد الفاتح برسائل الفتح إلى سلطان مصر وشاه إيران وشريف مكة وأمير القرمان. كما بعث بمثل هذه الرسائل إلى الأمراء المسيحيين المجاورين له فى الموره والأفلاق والمجر والبوسنة وصربيه وألبانيا وإلى جميع أطراف مملكته.

ولم يورد فريدون بك فى كتابه « منشآت السلاطين » - الذى يُعد سجلاً للمكاتبات بين سلاطين آل عثمان وغيرهم من السلاطين والملوك والأمراء - من هذه الرسائل غير التى بعث بها الفاتح إلى سلطان مصر، وشاه فارس، وشريف مكة، وأجوبتهم عليها. ونحن ننقل هنا بعض هذه الرسائل لما لها من الأهمية التاريخية، ولأنها من جهة أخرى تكشف لنا عن نوع العلاقات القائمة فى ذلك الوقت بين الدولة العثمانية، وبين هذه البلاد الإسلامية، وما يسودها من حسن المودة والصفاء.

رسالة السلطان محمد الفاتح

إلى سلطان مصر الأشرف اينال وهى من إنشاء المولّى الكورانى :

« بسم الله الرحمن الرحيم، متيمناً بذكره القديم (اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) يحمد الله ويثنى عليه عبده المستبشر بالمبشرات المتواترة المتواردة اللاتى ينبئن عن استقرار القدم المقدم المقدام على سرير السلطنة السامية الباهرة بالدولة العلية القاهرة ألا وهو السلطان الوالى العالى العالمى المؤيدى المظفرى الظهيرى النصيرى العونى الغوثى الغياثى الإمامى الهمامى النظامى الذى أشرقت من أفق التوفيق شمس سلطنته وخفقت راية الاقبال من هبوب نسيم خلافته ويتطأطأ لها أعناق الجبابرة نحو سدته السنية ويتكأكأ أقيال الأكاسرة على عتبته العلية وبه أضحت عقود الإمامة

(١) حوادث الدهور. وانظر كتاب تاريخ مصر لابن إياس تجد فيه مجمل ما ذكره ابن تغرى بردى.

منتظمة وأمور السلطنة ملتئمة ويتفاخر بوصفه المآثر ويختال بذكره المفاخر أعني الملكي الألطفي السلطان الأشرف، الأبوى الأعطفي ضاعف الله تعالى ملكه و سلطانه وأفاض على العالمين بره وإحسانه ولا برح في دولة لا تنهدم دارها ونعمة لا تنفصم آثارها وسعادة لا تصفر أوراقها وسيادة لا تتغير آفاقها وما انفك بنود الدين بباهر صولته مرفوعة وأسنة الحوادث في نحور أعدائه مكسورة وجماجم حساده على رؤوس الأسنة منصوبة وتحت الأقدام مخفوضة، ونقول لما تتابعت عندنا الأخبار التي تشتمل على صعود شمس السلطنة على أوج سرير الخلافة أدامه الله وأعلاه وبارك فيه وأبقاه ببركة نبيه المجتبى ورسوله المصطفى عليه وعلى آله من صلة الصلوات أزكاها، ملئنا بهجة وسروراً وغبطة وحبوراً وأنشدنا بلسان صدق . شعر :

هنيئا لمصر أنت صرت عزيزة	بلوغ الأماني وابتغاء المحامد
وتعتدل الأيام فيها ويقتني	صنوف البرايا منه طرف الفوائد
فمنذ ظهرت فيه علايم بأسكم	قد التطمت منها رسوم المفاسد

هذا وإن الولاء والمواصلة بين من تكفل بمؤنه إحياء نسك الحج للعبَّاد والعباد وبين من تحمل بمشاق تجهيز أهل الغزو والجهاد كما هو المتوارث من الآباء والأجداد أنعمهم الله بنعمة الموعود في المعاد فالقلب مصمم على تأييد تلك القديمة بسلوك طرايق تنسى لطائف آخريها بطيب نعيمها لذايذ أوليها فبهذا الحبل المتين نحن ما سكون وعلى هذا الصراط المستقيم المستبين سالكون فشددنا وثاق صدق ذلك المقر العالي أعلاه الله وأسماه وفتحنا أبواب المراسلة وقدمنا أسباب المواصلة وأهدينا طرايف التسليمات السليمات عن شوايب الرياء والرعونات وأتحفنا لطايف التحيات المنورات بنور الإخلاص المجلاة بالولاء والاختصاص المزهرات بصدق الطوية رياضها المترعات من زلال المحبة حياضها ورفعنا الأدعية الصالحة المستجابة والأثنية الفايحة المستطابة والأشواق البالغة ذروة الكمال والأتواق المتوالية بالغدو والآصال وانهينا إلى العلم الكريم محفوفاً بما يسره الله تعالى من المطالب البهية والمآرب السنية إن من أحسن سنن أسلافنا رحمهم الله انهم مجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومه لائم ونحن على تلك السنة قائمون وعلى تيك الأمنية دائمون ممتثلين بقوله تعالى : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله** ﴾، ومستمسكين بقوله عليه السلام : (من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار) فهممنا في هذا العام عممة الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل الله ذي الجلال والاكرام ومتمسكين بفضل الملك العلام إلى أداء فرض الغزاء في الإسلام مؤتمرين بأمره تعالى (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفراً التي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فخراً . شعر :

فكأنها حصف على الخد الاغر　　　وكأنها كلف على وجه القمر

وهى محصنة صعب المرام شامخة الأركان راسخة البنيان مملوءة من المشركين الشجعان خذلهم أينما كانوا وهم مستكبرون على أهل الإيمان متناصرون بالجزاير الغربية مثل رودس وقطلان ووندیك وجنويز وغيرهم من أهل الشرك والطغيان وحصن محصن مسدد مشدد مشيد منسق النظام ما ظفر به أسلافنا العظام هؤلاء السلاطين الأساطين الفخام مع أنهم جاهدوا حق الجهاد ولم ينالوا بها نيلاً وهى قلعة عظيمة مشتهرة فى ألسنة أهل الأراضى باسم القسطنطينية، ولا يبعد من أن تكون هى التى نطق بها صحاح الأحاديث النبوية والأخبار المصطفوية عليه وعلى آله أتم الصلاة والتحية « فيفتحون قسطنطينية فبينما هم يقتسمون الغنايم قد علقوا سيوفهم بالزيتون » . الحديث . وغير هذا من الصحاح المشهورة هى هذه المدينة الواقع جانب منها فى البحر وجانب منها فى البر، فأعددنا لها كما أمرنا الله بقوله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) كل أهبة يعتد بها وجميع أسلحة يعتمد عليها من البرق والرعد والمنجنيق والنقب والجحور وغيرها من جانب البر والفلك المشحون والجوار المنشآت فى البحر كالأعلام من جانب البحر ونزلنا عليها فى السادس والعشرين من ربيع الأول من شهور سنة سبع وخمسين وثمانمائة . شعر :

فقلت للنفس جدى الآن فاجتهدى　　　وساعدينى فهذا ما تمنيت

فكلما دعوا إلى الحق أصروا واستكبروا وكانوا من الكافرين فأحطنا بها محاصرة وحاربناهم وحاربونا وقاتلناهم وقاتلونا وجرى بيننا وبينهم القتال أربعة وخمسين يوماً وليلة . شعر :

إذا جاء نصر الله والفتح، هين　　　على المرء معسور الأمور وصعبها

فمتى طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من شهر جمادى الأولى هجمنا مثل النجوم رجوماً لجنود الشيطان سخرها الحكم الصديقى ببركة العدل الفاروقى بالضرب الحيدرى لآل عثمان قد مَن الله بالفتح قبل أن ظهرت الشمس من مشرقها (سيهزم الجمع ويولون الدبر، بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر)، وأول من قتل وقطع رأسه تكفورهم اللعين الكنود فأهلكوا كقوم عاد وثمود فحفظهم ملائكة العذاب فأوردهم النار وبئس المآب فقتل من قتل وأسر من به بقى وأغاروا على خزاينهم وأخرجوا كنوزهم ودفاينهم موفوراً فأتى عليهم حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين فيومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، فلما ظهرنا على هؤلاء الأرجاس الأنجاس الحلوس طهرنا القوس من القسوس وأخرجنا منه الصليب والناقوس وصيرنا معابد عبدة الأصنام مساجد أهل الإسلام وتشرفت تلك الخطة بشرف السكة والخطبة فوقع أمر الله وبطل ما كانوا يعملون .

وبعد، فكانت فى شط الشرم الذى يكون شمالياً منها قلعة إفرنجية جنوزية وهى المحصنة المدعوة بقلعة (غلطة) وهى جارة لها منسقة النظام مملوءة من المشركين اللئام، فلما حاصرنا قسطنطينية جاءنا أهل تلك القلعة وشددوا بنا ميثاقهم وجددوا معنا وفاقهم وقلنا لهم كونوا كما كنتم واثبتوا على ما أنتم عليه بشرط أن لا تعينوا بها فقبلوا شرطنا وأطاعوا أمرنا، فلما وقع ما وقع على قسطنطينية وجد بين القتلى والأسرى من أهل (غلطة) وهم قد حاربونا وبدا أنهم نقضوا ميثاقهم وأظهروا اشقاقهم فأردنا أن نفعل بهم ما فعلنا بالأخرى، فبينما هم جاؤوا مبتهلين ومتضرعين وقالوا إن لم ترحمنا لنكونن من الخاسرين فعفونا عنهم إنه هو العفو الغفار ومننا عليهم، المنة لله العزيز الواحد القهار، وقررنا على ملكهم الملك لله العزيز الجبار ولكن جعلنا حصنهم صعيداً جرزاً بحيث لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً وملكنا أرضهم وماءهم وكتبنا فى جريدة الجزى أسماءهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون (الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله). شعر:

سعد الزمان وساعد الاقبال ودنا المنى وأجابت الآمال

فلما جمع الله تعالى بفضله فى قلب عبده زين السرورين العظيمين أحدهما حفظ نظام سرير السلطنة وحماية البلاد والآخر قرة لعين الشرع باحياء فرض الجهاد وجه تلقاء الأرض المقدسة التى بارك الله فيها باجراء أحكام السلطنة حامل وقر الثناء وناقل ورق الدعاء فخر الأماجد ذخر المحامد أمير جلال الدين القابونى رزقت عودته بالسلامة بهدية يسيرة من الأسارى والغلمان والأقمشة وغيرها حسبما ذكر مفصلاً فى كتاب غير هذا وإن كانت نسبتها إلى ما وجب علينا كنسبة القطر إلى البحر فالمأمول الاغضاء بحسن القبول فإذا يسر له الله التشريف بتقبيل بساط الخلافة زاد الله بسطه بالعدل والنصر يتأمل ويتمنى أن ينعم بالمشرفات السارة المحتوية بسلامة النفس والنفيس الطيبة وصحة الذات المطهرة أبقاها الله فى دولته دينية ودنياوية وبسوانح الأخبار من مهمات السلطنة كما نتشرف بالانتماء إلى ذلك المقر الشريف ونتلطف بالاعتزاء لذلك المجلس اللطيف ونحن نترقب طيبات أدعية تلك المساكن الطيبة والله مجيبها ببركة نبيه المجتبى عليه من التحيات أزكاها. الحمد لله على نواله والصلاة على محمد وآله والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب» (١)

جواب سلطان مصر

«ضاعف الله تعالى نعم المقر الشريف العالى المولوى الأولوى الكبيرى العالمى العادلى المؤيدى العضدى الكهفى العونى الغوثى الغياثى الملكى السيدى الهمامى النظامى القوامى المظفرى الذخرى

---

(١) فريدون بك منشآت السلاطين. القسطنطينية ١٢٦٤هـ.

الممهدى المشيدى المجاهدى المشاغرى المرابطى الظهيرى الناصرى معز الإسلام والمسلمين ناصرى الغزاة والمجاهدين ملجأ الفقراء والمساكين زعيم جيوش الموحدين ممهد الدول مشيد الممالك عماد الملة حامى الثغور ولا زالت أخبار فتوحاته متواترة وركايب نصره فى ساحة الوجود سائرة وعرصة الهيجاء قائمة فالأفلاك الدائرة تجرى بتأييده فيجعل لأولياته العقبى وعلى أعدائه الدائرة. أصدرنا هذه المفاوضة إلى المقر الكريم مهنئة له بهذا الفتح الذى ادخره الله لأيام سعده وهذا النصر الذى مَنّ الله تعالى به على المسلمين وما النصر إلا من عنده وتهدى اليه سلاماً طاب نشره وثناء يشنف الأسماع ذكره ونبدى لعلمه الكريم إن مكاتيبه الرفيعة التى جهز الينا على يد رسوله المجلس السامى الأميرى الكبيرى الذخرى العضدى المؤتمنى الجمالى يوسف القابونى الناصرى أحسن الله وفادته ويسر بالخير إعادته وقفنا عليها وصرفنا وجه الأقبال اليها وسرحنا النظر فى زمن الحمائل من سطورها وشرحنا الخاطر ببديع منظومها ومنثورها ووجدناها لها محلاً من البلاغة عالياً لا يدرك ثناءه الأوهام ومنهلاً من الفصاحة عذباً ازدحمت فيه غرايب المعانى وانتهينا إلى ما أشار اليه مما يسره الله تعالى له من فتح القسطنطينية العظمى وماخصه الله تعالى به من آيات النصر ومنحه به من ألطافه الخفية وفهمنا ذلك مجملاً ومفصلاً ومفرغاً ومؤصلاً وكررنا حمد الله عز وجل على ما مَنّ به من هذا الفتح المبين وهذه النعمة التى تتضمن تثبيت قلوب المتقين على اليقين وإعلاء كلمة الموحدين على الملحدين وهذه النصرة التى أصبحت بها كلمة الايمان منتشرة وجبهة الصادقين مبيضة وشفاه المسلمين ضاحكة مستبشرة ووجوه المشركين عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة، وقد أعدنا الجواب عن ذلك وعن جميع ما أشار اليه مفصلاً على يد رسوله المجلس الجمالى المشار اليه أعلاه كما سيحيط به علمه الكريم بعد أن عاملنا بمزيد الإنعام ووافر الاحترام وأفضينا عليه وعلى من معه خلع التشريف والاكرام وأنعمنا عليهم من مائدة الاحسان التام وأعدناهم إلى خدمتهم الكريمة على أحسن الوجوه وأجمل الحالات وجهزنا صحبتهم الواصل بهذه المكاتبة هو المجلس العالى الأميرى الكبيرى المؤيدى الذخرى الأعزى الأخصى المؤتمنى المقربى السيفى برسباى الأشرفى أحد أمرائنا وأوحد أخصائنا كتب الله تعالى سلامته وأدام سعادته وحملناه من السلام الوافى والاكرام الكافى ما هو أزكى من نشر الخزام وعن المحب الصافى والود الشافى ما لو تجد لكان أصفى من ماء الغمام ومن الصداقة والاخلاص والموالاة والاختصاص ما هو على ذلك شهيد وله مبدىء ومعيد وجهزنا على يده من الهدية ما يؤكد أسباب الوداد والمحبة ويوثق عرى الاتحاد والصحبة كما هو دأب السالفين الاقدمين من الحكام والسلاطين وهى هذه:

سيف	يمجا	دبابيس	جوفلان
سقط ذهب وبدله مكاكين	سقط ذهب	يرد غانيات وأطبار	مخمل أحمر بمسمار
من سمك وسيولق	عا	فولاد	ذهب
مكسر	كطوان	سرج	قماش اسكندرى
مخمل أحمر بصفايح ذهب	مخمل أحمر بمسمار	ذهب وعرقية	قطعة
سقط ذهب خاص نح حا	ذهب	زركش خاص	
كمحا	بندِتى	تفاصيل اسكندرى	خيول
	لهوسة	أحد وثلثون	خاص ثلثه
أفيال	حمار وحشى	رطل	مموله حجون
٢	واحد	زجاج ضمنها دهين ثاثان	٢ ١

فالمقر الكريم يأمر بتسليم ذلك وقبوله ويشمل قاصدنا المشار اليه بحسن النظر ومثوله ويواصل بأخبار المسرات وما يعن له من المهمات لتيسير الموافاة من الجهتين كما كان بيننا وبين آبائه العظام وأجداده الكرام أنار الله براهينهم مع الاتحاف بالمودات والاهداء بالمصافات والله تعالى يمتع الإسلام ببقائه ويجعل قواضيه القاضية فى أعدائه محكمة حتى يصبح جنود الملة المحمدية بتوالى فتوحاته منصورة الأعلام وتصير البلاد كلها بعزماته دار السلام إن شاء الله الملك العلام. كتب فى العشرين من شهر ذى القعدة الحرام سنة سبع وخمسين وثمانمائة من الهجرة النبوية » [1].

رسالة السلطان الفاتح إلى شريف مكة
(وقد أرسلها اليه عن طريق سلطان مصر)

« الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أدام الله علو المقر الكريم السيدى السندى الشريفى الأشرفى الأكرمى الأعلمى الأورعى الأمامى الهمامى الأوحدى الأمجدى العالمى العاملى الأعظمى الأولوى الأعلوى العلوى المشيدى المؤيدى النصيرى الظهيرى الظاهرى الطاهرى معلى قواعد الموسم والحرمين مؤكد معاقد المقاصد والآمال مطلع لوامع العز والتمكين مظهر مآثر الملك والدين فلذة أكباد الرسول زبدة أحفاد البتول أمير المسلمين وولى المؤمنين خلاصة أولاد شفيع المذنبين وهو السيد الشريف والقرم المنيف سلطان بيت الله تعالى شرفه الله وحواليه علاء الدولة والملة والدين

---

(١) فريدون بك منشآت السلاطين.

السيد الأحسنى العجلانى الحسنى زاد الله تعالى سعادته وأدام سيادته ولا خلا فى دولة لا ينهدم دارها ونعمة لا ينفصم آثارها ولا زالت أسباب مودته ومحبته مؤكدة وعقود موالاته وهمته منتظمة منضدة مدى الدهور والأعوام بحرمه سيد الأولين والآخرين وآله وصحبه أجمعين الطيبين الطاهرين عليه أفضل الصلاة والسلام . وبعد، فقد أرسلنا هذا الكتاب مبشراً بما رزق الله لنا فى هذه السنة من الفتوح التى لا عين رأت ولا أذن سمعت وهى تسخير البلدة المشهورة بقسطنطينية الملاصقة بمرج البحرين وفى مقابلتها مدينة أخرى موسومة بغلطة وفى جانبها الشرقى بلدة أخرى معلمة باسكدار . أما الأولى فكأنها ثعبان له سبع رؤوس من قللها المشتهرة رتلك القلل سبع رواسى شامخات حصينة رفيعة مهيأة بأمر الله عز وجل لمقر الخلافة الإسلامية ومرزوقة لنا بتقدير الحكم السبحانية ولا شك أنها سلطان البلاد. والأخريان من جنبيها يميناً وشمالاً كخادمين فى طرفى السلطان، فلما توجهنا وعزمنا عليها هجم علينا الكفار المملوءة فيها خارجاً وداخلاً وحاربوا معنا فقام المحاربة بيننا وبينهم قريب شهرين بعد إبائهم عن إعطاء الجزية الشرعية ثم عجزوا عن القتال وهربوا من الجدال فازدحم أهل الإسلام وجاهد كل من المجاهدين عن البر والبحر حق الجهاد فقربوا من السور وصعد جم كثير من الكماة الموحدين فوق منافذ جدرانها المندرسة من المنجنيق والعرادة فدخلوا فى نفس هذه البلدة المتبركة المنورة بقدوم الموحدين بالتكبير والتهليل يوم الثلثاء والعشرين من شهر جمادى الأولى فقطع فى مبدأ الأول رأسَ رأسُ هذه الملاعين أعنى التكفور اللعين أو لحق بجهنم مع سائر المقتولين من المشركين فخربوا دورهم وكسروا صلبانهم وأغاروا على خزاينهم وأموالهم وأسروا ذراريهم وصبيانهم وجعلوا معابدهم القسيسية مساجد الأمة المحمدية وجمع الملة الأحمدية وطهر تلك المواقع عن الأرجاس الرهبانية والأنجاس النصرانية (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)، وأما بقية السيوف فعفونا عنهم وقطعنا عليهم الجزية السنوية سعياً لبيت المال، فلما تشرف منابر الخطب بشرف ألقابنا العلية الباهرة وتزين وجوه الدراهم والدنانير المسكوكة بزينة أسمائنا الجلية الطاهرة جهزنا إلى خدمتكم الشريفة فخر المقربين وزين حجاج الحرمين خواجه حاجى محمد الزيتونى حفظه الله فى الذهاب والإياب ورزقه الوصول والمعاودة بالخبر والصواب لتبليغ الرسالة وترسيل البشارة. فالمأمول من مقر عزكم الشريف أن يبشش بقدوم هذه المسرة العظمى والموهبة الكبرى مع سكان الحرمين الشريفين والعلماء والسادات والمهتدين والزهاد والعباد الصالحين والمشايخ الامجاد الواصلين والأئمة الأخيار المتقين والصغار والكبار أجمعين المتمسكين بأذيال سرادقات بيت الله الحرام التى كالعروة الوثقى لا انفصام، والمشرفين بزمزم والمقام والمعتكفين فى قرب جوار رسول الله عليه التحية والسلام داعين لدوام دولتنا فى العرفات متضرعين من الله نصرتنا أفاض الله علينا بركاتهم ورفع درجاتهم بالنبى النبيه وآله وذويه وبعثنا مع المشار اليه هدية لكم خاصة ألفى فلورى من الذهب الخالص التام الوزن والعيار المأخوذ من تلك

الغنيمة وسبعة آلاف فلورى أخرى للفقراء منها ألفان للسادات والنقباء والألف للخدام المخصوصة بالحرمين والباقى للمتمكنين المحتاجين فى مكة المعظمة والمدينة المكرمة زادهما الله شرفاً، فالمرجو منكم التقسيم بينهم بمقتضى احتياجهم وفقرهم وإشعار كيفية السير الينا وتحصيل الدعاء منهم لنا دائماً باللطف والإحسان إن شاء الله تعالى والله يحفظكم ويبقيكم بالسعادة الأبدية والسيادة السرمدية إلى يوم الدين آمين يارب العالمين، وصلى الله على خاتم الأنبياء والمرسلين وآله وصحبه أجمعين ». (١)

رسالة سلطان مصر إلى السلطان محمد الفاتح ينبئه أنه أبلغ رسالته السابقة إلى شريف مكة وما أحدثه نبأ فتح القسطنطينية فى مصر من الفرح والابتهاج

« أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم العالى الكبيرى العالمى العادلى المجاهدى المرابطى الغياثى الممهدى المشيدى الزعيمى الظهيرى الناصرى معز الإسلام والمسلمين ناصر الغزاة ذخر المجاهدين ملجأ الفقراء والمساكين زعيم جيوش الموحدين ممهد الدول مشيد الممالك حامى الثغور الإسلامية غياث الملة المحمدية ملك الملوك والسلاطين عضد أمير المؤمنين، وهنأ بهذا الفتح الذى جاء الإطناب فى بلاغته وجيزاً وابتهل كل موحد به وأعلن بسورة الفتح وتلا (وينصرك الله نصراً عزيزاً) لا زالت وجوه النصر ترى فى مرآة صحافه وثمرات النصر تجنى من أغصان رماحه وفروض الجهاد بسيوفه المسنونة فى كل وقت تقام وبلاده الإسلامية محروسة بالجناب المحمدى عليه السلام وهمزات عوامله بصدور الكفار موصولة وألسن سيوفه بثغور بلادهم من رشف إرحاق دمائهم مبلولة وهم أبطاله منتظمة فى نصره دين الله كالعقد النظيم (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) ولا برحت عزماته تحلى من أعداء الإسلام المقاعد وتحل منهم المعاقد وتحلو عليهم مواقف الحرب مستعرة المواقد وتطلع فى سماء النقع من سيوفه نجوماً وقادة وتنشهد على الكفار فى محضر الغزو ما يعجز وكيف وذاك الموطن محل الشهادة فهو بحمد الله ما سلك خلف الكفار براً إلا قالوا (لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً) ولا خاض عباب بحر (إلا اتخذ سبيله فى البحر عجباً) أصدرنا هذه المفاوضة إلى المقر الكريم معربة عما نحن منطوون عليه من التهانى بهذا الفتح الذى وضح على جبين الصباح بشره ورجح على ميزان الكواكب قدره، ونخصه بسلام يتأرجح عرفاً ويتبلج وصفاً ويكاد يمازج النسيم لطفاً وثناء جلل ملابس الإكرام وأضفى وأعذب موارد الوداد وأصفى قد اتخذ نفحات المسك

(١) فريدون بك، المرجع السابق.

طليعة وأجمل لرداء الملك تفويفه وتوشيعه وانتشر به بناء الحب الذى استودعه من الصدور الرسائل بحفظ الله هذه الوديعة ونبدى لعلمه الكريم ورود كتابه الكريم وخطابه الذى أزرى بالدر النظيم على يد المجلس السامى الاميرى الكبيرى الأوحدى الأكملى المؤتمنى المقربى الجمالى يوسف القابونى الناصرى أحسن الله وفادته ويسر إلى المقر الكريم إعادته فأكرمناه حين قابلناه ورفعنا محله لما تناولناه واستنشقنا المسك لما فضضمناه وابتهجنا ابتهاج الظمآن بوروده ونظرنا منه إلى أحسن من برود الروض إذا حل الندى أزرار وروده فشممنا مخايل النصر من سطوره ونزهنا النواظر فى رياض منظومه ومنثورة وتلمحنا من خطة وخطابه ما هو أزهى من زهر الخمايل عند مر النسيم، ووجدناه مشتملاً على أنواع البراعة محاوش الرقيم محتوياً على بديع الألفاظ التى سحبت ذيل البلاغة على سحبان فى الزمن القديم متضمناً بما مَنّ الله به ويسره على المقر الكريم من هذه النصرة على أهل الكفر والعناد وبلوغه من إرغام أعداء الله ورسوله بنى الأصفر أقصى المراد وانتهينا إلى ما أشار اليه من مسيرة على القسطنطينية العظمى بعساكره الإسلامية وجنوده المحمدية وأنهم أحدقوا بها فكانوا لها أصفاداً وزلزلوا أرضها بجياد خيل وقفت صابرة فكانت أوتاداً وأنه أرسل اليها فى البحر جوارى كالأعلام ومد لها فى اللج سوائر كأنها معلقة بالأيام ورماها بفرسان من البر وأقدم على منازلها بمن أطاع الله وبره وخطبها بكراً فتمنعت وأطالت فى التجنى فترفعت فلما تحققت عظم أمرها فى النفوس ورأت كثرة ما ألقى اليها من نثار الرؤوس جنحت إلى الأحضان بعد النشوز إذ علمت أن الامتناع من قبول الاحسان لا يجوز فأمكنت زمامها من يد خاطبها وأمتعته على رغم أنف مراقبها وأنشد لسان الحال . شعر :

خطبــتها بكراً وما أمهرتهــا	إلا قــنا وقواضــبا وفوارســا
من كانت السمر العوالي مهره	جلبت له بيض الحصون عرايسا
اللـه أكبر ما جنيت ثمارهــا	إلا وكان أبــوك قبلك غارسـا

هذه كلها بعزايم لم يشبها فى الحرب نكول ولا تقصير فكان بحمد الله جمعه جمع سلامة وجمع الأعداء جمع تكسير، فأخذهم أخذ القرى وهى ظالمة وأعلمهم أن السيوف الإسلامية لم تترك لهم بقوة الله يداً فى الحروب مبسوطة ولا رجلاً فى المواقف قائمة فزلزل بعون الله أقدامهم ونكس أعلامهم وقابل العدو بصدره وقاتل حتى أفنى جديد بيضه وسمره وهبت نسمات النصر على جيوشه فقيل يا خيل الله اركبى وبأيد النصر اكتبي، وقامت الحرب على ساق وأضحى كل من الأعداء إلى حتفه يساق وهجرت سيوفهم الأغماد وأقسمت أنها لا تقر إلا فى الرؤوس والأسنة أسرعت وآلت أنها لا تروى ظمأها إلا من دماء النفوس، والسهام قد التزمت أنها لا تلج كناينها إلا

من النحور ولا تعوص عن حنايا القسى بخبايا الأضلع إلا لترفعها لا تحل إلا فى الصدور، والدروع قد لزمت الابطال قائلة لا تفارق الأبدان حتى تتلى سورة الفتح المبين والجياد حرمت وطء الأرض وقالت لفرسانها لا نطأ إلا جثث القتلى ورؤوس الملحدين فعند ذلك أثبت سيفه الناصر الحق لأنه القاضى فى ذلك المجال ونفذت سهامه لأجل تصميمه فلم تمهل حتى أخذت دين الآجال وهو حال. شعر :

الله أكبر هذا النصر والظفر هذا هو الفتح لا ما يزعم البشر

فظهر الله منهم تلك الديار وسلموا عندما أيقنوا بالدمار وصارت بحمد الله نجوم الضلال آفلة ومواطن الكفر بالإسلام آهلة وعن الأذان يعرب حيث كان الناقوس يضرب وأصوات حماتكم الإسلامية بالتكبير والتوحيد بها عالية، فقد فهمنا ذلك وحمدنا الله تعالى وقابلنا هذه البشارة بتكرار الشكر لله الذى جعل جيوش الإسلام حيث سلكت ملكت وأين حجت من بلاد أسرت وفتحت، لله الحمد الذى أيدكم بنصره وجعل مهابة جيوشكم فى قلوب الكفرة تقوم مقام هزيمة العدو وحصره وظفركم على حزب المشركين الذين زعزع هيبتكم دانيهم وقاصيهم وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وسدد سهم رأيكم الذى دل على هلاك العدى سرعة نفاذه ووعدكم مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وحكمكم فى بلاد العدى لتنشروا بها المهابة وتطؤوها، وأورثكم أرضهم وديارهم وأرضاً لم تطؤوها، ولقد أيدتم هذا الدين المحمدى الذى وضح به طريق النجاة واستنار وفزتم بقوله عليه الصلاة والسلام : «ما أغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار»، وقوله ﷺ : «إن الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض». رواه البخارى ومسلم رضى الله عنهما. فله الحمد على ما أنعم به عليكم من الغزوات التى سطرت أجورها فى صحايفكم وصحايف أسلافكم الكرام وصار خبرها غرة فى جبهة الدهر وحسنة فى صحيفة الأيام ولقد أنشد شاعر حضرتنا :

كذا فليكن فى الله جل العزايم وإلا فلا تجفو الجفون الصوارم
كتائبك البحر الخضم جيادها إذا ما تهادت موجه المتلاطم
تحيط بمنصور اللواء مظفر له النصر والتأييد عبد وخادم
فياناصر الإسلام يا من بغزوه على الكفر أيام الزمان مواسم
تهن بفتح سار فى الأرض ذكره سرى الغيث يحدوه الصبا والنعايم

فعند ذلك أمرنا بإعلان البشاير وإظهار الزينة والسرور بممالكنا الشريفة لما مَنَّ الله به منْ هذه النصرة وأمددناكم بصالح الدعاء مع تضاعف المسرة وأضحى المسلمون مستبشرين بهذه النعمة التى تسربل كل واحد منها بأبهى لباس وتلا كل منهم ذلك من فضل الله علينا والناس وجهزنا أمينكم مفخر الحجاج والزوار زين الدين حاجى محمد الزيتونى زاد الله تقواه ويسّر مناه من الأفلوريات المسكوكة بالسكة الجيدة الجديدة السلطانية المنبعثة إلى شريف مكة المكرمة وفقراء الحرمين الشريفين مع القافلة المصرية، فالمرجو من الله أن يصل إلى المقصود وبالخير سيعود إن شاء الله تعالى. وأما ما أشار إليه الكريم من سروره وابتهاجه بجلوسنا على سرير ملكنا الشريف وادعان جميع الرعايا لطاعتنا وأمرنا المنيف من المشروف والشريف وأنه أخذ بالحظ الوافر من هذه البشرى التى خصت الإسلام وعمّت أمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وأنه أمدنا بدعائه أن الله يشد أزر سلطاننا ويشيده ويجعل ألوية ملكنا الشريف مسبلة على مقامنا ويخلده وما أشار إليه من أنه عاقته هذه الغزوة الشريفة عن المكاتبة والابتداء بالمخاطبة ليتحقق بخواطرنا الشريفة تأكيد أسباب الوداد وتصحيح علل الاتحاد، فقد فهمنا ذلك ونتحقق أن المحبة لنا من هذاالبيت الكريم مستديمة والمودة بيننا وبينه كالأسلاف الكرام مستقيمة، وقد تواردت الخواطر منا ومنكم على عقود المحبة بجميل الاعتقاد وتأكيد المودة بعزيز الخلوص والوداد. وأما الهدية التى شرفنا بارسالها فقد وصلت وبالاقبال قوبلت وشكرنا صدق محبة مهديها وأثنينا على جميل موالاته التى لم تزل فى ملأ ملكنا نبديها، وقد أعدنا المجلس السامى الجمالى قاصدكم إليه بعد أن عومل بمزيد الإكرام ووافر الإحسان وغرر الاحترام وأرسلنا معه أحد أمرائنا وأعز أخصائنا المجلس السامى الأميرى الكبيرى الذخرى المؤتمنى الأخصى الأكملى المقربى الأوحدى السيفى برونداق الأشرفى أدام الله سعادته وكتب سلامته بما على يده من كتابنا الشريف وخطابنا المنيف والهدايا والتحف التى تؤكد أسباب الوداد وجميل المصافاة والاتحاد وحملناه من السلام للمقر الكريم ما يتبسم ثغر الدهر عند أدائه ويسفر وجه البشر عند إبدائه وسيحيط علمكم الوسيع بما تحملناه من ذلك فنتحف بتجهيز رسله وأخباره السارة من هناك والله تعالى يمده بأعوانه وأنصاره ويخلد نعمه عليه بدوام ليله ونهاره بمنه وكرمه. كتب فى أواخر شهر ذى القعدة الحرام سنة سبع وخمسين وثمانمائة من الهجرة النبوية على واضعها السلام[1]».

جواب شريف مكة إلى السلطان محمد الفاتح

«يقبّل الأرض فى حضرة السلطانى المخدومي المظفرى المنصورى المجاهدى المرابطى الأعظمى

---

(١) فريدون بك، المرجع السابق.

المؤيدى المشيدى العنوى الغوثى النصيرى الناصرى معين الإسلام والمسلمين سلطان الملوك والمسلمين نور عيون المجاهدين نور حدايق لطف الله فى الأرضين قهرمان الماءوالطين محيى الشريعة المحمدية منجى الملة الأحمدية الفايق على أسلافه فى الغزو والجهاد المباهى بين أقرانه بالفتوح وتسخير البلاد الذى يفتخر بعهده الشريف السوابق واللواحق من آل عثمان المشرف بتشريف (إن الله يأمر بالعدل والاحسان) لازالت أولياؤه منصورة وأعداؤه مقهورة وحصون الخصماء بصلابته مفتوحة ونواحى بلدانهم وديارهم بمهابته مضبوطة وما برحت نواحى أحباء دولته فى غداة غزواته مبيضة وشفاههم ضاحكة مستبشرة ووجوه المشركين عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة، وعساكره المنصورة مؤيدة من عند الله العزيز المجيب وأعلام نصره منتشرة بكتاتيب (نصر من الله وفتح قريب) ما قرت الغبراء قرارها ودارت الخضراء أدوارها بالنبى النبيه وآله وذويه. وبعد، يبدى لعلمه العالى أعلاه، وأدامه بالدولة الأبدية والسعادة السرمدية إن مشرفتكم الشريفة ومبشرتكم المنيفة وردت إلى مخلصه الداعى بالاخلاص ومحبه المباهى بالاختصاص عل يد فخر الزوار وزين الحجاج خواجه حاجى محمد الزيتونى زاد الله تقواه وجعل أخراه خيراً من أولاه فى أحسن الأوقات وأطيب الساعات فاستقبلناها بالتعظيم وقبلناها بالإجلال والتكريم وفتحناها بكمال الأدب وقرأناها مقابل الكعبة المعظمة بين أهل الحجاز وأبناء العرب، فرأينا فيها من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، وشاهدنا من فحاويها ظهور معجزة رسول الله خاتم النبيين وما هى إلا فتح القسطنطينية العظمى وتوابعها التى متانة حصنها مشهورة بين الأنام وحصانة سورها معروفة عند الخواص والعوام، وحمدنا الله تعالى بتيسير ذلك الأمر العسير وتحصيل ذلك المهم الخطير حمداً يوافى نعمه وشكراً يكافى كرمه على أن أداءها فريضة مشكلة وإحصاءها خارج عن الطاقة البشرية مقرين بالعذر والتقصير راجين الاعانة منه فى طاعته إنه على ذلك قدير حسب ما ورد فى الأخبار من الأحبار أن اعتراف العبد بقصور خدمته لمولاه عند الغفلة سهواً أو من عدم الاقتدار سعياً معدود من أحسن العبادات والقبول موقوف على رضائه حال التضرع فى الخلوات.

اللهم يا رب الكعبة والعرفات ويا نور الأرض والسموات أنصر من نصر الدين واحفظ من حفظ المسلمين واكتب السلامة على كافة الغزاة وعامة المجاهدين والحجاج والمسافرين فى برّك وبحرك يارب العالمين وفرحنا بها نهاية المسرة وبشنا بذلك غاية البشاشة وابتهجنا من إحياء مراسم آبائكم العظام والسلوك بمسلك أجدادكم الكرام روّح الله أرواحهم وجعل أعلى غرف الجنان مكانهم فى إظهار المحبة لسكان الأراضى المقدسة من الفرق الإسلامية عملاً بمدلول والحب يتوارث واهدائكم لنا ولسائر السادات والفقراء والصلحاء والعلماء المسرورين بما قال رسول الله ﷺ «خيار أمتى قوم يضحكون جهراً من سعة رحمة ربهم ويبكون سراً خوف عذاب ربهم بالغداة والعشي فى البيوت

الطيبة يدعون بألسنتهم رغباً ورهبا ويسألون بأيديهم خفضاً ورفعاً مؤنتهم على الناس خفيفة وعلى أنفسهم كثيرة » . الحديث . تسعة آلاف فلوريات الجديدة بالسكة المحمدية من أنفال تلك البلدة العظيمة المعينة تقسيمها فى مراسلتكم اللطيفة فعملنا بحسب الإشارة الشريفة فقبض كل واحد من المستحقين كل القبض، وقال الناظرون عليها النرجس الأصفر خير من الأبيض وامتلأت أكف الفقراء من الذهب الأصفر فصاروا كطالبى الأكسير الواصلين إلى الكبريت الأحمر داعين لكم بخلوص الجنان راجين قبوله من الله الملك المنان كما قال عليه السلام : « دعاء المحسن إليه للمحسن لا يرد »، حامدين الله على أنعمه فى الأيام وساعاتها عملاً بما قال عليه السلام : « الحمد على النعمة أمان من زوالها . والمسؤول من فضل الله الكامل أن ينالكم خير الدارين العاجل والآجل كما نقل عن النبى ﷺ : « جنة عدن فى السماء العليا لا يدخلها إلا نبى أو صديق أو إمام عادل » آخر الحديث . والملتمس من جنابكم السامى أن يحيط علمكم على أموال فقراء هذه الديار بالأصل والفرع ويزيد لطفكم على الضعفاء المتمكنين بواد غير ذى زرع ابتغاء لمرضاة الله يوم معاده كما قال عليه السلام : « خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير الايمان بالله والنفع لعباده »، وبعثنا مع الحاجى زين الدين المشار إليه قدوة الصلحاء والمتورعين مولانا نجم الدين السيوطى زاد الله تقواه لينوب منابنا فى تقبيل سدتكم السنية، وتلثيم عتبتكم العلية، وأتحفنا لخدمتكم برقع باب مكة المعظمة والأقمشة الهندية المنوعة سبع طقوزات وعشرين شاشاة المبلولة بماء زمزم ورأس رمكه معلمة طائرة فى الهواء كحمامة الحرم فالمرجو من نواب أبوابكم العاليه الانعام بالقبول والعذر عند كرام الناس مقبول . أدامكم الله وأيدكم بالدولة القاهرة والسلطة الباهرة إلى يوم الدين آمين »[1] .

ورسالة السلطان الفاتح إلى شاه فارس وجواب الأخير عليها لا يختلفان كثيراً على الرسائل المتقدمة[2] .

اصطلح المؤرخون على اتخاذ فتح الاتراك للقسطنطينية فى ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ بداية للتاريخ الحديث . ومن الجلى أن حوادث التاريخ سلسلة متصلة الحلقات يأخذ بعضها بعجز بعض يؤثر سابقها فى لاحقها ويتأثر لاحقها بسابقها . ولكن من أحداث الزمن أحداثاً تميزت بالعظم والبروز والبهر تقف فى هذه السلسلة الطويلة من تاريخ الإنسان أعلاماً بارزة فتتخذ محطات أو فواصل بين عهد وعهد، كما أن من طبيعة الإنسان الميل إلى تقسيم المسافات الطويلة وتجزئة المراحل الشاسعة تحديداً للنظر وتسهيلاً للدرس .

وقد كان فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ من أعظم الحوادث شأنا فى تاريخ الإنسان وأبعدها أثراً

(١) فريدون بك، المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

فى مصايره وتطور حياته إذ هاجر بعده كثير من علماء الروم إلى الغرب وبخاصة إيطاليا ونشروا فيها معارف اليونان القديمة وكان ذلك من بواعث النهضة الحديثة فى أوروبا . ولو أن هؤلاء العلماء بقوا فى مواطنهم بالقسطنطينية واليونان للقوا من السلطان الفاتح من التقدير والتشجيع أضعاف ما لقوا من أمراء أوروبا . وسنرى فيما يأتى من صفحات هذا الكتاب عظم رعاية الفاتح للعلوم والفنون وتوافد العلماء إليه من الشرق والغرب .

ومهما يكن من شيء فإن السلطان الفاتح بفتحه القسطنطينية قد خلد اسمه فى التاريخ، يذكره الدارسون والمتعلمون إلى آخر الدهر وان اختلفت نظرة الإسلام والنصرانية إليه واختلف تقدير الشرق والغرب له .

وبعد ، فإن المسلم ليدخل اليوم فى مسجد السلطان محمد الفاتح باستنبول فيكون أول ما يروعه من هذا المسجد جبينه الوضاح الأبلج وقد نقش عليه هذا الحديث الكريم : « لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش » فتخشع نفسه ويخفق قلبه وتطوى فى ذهنه آماد الزمن وتمر به الذكر بين محمد بن عبدالله الذى أنطقه الوحى بهذا الحديث وبين محمد الفاتح الذى حقق هذا الحديث فلا يملك إلا أن يقول : سبحانك ربى أية معجزة قد تمت ![1] .

فأما النصارى فى الغرب فقد صعقهم الخبر، وانتابهم الشعور بالفزع والخوف، والخزى والألم، وتجسد لهم خطر المسلمين متمثلاً فى الأتراك، وتهديدهم لأوروبا النصرانية . وتوجسوا، بل توقعوا أن يكون انتصار محمد الفاتح هو باكورة التوغل فى أوروبا، فأخذوا يتتبعون خطواته وحركاته بقلق، وإهتمام، ***وعظمت فى أعينهم من جديد أهمية القسطنطينية ، وخطورة قيمتها . . ومازالت تراودهم الأحلام فى عودتها ، ومازالوا يعدُّون العدة ، ويحيكون الدسائس لإخراج الترك ، والإسلام من البلقان ، رغبة وأملاً فى عودة قسطنطينوبول إلى أحضانهم .***

ازدادت شهرة العثمانيين من الناحية العسكرية بعد فتحهم المدينة المنيعة . . وقد كتب حاكم « غلطة » فى رسالة كتبها بعد أن تحولت القسطنطينية إلى استانبول بنحو شهر فقال :

« . . إن السلطان محمد الفاتح يهدف إلى أن يكون سيد العالم وأنه قبل أن تمضى سنتان سيزحف إلى روما . . فإذا لم يأخذ النصارى حذرهم، أو تحدث معجزات، فإن مأساة القسطنطينية ستتكرر فى روما . . »

أوروبا عقب الفتح المبين:

إذا ما تساءلنا عن أحوال العالم المسيحى أثناء الفتح، وصداه فى أوروبا . . يتبين لنا ما يلى :

عند فتح القسطنطينية كان شارل السابع هو الذى يجلس على عرش فرنسا . . وكان يُطلق عليه

(١) انظر كذلك سالم الرشيدى المرجع السابق ذكره ص ١٦١ - ١٨٢ .

آنذاك الملك المنتصر، حيث كان هو الذى أنهى الحروب الطاحنة مع انجلترى لصالح فرنسا، تلك الحروب التى عرفت فى التاريخ بحروب المائة سنة.

أما انجلترى فقد كان يجلس على كرسى العرش فيها هنرى السادس، وكان العديد من ولايات فرنسا تخضع للحكم الانجليزى. وكانت انجلترى نفسها تنهكها الحروب المحلية التى استمرت خمس وثلاثين سنة فيما بين «يورق» و«لانكستر» تلك المنطقتين المتنافستين على زعامة البلاد، ومقدراتها.

ولكن دول الدنمارك، والسويد، والنرويج فقد كان يجمعهم اتحاد القالمار، وكانت تنهكهم هم أيضاً حركات الانفصال، واعادة الاتحاد مما خلق نوعاً من عدم الاستقرار فى البلاد، وكانت السويد تُلح فى طلب الإنسلاخ عن هذا الاتحاد.

وفى ألمانيا، كان فريدريك الثالث الذى ينتمى إلى سلالة أسرة هابيسبرغ الشهيرة يحكم حكماً مطلقاً. ولم تكن «هابسبورغ» هذه سوى قرية صغيرة فى سويسرا، ومؤسسها الأصلى هو دوق الإلزاس. وقد تمكن حفيده رادبو سنة ١٠٢٠م = ٤١١هـ من تكوين وتأسيس عرش هابيسبورغ. وعند فتح القسطنطينية، لم تكن النمسا تعرف حتى النظام الملكى، أو الملكية، بل كانت دوقة تعيش النظام الاقطاعى بكل معانيه. وتمكنت ألمانيا أن تستفيد من كل هذه الأوضاع وتؤسس امبراطورية ألمانية.

أما روسيا فقد كان يحكمها أمير موسكوفى يسمى «كورواسيل» وقد استفاد الروس من الخلاف الناشب بين خانات التتار، ولم يقدموا لهم الجزية التى كانت مفروضة عليهم، بل نازعوهم السلطة وبدأوا فى تهديدهم. ولم تكن هناك أى علاقات بين روسيا وأوروبا خلال هذه الفترة تقريباً. وأن خان القرم «مشكلى غراى» هو الذى سعى لإقامة علاقة بين الروس والعثمانيين. فقد كانوا مازالوا يعيشون فى شمال شرق أوروبا حتى ذلك الحين.

وكان على رأس الحكم فى لهستان قاذيمير الرابع وهو ينتمى إلى سلالة من يسمون بـ«ژاژالون» أو «ياكه لون». وكان هذاالحاكم يتمتع بعلم، وخبرة، وحنكة كبيرة، ومع أن نصف پروسيا كان تحت سيطرته وإدارته، وكان النصف الآخر يقدم له الجزية، إلا أن ياكه لون عند الفتح كانت داخل روسيا، وسوف تُعرف فيما بعد فى التاريخ العثمانى باسم لاتڤانيا.

كان فترة حكم هذه الأسرة فى لهستان هى العصر الذهبى لها، وكانت بوهميا، ومملكة الچيك مازالتا تعيشان فرحة الخلاص من القلاقل والدمار الذى تخلصت منه فى أعقاب انتهاء الحروب التى ظهرت فيها مع بداية دخول المسيحية إلى هذه المناطق، وعند الفتح كان العرش فيها يجلس عليه ملك يُسمىً البير.

وكانت المجر مازالت تعيش فحاض معركة «وارنه» وما ترتب عليها من دمار تحت حكم ملكها «لاديسلاس» الخامس. والمعروف أن جان هونياد قد أنقذ من الموت باعجوبة فى هذه الحرب. وأعقبه على الحكم لاديسلاس هذا.. ثم تلاه «ماتياس قورون» ابن هونياد.

أما فى أسبانيا، فقد كانت الصورة هناك فى منتهى الغرابة، ففى الوقت الذى كانت مناطق شرق أوروبا تشهد ميلاد دولة إسلامية فتية مع فتح القسطنطينية.. كان المسلمون يخرجون من الأندلس، أى أنهم على وشك الخروج من أوروبا، ولم يبق منهم فى الأندلس سوى حكومة غرناطة. أما الحكومات المسيحية فقد كانت تسيطر على «قشتالة»، و«الأرغون»، و«البورتغال» و«ناوار».

وفى شمال أفريقيا، لم يكن هناك سوى الحفصيون الذين استقروا فى تونس بعد الخروج من الأندلس، وكانت معالم الزوال تبدو فى كل أركان دولتهم. وإن كانوا يملكون قوة بحرية كانت تشكل أعمال قرصنة يهددون بها إيطاليا..

هذه هى الحالة التى كانت عليه دول أوروبا، وشمال أفريقيا أثناء الفتح.. وقد رأينا صدى هذا الفتح المبين فى مصر والحجاز وإيران.

ومن هذا المنطلق قلنا أن نصارى الغرب قد صعقهم الخبر، وانتابهم الشعور بالخوف، والفزع، بل والخزى والألم.. وتوقعوا أن فتح القسطنطينية سيكون باكورة التوغل فى أوروبا.. وقد صح توقعهم.. وأصبحت استانبول الجديدة عاصمة لإمبراطورية وصلت حدودها مشارف مدينة فينا.

ثانيا: استانبول خلال العصر العثمانى

أدى فتح استانبول إلى تكريس إنتصار الجانب الذى كان يؤيد الفتح، وهو الحزب الذى ساند السلطان محمد الثانى ضد الصدر الأعظم الذى كان قد خلَّفه له والده مراد الثانى، فقد أكسب الفتح «الفاتح» هيبة عظيمة، وأصبح طليق اليد فى التصرف.. فكما نحىَّ سابقا إسحاق باشا عن السلطة المركزية، فقد حان الدور على خليل باشا الجندرلى. وقد أثبت الفتح أن الصدر الأعظم لم يكن على حق.. وها هى الفرصة قد حانت للتخلص من رجل واسع النفوذ، ولم تعد لسياسته جدوى، وتشكل شعبيته بين صفوف الانكشارية مصدر قلق له.. فأصدر السلطان أمراً بعزل خليل باشا، بل وإعدامه بعد أربعين يوماً من الحبس فى يوليو ١٤٥٣م - ٨٥٧هـ وعين مكانه زاغانوس باشا وبهذا أنهى سيطرة عائلة چاندرلى على منصب الصدر الأعظم أو الوزير الأول منذ ظهوره.

وقد أدى هذا الفتح المبين إلى إعادة النظر فى علاقات الباب العالى مع كافة الدول والجاليات المقيمة فى المدينة. الجنوبين فى غلطة، فأمر على الفور بهدم الحصون، وتسليم الأسلحة، وأمن الناس، وترك لهم كنائسهم وممتلكاتهم.. ومنحهم حرية التجارة.. وعقدت البندقية وفاقاً، واتفاقية صداقة فى ١٨ ابريل سنة ١٤٥٤م - ٨٥٨هـ أمَّنت بمقتضاها حماية سفن وممتلكات رعاياها فى الإمبراطورية العثمانية، وحرية دخول الموانئ والخروج منها، وحق التجارة فى مقابل دفع الضريبة.

وسرعان ما أن تبدأ التغييرات، بالنسبة للمستعمرات اللاتينية فالسلطان الذى أصبح صاحب أسطول هامٍ، يأمر خلال صيف ١٤٥٤م - ٨٥٨هـ بتغلغل سفنه فى البحر الأسود، كما تعمل البحرية فى بحر إيجه، على أن الشاغل الحقيقى له كان البلقان، فكان على السلطان أن يوطد نفوذ السلطنة بشكل دائم على الدانوب.

مكث السلطان فى ادرنه حتى عام ١٤٥٧م - ٨٦٢هـ، وكان يذهب من حين إلى آخر إلى إستانبول، ليتفقد تقدم عملية تشييد السراى الجديد، والسوق المغطى، وأعمال توصيل المياه.. ويعين حمود باشا محل الصدر الأعظم زاغانوس[١]، وتسقط المورة، وصربيا، فيما بين ١٤٥٨ - ١٤٦٠م = ٨٦٣ - ٨٦٥هـ وفى سنة ١٤٦١م - ٨٦٦هـ يضم سينوب، وطرابزون. وتدور رحى الحرب،

---

(١) تاريخ الدولة العثمانية، الجزء الأول، إشراف روبيرمانتران، ترجمة بشير السباعى دار الفكر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٣. ص ١١٣-١٢٩.

والصراع بينه وبين الغرب المسيحى خلال سنوات ١٤٦٣ - ١٤٧٠م = ٨٦٨ - ٨٧٥هـ، ويخرج منها منتصراً فى الأغلب، والأعم. وبعدها، بل خلال نفس الفترة وحتى سنة ١٤٧٤م - ٨٧٩هـ يتجه نحو الجبهة الأناضولية، ويقضى علي دولة الشاة البيضاء «الآق قوينلى». ويحسم النزاع مع المجريين والمولداڤيين لصالحه، وينتصر علي الإيطاليين. وتتنازل له الجمهورية عن العديد من المناطق، وتدفع البندقية له الدين المتراكم، ومبلغاً محدداً كل سنة فى مقابل حرية التجارة.

كان محمد الفاتح، وهو فى غمرة الانتصارات العسكرية لا يهمل تنظيم الدولة، فكان عليه أولاً، أن يدعم سلطته الشخصية.. فمن هنا رأى أن يعين الصدر الأعظم دائماً من القُولات، «عبيد السلطان» ولم يعودوا أفراداً منتمين إلى أسر عريقة كالچندرلية. ووضع الفاتح نصب عينيه أن تُصبح إستانبول هى عاصمة الإمبراطورية، وأن تكون عاصمة قوية بمعنى الكلمة، فأعطى دفعة لتحريك المدينة، ومنح الطوائف غير المسلمة تنظيماً مركزياً يهيمن عليه بطريرك مقيم فى استانبول، كما حدث نفس الشيء عند الفتح بالنسبة لليونانيين، ففى عام ١٤٦١م - ٨٦٦هـ جرى نقل المطران الأرمنى يواكيم إلى العاصمة، ومنحه لقب البطريرك.. ولم يكن له دافع من وراء ذلك سوى الرغبة فى تأسيس نظام متماسك على نطاق الدولة.

ويمكن قول نفس الشيء بالنسبة للدستور = «قانون نامه» الشهير، فقد كان عدد القوانين العرفية التى إعتمدها السلطان محمد الفاتح هاماً، بما يكفى لإلزام السلطان بإصدار مدوَّنة حقيقية للقوانين العرفية خلال الشطر الثانى من القرن الخامس عشر.

ينظم الدستور الجديد العمل فى كل مناحى الحياة؛ من سك العملة، والملاحات، ونظام الأرض، والضرائب، والنظام الجمركى، والأسواق، والموانىء.. وأصدرت مدونته الأخيرة التى تتكون من ثلاث إصدارات تُعالج قانون العقوبات، والوضع القانونى للإقطاعات الزراعية، وأمور الفلاحين المستقرين، والبدو الرحَّل، وسكان بعض الأقاليم البلقانية.. الخ

وهكذا أصبح الأساس القانونى = الحقوقى للدولة العثمانية منذ زمن السلطان الفاتح يستند على دعامتين؛ القانون الإسلامى = الشريعة والأعراف الحقوقية للسكان الذين ضمهم العثمانيون عبر فتوحاتهم. ولم يكن الدافع وراء الإعتماد على الأعراف للسكان إلا محاولة العدل بين الرعيَّة، وأملاً فى أن يؤدى ذلك إلى الحد من المقاومة التى يواجهونها.

ولم يترك الفاتح، العاهل العثمانى، سلطاناً مطلق الصلاحيات، لا تشكو سلطنة من أية معارضة. بل جعل السلطة التى يمارسها العاهل العثمانى تكبحها - عند الضرورة - التقاليد القانونية والحقوقية للسكان المسيحيين، ومن شأن فتاوى شيخ الإسلام أن تحد من سلطاته، وكما أن السلطان لا يستطيع

أن يتعدى على الحدود الشرعية، فإنه كذلك لا يستطيع التصرف بشكل مماثل مع العرف الحقوقى، ولم يكن فى مقدوره الإلتفاف على هذا الأخير. والشيء الحضارى المدهش هو أن عاهل إستانبول، كان حريصاً كل الحرص، على مراعاة القوانين المميزة للسكان الذين يختلف دينهم عن دينه.. وهكذا، فإن قوة السلطان التركى الأعظم لم تكن حرة طليقة، أو تكن بعيدة عن أن تكون حرة من القيود[1].

السلطة المركزية:

القصر الإمبراطورى:

القصر الإمبراطورى هو روح الإمبراطورية، ويتكفل بالخدمة فيه عدة آلاف من الآشخاص. وبما أن السلطان هو عماد البنيان السياسى والإجتماعى، فإن الموقع المادى للسلطة؛ هو مقر البلاط، وكذلك مقر الحكومة، والإدارة المركزيين، يوجد حيث يوجد السلطان، أى بشكل إعتيادى فى قصره، فى العاصمة.

وفى عهد محمد الفاتح تُصبح استانبول مقر إقامة العاهل، وعاصمة الإمبراطورية، وتحل بذلك محل بورصة، وأدرنه.

أقام محمد الفاتح فى استانبول فى البداية قصراً، يبقى بعد سنوات قليلة القصر العتيق، أقامه فى مكان ساحة «تاورى» القديمة، فى موقع جامعة استانبول الحالية، فى حى بايزيد. وبعد ذلك بوقت قصير، وبعد أن بنى السراى الجديد، فى موقع يُتيح دفاعاً أسهل، هو موقع اكروبول بيزنطة العريق، على الرأس المرتفع المهيمن على الخليج الذهبى، ومضيق البوسفور، وبحر مرمره. ينتقل إليه، ولأنه بُنى قريباً من بوابة المدفع، فيُسمى بدلاً من السراى الجديد، بـ (سراى طوپ قاپى) أى سراى باب المدفع. ويكون قصراً للسلطان ويظل كذلك حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى. الثالث عشر الهجرى.

والواقع أن المقر الإمبراطورى[*]، قلما يشبه القصور الملكية فى دول أوروبا.. فهو يشكل نوعًا ما مدينة داخل العاصمة، مطوقة بأسوار، وأبراج عالية.. ويتألف سراى الحكم من مجموعة كبيرة من المبانى المختلفة، اللازمة لإدارة شئوون الدولة.. متناثرة حول الأحواش، أو وسط الحدائق الغناء.. يعمل بها عدة آلاف من الأشخاص الذين يتولون وظائف من شتى الأنواع.. وكلها مسجلة بشكل

---

(١) المرجع السابق ص: ١٧٠-١٧٢.

(*) المقر الإمبراطورى؛ تشير إليه الكتابات، والمراسلات التاريخية بالعبارات الرسمية التالية: العتبة السنية، عتبة السعادة، در السعادة، محفل السعادة، دار السعادة، الباب العالى.. دار الخلافة، ... دار السلطنة.

منتظم، ولهم كشوف مصاريف ضمن مصاريف البلاط. وهؤلاء الأشخاص هم الذين يقومون بالخدمات الداخلية، والخارجية للقصر الهمايونى (١).

الديوان:

كانت قاعة الديوان وملحقاتها موجودة فى الحوش الثانى للقصر، وتُشكل مقر الحكومة. والديوان مصطلحاً يُشار به إلى المجلس المشكل من كبار مسئولى الدولة، فى البداية كان السلطان هو الذى يرأس هذا الديوان. ومنذ عهد الفاتح ونحو عام ١٤٧٥م - ٨٦٢هـ تولى الصدر الأعظم هذه المهمة. وكان السلطان يتابع ما يدور فى الديوان. وكان الديوان يجتمع أيام السبت، والأحد، والأثنين والثلاثاء من كل أسبوع. وبعد المجلس جرت العادة، أن يتوجه الصدر الأعظم بصحبة أعضاء الديوان الرئيسيين (الوزراء.. والكتاب..) للاجتماع بالسلطان لعرض الأمور الأكثر أهمية.

والديوان إلى جانب تسيير الأمور السياسية والعسكرية، كان يلعب دور محكمة عدلية عليا.. وكان من حق أى من الرعية أن يعرض شكواه على الديوان. كما كان هو الذى يجرى المفاوضات مع السفراء الأجانب ويرعى استقبالاتهم الرسمية.

كان الصدر الأعظم هو الوكيل المطلق للسلطان، وهو المفوض من قبله التسيير أمور الدولة، والرعية.. وهو بهذا يعتبر الشخصية الثانية فى الدولة. وهو الذى يحكم الإمبراطورية، ويرأس الاجتماعات التى تصرف فيها الشئون الجارية.. وهو الذى يتولى تعيين كبار المسئولين فى المناصب السياسية، والعسكرية العليا، ويتولى قيادة الجيش عندما لا يشترك السلطان بنفسه فى الحملة. وبمساعدة قاضيين للجيش. قاضى عسكر الروميلى، وقاضى عسكر الأناضول) يصدر الأحكام بإسم السلطان ويرأس كل يوم جمعة ديواناً خاصاً بالأمور المتصلة بالشريعة مع شيخ الإسلام وبعد الجلسة يتفقد الأسواق.. كما أنه هو المسئول عن النظام فى العاصمة.. ولهذا كان يعقد كل يوم أربعاء، ديواناً مخصصاً للشئون البلدية فى استانبول(٢).

وهو المسئول عن هيئة الدولة(*) وسترى هذا بالتفصيل فى القسم الحضارى.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٧٣. (٢) تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢٧٦ - ٢٨٣.

(*) كانت هيئة الدولة فى عهد محمد الفاتح تتكون من ؛ ١ - الوزراء ٢- قضاة الجند. ٣- الكتاب (دفتردارلر ٤ - حامل الأختام. كان عدد الوزراء فى زمن الفاتح قد وصل إلى أربعة وزراء. يرأسهم الصدر الأعظم الوكيل المطلق للسلطان. ولذلك هو المرجع مع الوزير المختص فى شئون الدولة. ويمثل قضاة الجند الركن الثانى فى الإدارة. يتقدم قاضى الروميلى على قاضى الآناضول. أما الكتاب فهم المسئوولون عن الأحوال المالية، وإمساك الدفاتر، وتسجيل الدخل والمنصرف. وحاملوا الأختام هم المنوط بهم، حمل أختام السلطان، ووضع الطغراء على المكاتبات الرسمية.

أدوات السلطة: القوات المركزية؛ الأنكشارية(*)، وقوات الباب:

الأنكشارية:

كانت قيادة هذه القوات، وجزء هام من القوات المسماه عبيد الباب (قابى قوللرى) توجد فى العاصمة، قرب السلطان. وهم عبارة عن ميليشيا دائمة، مجندة من صفوف الديوشيريمه(*). وتمثل مرتباتها المالية أحد البنود الرئيسية لإنفاقات الدولة. وقد وصلت فى سنة ١٥٦٧ - ٩٧٥هـ إلى نسبة ٤٢٪ من هذه الإنفاقات.

تمثل قوات القابى قوللرى قلب الجيش، وهم العنصر الأكثر احترافًا والأحسن تدريباً، والأفضل تسليحاً، والأكثر التصاقاً، وارتباطاً بالسلطان. هم قوة مشاة مطيعة، وملتزمة. هم قوة الإنكشارية الشهيرة، وعددا من أسلحة الفرسان التى تتميز بهيبة أعلى بكثير، ولا إنفصال بينهما على الإطلاق.

وقد أضاف السلطان محمد الفاتح إلى إنكشارية العاصمة قوات أخرى « السيكبان » والتي كانت تشكل الحرس الخاص به، ثم أضيف إليها فيما بعد الوحدات المسماة بالآغوات « أغا بلوكلرى » . .

وكانت هذه المجموعات؛ تقسم إلى « بلوك » وأورطه. يرأس إحداها الـ« شوربجي باشى » مدير الأمن والأخرى « اليايا باشى » رئيس المشاة و« الصوباشى » مدير البلدية. وكان مساعد القائد يُسمى « أوضه كتخدا سى » معتمد الوحدة. ويساعده « أوضه باشى » رئيس الوحدة.

(*) الانكشارية : Yeniceri مصطلح عسكرى كان يُطلق على الجنود الموظفين فى الدولة العثمانية قبل سنة ١٢٤١هـ = ١٨٢٦م. وكان تحت امرة السلطان مباشرة ومرتبطين به شخصياً. ومن هنا كان يطلق عليهم أيضاً لقب (عبيد الباب). كانوا من المشاة المرتزقة. أول من كونّهم وكان له نفوذ عليهم هو الصدر الاعظم قره خليل الچندرلى. كانوا يقيمون فى معسكرات دائمة خاصة بهم. ويُقال أن أول من أطلق عليهم اسم (الينى چرى) هو الشيخ (حاجى بكناش ولى) حيث باركهم ودعى لهم بالبركة. كان لهم دور كبير فى إتساع رقعة الدولة العثمانية، كما كان لهم دور كبير فى زلزلة كيانها. تم القضاء عليهم فى مذبحة تُشبه مذبحة المماليك فى مصر. مهما قيل عنهم لا يمكن اغفال دورهم فى خدمة الدولة العثمانية، وفتوحاتها إيان عصور السلاطين العظام. « المؤلف »

(*) الديوشيرمه : DEVSirme مصطلح عسكرى، وإدارى كان يطلق على أبناء المسيحيين الذين كانوا يجمعوا من البلدان المسيحية التى يتم فتحها حديثاً وخاصة مناطق البلقان للعمل فى السراى وفى الجيش الانكشارى وكانت بعض الأسر العريقة تسعى إلى الحاق واحد من أبناءها فى هذه الزمرة. كانت تتلقى تعليماً دينيا، وأدبياً، وعسكرياً، وكيفية التعامل مع السلطان وشئوون الدولة، وصل البعض منهم إلى منصب الصدر الأعظم. كانت لهم معسكراتهم وكلياتهم الخاصة بهم. يتشكل منهم ركاب السلطان وخاصته، وكان يطلق على رئيسهم (دوشيرمه آغاسى) أى آغا الدوشيرمه. وكان يصدر بشأنهم فرمان السلطان يحدد كيفية جمعهم، وتعليمهم، والحاقهم بالقصور والسرايات السلطانية. كما كان يُعين من قبل السلطان أيضاً الموظف المتوط به جمعهم، ويصدر له فرمان أى أمر سلطانى بذلك. (المؤلف)

وعلى رأس قوة العاصمة يوجد آغا الانكشارية القوى، وهو قول « عبد » من قولات السلطان، وهو محاط بعدد من الضباط يشكلون ديوانه.

والسيكبان باشي - فهو يقود ٢٤ وحدة من هذه القوات . ويلازمه، القول كتخداسي - معتمد - أو وكيل القول . . وقائد وحدته الأولى، والرئيس الفعلى للإنكشارية فى المعركة .

وعلى النسق المتبع فى الجيوش العثمانية، فإن جنود الانكشارية يربون على الولاء، والإنضباط الكامل . . وفى البداية لم يكن يُسمح لهم بالزواج . وكانت قواتهم تسكن فى ثكنات خاصة بهم، وحسب نظام دقيق فيما بينهم . ويجري الحفاظ على الحماس الدينى لديهم . . وكانوا جميعاً - تقريبا - أعضاء فى الطريقة الصوفية البكداشية(*) .

وكانت قوات الإنكشارية فى العاصمة استانبول تقوم بحفظ الأمن، والنظام العام، ويشاركون فى إطفاء الحرائق، كما يشاركون فى حماية الديوان .

وكان للأسطول العثمانى قواته المتمركزة فى العاصمة استانبول، وكان مكلفاً بمساعدة جيش السلطان . ويتم تجهيزه فى ترسانتى غاليبولى وغلطه . ويرأس الأسطول، والترسانة الأخيرة القابودان باشا(١) .

القوام السكانى وتتريك العاصمة استانبول:

كما سبق القول، كانت تسكن العاصمة البيزنطية جماعات سكانية ذات أصول ومذاهب دينية شديدة التباين؛ فكان بها سكان من أصل لاتينى، ويونانى، وأرمنى، وجماعات من أصل بلغارى أو صربى، وكانت الجماعات اليونانية، واللاتينية هى الأكثر عدداً . ومن حيث الجوهر، فإن السكان المسيحيين الذين بقيوا فى استانبول بعد الفتح سنة ١٤٥٣م - ٨٥٧هـ هم نتاج السياسة العثمانية الخاصة بنقل السكان . وينحدر السكان الجدد من مختلف أقاليم الإمبراطورية . وقد وصل عدد الأسر

(*) البكداشية : اسم لطريقة صوفية، وقد اشتق هذا الإسم من اسم مؤسسها (حاجى بكتاش ولى)، ويرجعها البعض إلى حضرة سيدنا على (رضى الله عنه) هو وأولاده . وقد ولد حاجى بكتاش ولى فى نيشابور سنة ٦٤٥هـ. وفى سنة ٦٨٠هـ أشار عليه الشيخ أحمد يسوى بالتوجه إلى الأناضول . وسافر إليها واستقر بمكان بالقرب من قيرشهير وارتحل الى العالم الأخر سنة ٧٣٨هـ. وقد انتشرت هذه الطريقة فى القرى والمراكز أكثر من المدن . وله دور كبير فى توطين الترك فى قرى الأناضول . معظم أفكارها باطنية ولابد من المرشد، وكل تشكيلاتها سرية، وغير معلنة للجميع . كانت تستخدم مجموعة من الرموز والإشارات الخاصة بها . انتشرت بين الانكشارية فى الجيش العثمانية . ووصل الأمر أن إنتسب إليها بعض السلاطين العثمانيين . وقد انقسمت الى عدة أفرع تختلف عن بعضها البعض فى الرموز والإشارات والمراسم والذكر الخاص بكل منها . « المؤلف »

(١) المصدر السابق ٢٨٧ - ٢٩٤ .

المسلمة ١٤٧٨م - ٠٠٠هـ حوالى ٩٥١٧ فى مقابل ٥١٦٢ أسرة مسيحية و١٦٤٧ أسرة يهودية أى اجمالى ١٦٣٢٦ أسرة.

إستانبول فيما بين سنة ١٤٥٣ - ١٥٢٠ م - ٨٥٧ - ٩٢٧هـ الأحداث السياسية: (*)

سارت الأيام التي أعقبت الفتح فى قلاقل، وقد أصدر الفاتح فى اليوم الثالث بوقف كل هذه الانتهاكات . . وأقيمت احتفالات حاشدة لمدة ثلاث أيام ابتهاجا بالنصر العظيم، فمُدَّت الموائد للمجاهدين، وعَمْت الفرحة، وبعدها صدرت الأوامر المشددة بإنسحاب القوات البرية والبحرية إلى أماكنها، ومُنع الجنود منعاً باتاً من التجوال فى المدينة . وأعلن السلطان الحرية الكاملة لممارسة الحياة الدينية، واليومية بشكل حر، وفتح المجال أمام الهاربين للعودة، وللمختبئين بالظهور، وحرية التجول مكفولة بالكامل أمام كل المدنيين، ومن كل الطوائف والأديان.

فعاد الجميع إلى ممارسة الحياة الطبيعية، وأنعم على الروم بالبقاء فى المدينة، ووطّن أسراه على سواحل الخليج، وأحسن معاملة كل الطوائف الدينية . وإن خص الذين كانوا يعارضون إتحاد الكنيستين بشيء من التفضيل.

وعقب صلاة أول جمعة (١ يوليه سنة ١٤٥٣م - ٨٥٧هـ) أقامها الفاتح فى جامع الآيا صوفيا، أعطى إشارة البدأ فى إعمار المدينة، وقد تحولت - فى ظل الحكم الجديد - بعض الأديرة، والكنائس بمحض إرادة أصحابها إلى مساجد وجوامع، وإن جرت وفقاً لخطة إعمار المدينة، وإنشاء الأحياء التى يقطن بها المسلمون . ولم يُبْعد السلطان محمد الفاتح الأهالى المسيحيين عن دائرة إهتماماته، فقد ترك لهم العديد من كنائسهم ذات الطابع الخاص، وأمرهم بإختيار، وإنتخاب من يحل محل البطريرك انسطاسيوس الثانى Anastasios II الذى استقال من البطرياركية.

وقد أراد الفاتح، بهذا التصرف؛ أن يخلق نوعاً من التفاهم بين المسلمين والمسيحيين فى المدينة من ناحية، وأن يجذب الروم للحياة بها، بل ويحبب إليهم الإقامة فى ربوعها . . فإجتمع الأساقفة، والرهبان والأهالى وانتخبوا بطريكاً لهم . وعقب الإختيار دعاه السلطان إلى مائدته، وألبسه تاج البطرياركية، وعند إنصرافه رافقه السلطان، وودعه حتى الباب . وخصص له كنيسة الحواريين لتكون مقراً له . وكانت المحاولات الأولى فى الإعمار، هى إعادة ترميم أسوار المدينة . وكلف قاريشديران سليمان بك، الذى كان متوليا رئاسة بلدية (صوباشى) بورصة للقيام بمهمة تنظيم المدينة، وترميم ما

(*) تم الإعتماد الأساسى فى هذا القسم على مادة « Istanbul » فى دائرة المعارف الإسلامية الطبعة التركية . جـ ٥/٢ طبعة سنة ١٩٦٨ . ص ١١٩٩ .

تهدم أثناء الحرب . وعيَّن خضر بك چلبى قاضيا للمدينة . وأمر قواد البلوكات، والسناجق بالإسراع بتنظيف الخنادق، ورفع كل هذه المخلفات . وكلّف سليمان بك هذا بتسهيل مهمة عودة الروم الهاربين من إستانبول إليها، والعودة إلى ممارسة فعالياتهم المهنية والحياتية . وقد تمكن هذا الرجل من إعادة خمسة آلاف أسرة من الأناضول والروميلى إلى استانبول، ولم ينته شهر سبتمبر بعد . وكان يوقع أمر الإعدام على من يرفض العودة، أو المجيىء إليها . . وصدرت الفرامانات بتمليك، وتملك المنازل والأراضى اللازمة للبناء كهبة من السلطان .

ترك السلطان محمد الفاتح استانبول، متوجهاً إلى قصره فى أدرنه فى الحادى والعشرين من حزيران - يونيه، وترك بها قوة من الإنكشارية قوامها ١٥٠٠ جندى للحفاظ عليها . . ولم يكن تغيب عن عينيه قط متابعة أعمال الإعمار، حتى وهو بعيد عن المدينة . وقد أرسل الأوامر المشددة للإسراع فى العمل وهو فى فيلبيه سنة ١٤٥٤م - ٨٥٨هـ . وعندما عاد إلى إستانبول، وجد أن أوامره قد نفذت . وأن الأسوار قد رُقمت بالشكل اللائق بالعهد الجديد . وأمر بأن يُشيَّد القصر العتيق ليكون مقراً له، وأن يكون بجواره قلعة داخلية «يدى كوله» . كما أمر بأن يُستخدم الأسرى فى أعمال الإعمار، والتشييد نظير أجر يومى قدره ست أقچات، وقد هدف من وراء هذا القرار؛ إلى جانب تأمين الأسرى لأمور معيشتهم اليومية، فإنه يمكنهم بذلك تدارك المبالغ اللازمة لإعتاقهم . . وكان السلطان بذاته يشجع على الهجرة إلى المدينة، والإستقرار بها، وممارسة شتى أنواع النشاطات التجارية، والصناعية، والمهنية، والحرفية . ولم يتوان عن أخذ كل ما من شأنه أن يطور الحياة العلمية، والفكرية، والاجتماعية فى المدينة . وكان يحض الوزراء، ورجالات الدولة، وأركانها على الحذو حذوه . . فتبارى أصحاب الخير، والقدرة فى إنشاء الجوامع، والمساجد والمدارس . والخانات فى شتى أنحاء المدينة . وقد وَعَد الذين يفدون إلى المدينة بمحض إرادتهم بتمليكهم المنازل، والقصور التى يشيدونها .

كما وهب الخانات الرومية التى آلت إلى خزينة الدولة إلى المهاجرين الذين وصلوا إلى المدينة من المسلمين، والمسيحيين، واليهود، ومُنِحَت الأراضى الزراعية إلى الفلاحين الذين استجلبوا من القرى فى الأناضول والروميلى . وعدَّت هذه الخانات، والمبانى، والأراضى من الأوقاف كما خصص الفاتح بعض من المنازل، والقصور البيزنطية إلى الأمراء، وأرباب الطرق الصوفية الذين بذلوا جهداً ملموساً أثناء الفتح وقام هؤلاء بدورهم ببناء المساجد، والجوامع مما ساعد على قيام أحياء مسلمة حولها . . وعند تخصيص الأوقاف اللازمة على المساجد، والجوامع . ودور الشفاء قام السلطان محمد الفاتح بتخصيص جزء كبير من الممتلكات التى آلت إليه كوقف على جامع الآياصوفيا .

وعقب الحريق الذى دمَّر معظم أحياء أدرنه سنة ١٤٥٧م - ٨٦٢هـ إتخذ محمد الفاتح قراره بأن

تكون إستانبول هى عاصمة الدولة العثمانية ومما لا شك فيه أن هذه المدينة التى تحولت إلى عاصمة لهذه الإمبراطورية العظيمة ستنال فى العصور القادمة ما تستحقه من الرعاية، والاهتمام.. وسوف تبذل الجهود لإعادة اكتشافها. ولم تكن حركة الإعمار، والتشييد منحصرة داخل الأسوار، بل شملت الضواحى، والمجاورات. كما حدث فى حى « وفا » وحى « أبى أيوب الأنصارى » فقد كان السلطان هو الذى تبنى فكرة بناء جامع الشيخ أبو الوفاوجامع أبى أيوب الأنصارى عقب اكتشاف مقبرته من قبل الشيخ آق شمس الدين. وقد قامت حولهما تدريجياً أحياء إسلامية عريقة، حيث توالى إنشاء المدارس، ودور العلم، والتكايا، والزوايا حول مثل هذه المنشآت الدينية.

وفيما بين سنة ١٤٦٢م - ٨٦٧هـ وسنة ١٤٧٠م - ٨٧٥هـ تم إنشاء جامع الفاتح فوق قمة من قمم المدينة، وأسس حوله جامعته المسماه « صحن ثمانى »، وكانت هذه الكليات الثمانية تشكل صفين من المبانى، ثم أعقبهما بمدارس التتمة للطلاب، ودار للشفاء، وعمارات للسكنى، وحمام، ودكاكين للوراقين. وأقام الصدر الأعظم محمد باشاجامعاً وحماماً بإسمه فى نفس هذا الحى. وقد أعقبه كل من كديك أحمد باشا ومحمد القرامانى بمنشآت مماثلة. وما السوق المغطى، وسوق البزازين، وسوق العاديات، وسوق الخيول، إلا من مآثر هذا العهد. وما أن ظهرت بعض المحاذير التى تحول دون الإستمرار فى السكنى بالقصر العتيق، حتى أصدر أوامره بإنشاء السراى الجديد » فى منطقة « طوپ قاپى » المسيطرة علي مداخل البوسفور، وخليج القرن الذهبى، وبحر مرمره. وإذا كان البناء قد بدأ سنة ٦٢ أو ١٤٦٧م - ٦٧ / ٨٧٢هـ فإنه قد تم - وفقاً للكتابة التى اكتشفت على البوابة، سنة ١٤٧٨هـ - ٨٨٣هـ. كما أن القصر الخزفى - الذى يعتبر من أجمل وأروع نماذج العمارة الإسلامية - من الآثار، والأعمال التى شيِّدت فى هذا العصر.

ولإحكام الدفاع عن العاصمة استانبول، فقد أمر ببناء « قلعة چناق »، فى المنطقة المتحكمة فى مضيق الدردنيل والتى تصل بحر مرمرة بالبحر الأبيض المتوسط، وأنشأ ترسانة ميناء« قاديرغه » سنة ١٤٦٢م - ٨٦٧هـ. وقد بلغت إستانبول، وملحقاتها فى عصر محمد الفاتح أربعة أقضية، ثلاثة داخل الأسوار، والرابع خارجها.

بايزيد الثانى (١٤٨١ - ١٥١٢م) ٨٨٦ - ٩١٨هـ

وعقب وفاة السلطان محمد الفاتح، وتولى بايزيد الثانى مقاليد السلطة فى ٢٢ مايو سنة ١٤٨١م - ٨٨٦هـ، عاشت استانبول شيئاً من الهدوء النسبى.. ومع هذا فقد توالت عليها بعض الكوارث والنكبات الطبيعية، كالحرائق والزلازل، والسيول، والانشطارات الأرضية، وقد أدت كلها إلى خرائب كبيرة فى المدينة سنة ١٤٨٨م - ٨٩٤هـ وفى العام التالى أصابت المدينة صاعقة مدمرة

هدّمت الكنائس، وأوقعت المآذن . إلا أن استانبول ـ رغم كل هذا ـ لم تفقد وصف المدينة المحاطة بالأسوار العظيمة . خلال هذا العصر، أمر بايزيد الثانى بإنشاء جامعة، واستمر البناء الذى بدأ سنة ١٥٠١م ـ ٩١١هـ . إلى سنة ١٥٠٧م ـ ٩١٧هـ كما أمر بإنشاء « مدرسة » كلية، ودار للضيافة، مكتب ـ أو مدرسة ومبانى خدمية أخرى . وبمناسبة حفل الافتتاح، حضر السلطان بايزيد الثانى صلاة أول جمعة به، وأمر بإطلاق سراح الكثير من المسجونين، وأسقط الدين عن المديونين . وأصبح هذا اليوم، من الأيام المعدودة فى استانبول . ثم كان الزلزال المدمر الذى حدث أيضاً فى عهد السلطان بايزيد، والذى يصفه بعض المؤرخين بالقيامة الصغرى، سنة ١٥٠٩م ـ ٩١٥هـ والذى استمر وتوابعه خمسة وأربعون يوماً . ودمّر فى المدينة ١٠٩ جامعاً، ومسجداً، وهدّم ١٠٧٠ منزلاً . ولم يبق فى المدينة أية منارة أومئذنة قائمة . وتهدم قسم كبير من أسوار المدينة فى المنطقة الممتدة فيما بين « اكرى قابى » و« يدى كوله وحتى « باب اسحاق باشا » . وتهدم جزء من بوابة السراى العامرة . وكان من بين المبانى التى أُضيرت كثيراً، جامع الفاتح، وجامعته، ودار الشفاء . وتهدم حى قرامان بالكامل . وتعرضت قبة جامع بايزيد لكثير من الأضرار هى وقباب كثيرة أخرى . . وأمام عنف الطبيعة، ووطأة الزلزال، وتدفق مياه البحر فى الشوارع، لم يجد السلطان بداً من التوجه إلى أدرنه فى التاسع من رجب سنة ٩١٥هـ ـ ٢٣ أكتوبر سنة ١٥٠٩م .

بعد أن هدأت الزلازل، جمع بايزيد الثانى ديوانه، وناقش مشكلة إعادة إعمار المدينة، وتقرر أن يتم استقدام شخص عن كل ٢٠ بيتاً وجمع ٢٢ أقچه عن كل منزل كضريبة . وعلى الفور تم استجلاب ٣٧ ألف أجير من الأناضول و٢٩ ألفاً من الروميلى . وكان هناك ثلاثة آلاف بنّاء، ونجّار وثمانية آلاف إنكشارى مكلفون بإطفاء الجير، ومعهم ثلاثة آلاف مُسلم . وكانت الإنشاءات التى بدأت فى ١٨ ذى الحجة سنة ٩١٥هـ تتم تحت إشراف المهندس المعمارى مراد أوغلى خير الدين . وتمت فى ٢٣ صفر سنة ٩١٦هـ ـ يونيه ١٥١٠م . وقد شملت هذه التجديدات معظم أحياء العاصمة إستانبول وضواحيها التى تضررت من هذه الكوارث وكذا قلعتى الأناضول، والروميلى .

عقب هذه الزلازل، تعرضت إستانبول لنوع آخر من القلاقل، تلك التى نشبت بين الأمراء على وراثة العرش، وبدت بها علامات الثورة والعصيان، وإندلعت قوات الإنكشارية، ومعسكراتها، تعبث فساداً فى المدينة، ووصلت أعمال النهب والسلب إلى قصور الكثيرين من رجالات الدولة، وكان كل طرف يحاول أن يجعل من الأمير الذى يؤيده هو السلطان، إلى أن أضطر بايزيد الثانى أن يتنازل عن العرش للأمير سليم تحت ضغط . قوات الإنكشارية وتعتبر هذه أول حادثة لخلع السلطان تتم فى التاريخ العثمانى . وظل بها لمدة عشرين يوما مقيماً فى السراى العتيق، ثم غادر إستانبول متوجهاً إلى « ديمتوقه » Dimetoka للإستراحة والاستجمام . فوافته المنية ودُفن فى مقبرته المقامة بجوار جامعه فى إستانبول .

شهدت مدينة استانبول حريقاً، آخر، مروعاً، فى زمن السلطان سليم الأول (٨٧٥ - ٩٢٧هـ = ١٤٧٠ - ١٥٢٠م) جعل الكثير من أحياءها رماداً وأطلالاً تنعق فيها البوم.

سليم الأول(*) واستانبول: (١٥١٢ - ١٥٢٠م = ٩١٨ - ٩٢٧هـ)

من الثابت أن سليم الأول بعد أن نجح فى ضم الشام، ومصر والحجاز إلى الإمبراطورية العثمانية، وأثناء إقامته فى القاهرة والتى استمرت عشرة أسابيع، كان قد بعث إلى إستانبول بالخليفة العباسى المتوكل على الله الثالث، وبعض من أقاربه، وابنى عمه أبابكر وأحمد وما يزيد عن ألف من الأشراف(*) والسادات(*)، وقاضى القاهرة الشافعى، والكثير من المهندسين المعماريين، والفنيين المهرة للمشاركة فى إعادة إعمار مدينة استانبول. وكان من بين من بعث بهم جماعة من ممثلى الخيال الظلى لتمثيل كيفية شنق طومان باى على باب زويلة .

وعند عودته هو إصطحب معه ألف جمل محملاً بالذهب، والفضة وغيرها الكثير من الغنائم. ومفاتيح الكعبة، التى بعث بها إليه أمير مكة المكرمة الشريف محمد أبو البركات مع إبنه أبو نمى. وكذلك مخلفات الرسول« صلعم »(*) التى تسلمها مع المفاتيح، وتلك التى حصل عليها من مصر.

(*) سليم الأول : ١٥١٢ - ١٥٢٠م ولد سنة ١٤٧٠م. فى آماسيا، كان شغوفاً بالقراءة وهو مازال صبياً، ولم يكن يهمل دروسه العسكرية. تحت اشراف مباشر من والده بايزيد الثانى تولى السلطة سنة ١٥١٢م. ١٥١٤ توجه إلى حرب إيران، فى ٥ حزيران سنة ١٥١٦، خرج لمعركة مصر، وتمكن من السيطرة على الشام، ودخل مصر سنة ١٥١٧. أراد أن يجعل من القاهرة عاصمة للدولة العثمانية، ولكن العلماء اثنوه عن هذه الفكرة لمجابهته الخطر الذى يهدد الإسلام دائماً من الشمال. نقل معه إلى استانبول المخلفات النبوية المباركة التى كانت فى القاهرة فى حوزة الغورى بالإضافة الى مفاتيح الكعبة التى قدمت إليه. أقام لهذه الأمانات المقدسة دائرة خاصة بها فى سراى السلطان بالعاصمة استانبول. ١٥٢٠ خرج إلى أخر حرب له، وتوفى فى ٢١ / ٢٢ من سبتمبر سنة ١٥٢٠م. كان يحلم بخلق تكتل اسلامى يجابه به التكتل الصليبى حتى يتمكن من القضاء على الحروب الصليبية.

(*) الأشراف والسادات: مصطلح إدارى كان يطلق على أبناء وأحفاد سيدنا الحسن حفيد النبى صلى الله عليه وسلم، أما هؤلاء الذين يتسبون إلى حضرة الحسين فكان يطلق عليهم السادات. وكان لهم نقيب يطلق عليهم نقيب الأشراف ينظم حياتهم، ويحفظ سجلاتهم. وكانت لهم مخصصات من الدولة. ولنقيب الأشراف نواب فى كل الولايات يحلون محله فى حل أمور الأشراف. وكان منهم أمراء مكة المكرمة فى بعض المراحل التاريخية. وكان العثمانيون يطلقون على أمير مكة « مكة شريفى » أى شريف مكة. وكان الشريف بركات يتبع ادارة مصر عند الفتح العثمانى. وما أن علم بدخول سليم الأول مصر ٩٢٣هـ = ١٥١٧م حتى أرسل إليه إبنه ومعه مفاتيح مكة والمدينة وبعض من الأمانات المقدسة. وبهذا انتقلت إلى الإدارة العثمانية.

(*) مخلفات الرسول « صلعم » أو (امانات مقدسة) أى الأمانات المقدسة. أو الأمانات المباركة تعبير يطلق على بعض مخلفات الرسول(صلعم)، والخلفاء الراشدين، وبعض من الصحابة الكرام. وهى عبارة عن :

١ - خرقة السعادة وهى تخص النبى « صلعم ».
٢ - السنة المباركة للنبى « صلعم ».
٣ - عدد نعلين للنبى « صلعم ».
٤ - حجر يحمل أثر قدم النبى « صلعم ».
٥ - سجادة الصلاة الخاصة بالنبى « صلعم ».
٦ - سجادة الصحابى الجليل وأمير المؤمنين ابى بكر الصديق.
٧ - قبضه سيف النبى « صلعم ».
٨ - سهم يخص النبى « صلعم ». =

وقد كلّف سليم الأول الوزير محمد باشا، وقاضي العسكر زَيْركْزَاده بالإشراف على هذه العملية التي أراد بها سليم الأول؛ أن يضفي شيئا من الروحانية، والقدسية، والمهابة الدينية على عاصمة الإمبراطورية. ويذكر حيدر چلبي؛ أنه كان من بين هؤلاء المنفيين بعض من النصارى واليهود. ووفقاً لما ذهب إليه المؤرخ محمد بن إياس (*)؛ فإن سليم الأول كان يهدف بإصطحابه لهؤلاء الفنيين، والحرفيين المهرة إنشاء مدرسة «جامعة» تشبه جامعة الغورى بالقاهرة. وقد حمل سليم الأول معه أيضاً كل الكتب التي تتعلق بتاريخ المماليك، ومؤسساتهم المختلفة. كما أنه أحضر إلى إستانبول عند عودته إليها بعض المغاربة. وكان من بين مَنْ أحضرهم معه إلى العاصمة محمداً بن قنصوه الغورى. وبناءاً على الشكاوى المقدمة من الأشراف، وأقارب الخليفة المتوكل على الله، ضد هذا الخليفة العباسى، أمر سليم الأول سنة ١٥٢٠م - ٩٢٧هـ بحبسه في برج «يدى كُلَه» وظل به حتى أطلق سراحه السلطان سليمان القانونى سنة ١٥٢١م - ٩٢٨هـ، وسمح له ولمن آراد من الآخرين بالعودة إلى القاهرة.

لقد أعطى السلطان سليم الأول أهمية قصوى للمنشآت البحرية في استانبول؛ فقد تم توسعة الترسانة البحرية التي أنشئت في زمن محمد الفاتح، حتى أصبحت تستوعب ثلاثمائة ورشة =حوضاً

٩ - لواء الرسول أو السنجق الشريف. ١٠ - وقازان قدر يرجع إلى سيدنا ابراهيم يعود الى النبى نوح عليه السلام.
١١ - عصاتين شريفتين للنبى شعيب عليه السلام. ١٢ - قميص حضرة سيدنا يوسف.
١٣ سيف سيدنا داوود. ١٤ - مفتاح مكة المكرمة.
١٥ - مزراب من الكعبة المشريفة. ١٦ - ضلفة من باب التوبة في الكعبة.
١٧ - الغطاء او الغلاف = الفضى لمقام سيدنا ابراهيم فى الكعبة المشرفة.
١٨ - بعض من ماء وضوء النبى (صلعم).
١٩ - سنجقة الخلفاء الراشدين. ٢٠ - عمامات الخلفاء الراشدين.
٢١ - مسابح الخلفاء الراشدين. ٢٢ - سيوف الخلفاء الراشدين.
٢٣ - ست من مقابض سيوف العشرة المبشرين بالجنة. ٢٤ - سيف الصحابى حضرة جعفر الطيار.
٢٥ - سيف الصحابى حضرة خالد بن زيد. ٢٦ - سيف الصحابى حضرة معاذ بن جبل.
٢٧ - سيف الصحابى حضرة شرحبيل بن حسن. ٢٨ - رايات حضرة حسن والحسين رضى الله عنهما.
٢٩ - تاج حضرة ويس القرنى
٣٠ - نسخة من المصحف الشريف بخط يد الصحابى الجليل الخليفة عثمان.
٣١ - نسخة أخرى بخط يد حضرة «على» كرم الله وجهه.
٣٢ - نسخة شريفة من المصحف بخط الصحابى زين العابدين .. الخ والخرقة الشريفة محفوظة فى صندوق من الفضة، والامانات الأخرى محفوظة فى علب من الفضة أيضا. وهى فى قسم خاص بها فى متحف «طوپ قاپى سراى» وكان السلاطين العثمانيين يذهبون للزيارة والتبرك بها فى الخامس عشر من شهر رمضان كل عام. الخرقة الشريفة هى البردة التى القى بها النبى ﷺ على كعب بن زهير عندما مدح النبى. وقد قام «أبو نمى» ابن الشريف بركات بتسليم بعضها الى السلطان سليم الأول فى القاهرة عقب ضمه مصر إلى الإمبراطورية العثمانية. ووجد البعض الأخر فى خزائن قنصوه الغورى قام السلطان سليم بعد عودته إلى استانبول بانشاء دائرة = مبنى خاص بهذه الأمانات المقدسة بجوار جناحه الخاص فى السراى السلطانى كان كل سلطان عقب توليه العرش وتقليده سيف السلطنة يحرص كل الحرص على زيارة هذه الأمانات المباركة فى احتفال رسمى يحضره الصدر الأعظم، وشيخ الاسلام وكل رجالات الدولة وأركانها.

(*) ابن إياس: محمد بن أحمد؛ تاريخ مصر المشهور بـ «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» المطبعة الأميرية بولاق، تحقيق محمد مصطفى.

لصناعة السفن . وكان القبطان جعفر بك هو الذى يُشرف على هذه الأعمال . وقد تم تخصيص خمسين ألف آقجة لكل ورشة . والسلطان سليم الذى أمر بانشاء مائة وخمسين سفينة حربية فى هذه الترسانة أمر بإحضار بحارة، ومجِّدفين مهرة لها من مصر . كما أمر ببناء قصراً على الساحل فيما بين حى « سيركةجى » و« سراى بورنى » أطلق عليه اسم « القصر الصيفى » أو « قصر المرمر »

توفى سليم الأول، عقب مرض قصير، فى چورلى، فى الحادى والعشرين من سبتمبر سنة ١٥٢٠م = ٩٢٧هـ . وتم إحضار الجثمان إلى العاصمة، وسط مراسم حداد حاشدة، وبعد أداء صلاة الجنازة فى جامع الفاتح، تم دفنه بجوار جامعه الذى يُسمى جامع السلطان سليم . (*) =السليمية .

ومن أجمل ما أوجده سليم الأول فى العاصمة، هوتخصيصه جزء كبير من قصره ليكون خزينة للآمانات المقدسة التى آحضرها من مصر .

إستانبول من سليمان القانونى/ حتى مصطفى كمال آتاتورك :

عقب وفاة سليم الأول، كان سليمان هو الإبن الوحيد الباقى، وكان فى نحو الخامسة والعشرين من عمره، وطبقاً للآعراف، والتقاليد العثمانية، فقد ترك ولاية مانيسا، (مغنيسيا)، وقدم إلى استانبول، وإعتلى عرش الإمبراطورية فى السابع عشر من شوال سنة ٩٢٦هـ = ٣٠ سبتمبر سنة ١٥٢٠م . ومنذ ذلك التاريخ وقد بدأ عهد القانونى، (٩٢٧ - ٩٧٤ . هـ = ١٥٢٠ - ١٥٦٦م بالنسبة للعاصمة، وكذا بالنسبة للإمبراطورية . وقد تطورت العاصمة، خلال هذه السنوات، تطوراً ملحوظاً، جعلها بحق عاصمة تليق بأعظم إمبراطورية على الكرة الأرضية . فسجلات الأوقاف التى ترجع إلى ذلك العهد، تُعطينا صورة مفصلة عن آحياء العاصمة، وما بها من منشآت؛ وكان أول عمل قام به سليمان القانونى هو إتمام بناء جامع والده . فقد أتمه فيما بين إبريل ١٥٢١ م أكتوبر سنة ١٥٢٢م = ٩٢٨ - ٩٢٩هـ . وأُقيم ضريح سليم الأول بجوار المسجد .

كانت مشكلة المياه فى العاصمة من أهم المشاكل التى واجهت السلطان سليمان القانونى، ولكنه تمكن من التغلب عليها بمجموعة الكبارى، والسدود، والقنوات التى كُلف الصدور العظام، والمعمارى العظيم سنان باشا بها . ثم كان الضبط، والربط، ومواجهة ظاهرة الهجرة وربطها بالكفالة والسماح بالعودة من حيث جاءوا ، والتصدى للتسول، وإنتشار المقاهى، واللصوصية، والبلطجة . ومنع المسكرات منعاً باتاً فى العاصمة

ومما لاشك فيه، أن أعظم ما تزدان به العاصمة استانبول ومازال باقياً حتى اليوم، ويرجع إلى عصر القانونى هو جامع وجامعة السليمانية (*) . وتوسعة السراى السلطانى بإضافة الجزء المسمى الحرملك إلى سراى طوپ قاپى .

(*) من الثابت تاريخيا أن هذا المسجد ، والضريح كانت أساسا تهما قد القينا مسبقا، ثم أتمهما السلطان سليمان القانونى ابن سليم الأول .

(*) انظر جامع وجامعة السليمانية، فى قسم الحضارة ص .

لقد شهدت استانبول فى عهد الهمايون سليمان القانونى عروضاً عسكرية رائعة بلغت ثلاثة عشر عرضاً فى سنوات ١٥٢١؛ ١٥٢٢؛ ١٥٢٦، ١٥٢٩، ١٥٣٢، ١٥٣٣، ١٥٣٦، ١٥٣٨، ١٥٤١، ١٥٤٣، ١٥٤٨، ١٥٥٢، ١٥٦٦م وهى السنوات التى كان يخرج فيها للحرب. وكانت آخر مرة شهد فيها هذا العرض العسكرى الحاشد فى العاصمة، كان يوم الإثنين ٩ شوال ٩٧٣ هـ عند خروجه إلى حرب سكتوار.

كما شهدت العاصمة لأول مرة إحتفالاً مدنياً بهيجاً، فى الثانى والعشرين من مايو سنة ١٥٢٤م = ٩٣١ هـ عند زواج الصدر الأعظم إبراهيم باشا من شقيقة السلطان سليمان، الأميرة خديجة. فلقد إستمرت احتفالات العرس لمدة خمسة عشر يوماً فى « ميدان الخيل » وإنتهت بتوصيل العروس إلى السراى الذى شيَّده السلطان هدية لإبراهيم باشا. كما شهدت إستانبول الجميلة حفلات ختان أبناء السلطان؛ الأمير مصطفى، والأمير محمد، والأمير سليم فى الخامس عشر من رجب سنة ٩٤٦هـ = ١٥٣٩م. فقد كانت إستانبول - فى مثل هذه المناسبات - تعيش أحلى أيامها، وترتدى أبهج، وأروع ثيابها (*).

كما إزدانت إستانبول فى عهد السلطان سليمان القانونى بأزهى عصور العلم، والفكر، والأدب، والفلسفة؛ فقد انعكست معالم الثراء على دور العلم القائمة، وما إستُحْدِث بجوارها من كليات وجامعات، ومستشفيات، وأوقاف خيرية، ودور للحديث، ومكاتب للصبية. وقد شهدت استانبول لأول مرة المقاهى التى كان يرتادها آنذاك المتعلمون، والمثقفون، ويشهدون بها المناقشات العلمية، والمساجلات الأدبية، والمطارحات الشعرية سنة ١٥٥٥م = ٩٦٣ هـ (*) وقد وصلتها عن طريق حلب، والشام. فقد إنتشرت هذه المقاهى، والتى كانت تُعتبر منتديات فكرية فى حى « تخته قله »

أما عن الإتفاقيات والمعاهدات التى شهدتها مدينة إستانبول فى عهد السلطان العظيم سليمان، فحدث عنها ولا حرج؛ فقد كانت أول معاهدة تشهدها إستانبول هى تلك التى عُقدت فى الحادى عشر من كانون الأول سنة ١٥٢١م = ٩٢٨ هـ والتى جُدِّدت بمقتضاها بعض « الإمتيازات » الممنوحة لجمهورية البندقية. ثم تلتها فى نفس السنة اتفاقية تجارية مع جمهورية راغوزا. وبها فى سنة ١٥٢٨م = ٩٣٥ هـ تم تجديد إتفاقية الإمتيازات التجارية الممنوحة لفرنسا فى مصر. وفى إستانبول

(*) ما زالت هذه من العادات المتبعة فى تركيا؛ فحفلات ختام الأولاد الذكور يُحتفل بها أكثر من العرس بالنسبة للولد، على اعتبار أن الولد فى هذه السن ملك الأسرة كلها، ولكن فى حفلة الزفاف فهو ملك عروسه. « المؤلف ».

(*) ما زالت هذه المساجلات، والمطارحات، والمناقشات العلمية، والأدبية، والاقتصادية والسياسية تجرى فى هذه المنتديات وما شابهها فى مدينة استانبول حتى اليوم، وقد شاهدتها، وحضرتها بنفسى عندما كنت فى استانبول فيما بين ١٩٦٧ - ١٩٧٣م. « المؤلف ».

عُقدت أول إتفاقية صداقة بين الإمبراطورية وفرنسا فى سنة ١٥٣٢م = ٩٣٩هـ، ووقعت فيها أيضاً، أول إتفاق بمنح الإمتيازات التجارية لفرنسا فى كل الولايات، وذلك فى فبراير ١٥٣٥م = ٩٤٢هـ. أما فى سنة ١٥٤٠م = ٩٤٧هـ، فقد وُقعت معاهدة صلح وسلام، فى استانبول مع البنادقة أيضاً. وكان الإنتصار البحرى لخير الدين باربـاروس، هو الذى أدى إلى ذلك. وقد دفعت جمهورية البندقية بمقتضى هذه الإتفاقية تعويضات بلغت ٣٥٠ ألف دوقة ذهبية، وقبلت التنازل للدولة العثمانية عن العديد من الجزر والمدن الواقعة داخل البحر الأبيض المتوسط وعلى سواحله. كما عُقدت بها إتفاقية تعاون فى الأول من فبراير سنة ١٥٥٣م = ٩٦١ هـ بين الإمبراطورية العثمانية وفرنسا للعمل سوياً ضد شارلس كوانت « Charles - Quint ». وشهد شهر مارس سنة ١٥٦٢م = ٩٧٠هـ، بالعاصمة إستانبول، إتفاقية عدم إعتداء بين كل من آوستوريا = النمسا، والإمبراطورية العثمانية لمدة ثمانية أعوام متصلة. وبهذه الإتفاقية قبلت النمسا إلحاق المجر بالدولة العثمانية، وأن تستمر فى دفع جزية سنوية مقدارها عشرين ألف دوقة ذهبية. وكانت هذه آخر إتفاقية تُعقد فى إستانبول، فى عهد سليمان القانونى.

يُغادر سليمان القانونى فى الأول من مايو سنة ١٥٦٦م = ٩٧٤هـ العاصمة استانبول لخوض « حملته السنية » الثالثة عشر والأخيرة على « سيكتوار » بسبب التوقف عن دفع الجزية من قبل النمسا، والحوادث الحدودية من قبل إمبراطور المجر الجديد ماكسميليان الثانى. وبعد حصار دام شهر، يتم الإستيلاء على الموقع فى الثامن من سبتمبر. وكان السلطان العظيم، الهَرِم قد مات منذ يومين فى خيمته، ويجرى تكتم الخبر حتى يتمكن إبنه سليم من الوصول إلى العاصمة إستانبول، وضمان إعتلاء العرش.

إستانبول فى عهد سليم الثانى [٩٧٤ـ ٩٨٢هـ = ١٥٦٦ ـ ١٥٧٤م]

صعد سليم الثانى، إبن سليمان القانونى إلى كرسى الحكم فى العاصمة استانبول فى السابع والعشرين من سبتمبر سنة ١٥٦٦م = ٩٧٤هـ وبعد بضع أيام توجه إلى بلغراد، وإستقبل نعش والده العظيم هنالك، ثم عاد به إلى إستانبول. وشهدت العاصمة خلال هذه الفترة بعض القلاقل من قبل الإنكشارية، وصل بهم الأمر مقاومة ومنع السلطان الجديد من دخول السراى. فإضطر السلطان الشاب إلى الرضوخ لمطالبهم، وما أن أصدر أوامره بالمنح، والعطايا والترقيات للجند، حتى إنتهت حركات التمرد، وعم الإبتهاج، والإحتفال عموم العاصمة.

وقد إستُغلت هذه الفرصة، ويُرفع الحظر الذى كان مفروضاً على الكحليات منذ زمن السلطان سليمان القانونى.

ولقد تعرض الحى اليهودى فى استانبول لحريق مدمر فى عهد سليم الثانى، فى التاسع عشر من سبتمبر سنة ١٥٦٩م = ٩٧٧هـ . وقد أتت النيران على الحى كله بسبب تشييده من الآخشاب عقب الزلزال المدمر الذى ضرب المدينة فى عهد بايزيد الثانى . كما أتى الحريق على العديد من المراكز الثقافية، والفكرية، والفلسفية . وقد أمر السلطان سليم الثانى بإغلاق المقاهى، والخمارات التى إنتشرت ثانياً فى استانبول، وغلطة .

كما أصدر آوامره، بتكليف المعمارى سنان باشا، بإعادة ترميم جامع الآباصوفيا بعد التصدُّع، والإنهيار الذى آصابه عند إعادة بناءه .

وتدثرت مدينة استانبول الجميلة برداء الحزن والمأتم على وفاة العالم، والمفسر، والمفتى الضليع، شيخ الإسلام أبو السعود أفندى (*) الذى نجح فى التوفيق بين الشريعة الإسلامية والكثير من المشاكل المالية، والإدارية، والإقتصادية . فقد وافته المنية فى شهر أغسطس سنة ١٥٧٤م = ٩٨٠ هـ . كما توفى السلطان سليم الثانى فى أول أيام رمضان سنة ٩٨٢هـ = ١٥٧٦م . بسبب سقوطه فى حمام السراى، وكسر ساقه، وكان أول سلطان عثمانى تواتيه المنية فى مدينة استانبول

ولأول مرة تشهد العاصمة إستانبول التأثير اليهودى بشكل واضح فى عهد سليم الثانى، وخاصة فى الأمور المالية . فلقد أسس اليهودى البرتغالى رونّة مندس Ronna Mendes أول مؤسسة بنكية فى إستانبول تعمل بالنظام البنكى، المعتمد على البوليصات البنكية، والكمبيالات، وفقاً للنظام المعمول به فى أُوروبا . وفى نفس الوقت، قام يوسف ناصى صهره، والذى كان ابن أخته بالولوج إلى السراى والتدخل فى العديد من الإحتكارات المالية الكبيرة، مكوناً ثروة طائلة . وقد نجح فى الحصول على فرمان يمنحه دوقية جزيرة ناقشه Nakse إلا أنه فضَّل السكن فى استانبول . وقد تسببا هما الإثنان فى إنتقال الذهب التركى بثمن بخس إلى الأسواق الأوروبية . وقد أدى هذا، بدوره فى رفع قيمة العملة الذهبية فى مواجهةالعملة الفضية فى البلاد بشكل جنونى . كما قام الصيارفة اليهود أيضاً بتسريب العملات المعدنية المتآكلة الآطراف، أو المغشوشة، أو ناقصة العيار . وبالرغم من صدور

(*) شيخ الاسلام أبو السعود أفندى: ١٤٩٠ . ١٥٧٥م ٨٩٦ . ٩٨٣هـ محمد أبو السعود أفندى، هو شيخ الإسلام الرابع عشر فى الدولة العثمانية . والده من علماء الدولة، والدته هى سلطان خاتون ابنه العالم على قوشجى . يُعرف أيضاً باسم خوجه چلبى . تلقى علوم عصره على اشهر علماء الدين والعلوم المثبتة . السلطان بايزيد هو الذى أطلق عليه لقب چلبى وهو مازال طالباً . وقد أحسن إليه براتب يومى مقداره ٣٠ آقجة بدأ فى سلك التدريس منذ سنة ١٥١٦م . واستمر بها حتى عُين قاضياً لبورصة سنة ١٥٣٣م = ٩٣٩هـ . ثم نقل إلى قضاء استانبول ثم عيِّن قاضيا للعسكر، وبعد أن قضى ما يزيد عن ثمانى سنوات فى هذه الوظيفة عيِّن شيخاً للإسلام سنة ١٥٤٥م = ٩٥٢هـ . فى زمن سليمان القانونى . ظل شيخاً للاسلام ٢٨ سنة واحدى عشر شهراً .له العديد من المؤلفات، وله تفسير للقرآن الكريم يسمى « مزايا القرآن العظيم » ويُطلق عليه سلطان المفسرين . كما أن له الى جانب الفتاوى أشعار باللغات الإسلامية الثلاث العربية، والتركية والفارسية . « المؤلف »

فرماني سلطاني بمنع هذه العملات من التداول، إلا أن الأجهزة المعنية لم تنجح في ذلك بالشكل الكامل، وأدى ذلك إلى ظهور حركات العصيان، والتمرد في المدينة. وقد أثر ذلك بدوره على الأسعار، مما دفع بالدولة، للتدخل لتحديد أسعار كل المواد الغذائية.

وكما جُدِّدت، وعُقِدَت بعض الإتفاقيات، والمعاهدات في العاصمة عقب حرب سكتوار، ومنح فرنسا الإمتياز الثاني، فقد تم توقيع أول إتفاقية صداقة بين الإمبراطورية العثمانية وروسيا القيصرية خلال سنة ١٥٧٠م = ٩٧٨هـ. وكانت آخر إتفاقية تُعقد في إستانبول في عهد سليم الثاني هي تلك التي عُقِدت في الرابع والعشرين من سبتمبر ١٥٧٣م = ٩٨١هـ، والتي تتعلق بتمديد معاهدة الصلح مع النمسا لمدة ثماني سنوات أُخرى.

السلطان مراد الثالث: [٩٥٣-١٠٠٤هـ = ١٥٤٦-١٥٩٥م]

ما أن تلقى الأمير مراد خبر وفاة والده وهو في مانيسا = مغنيسيا، حتى سارع بالتوجه نحو العاصمة استانبول، وعقب وصوله إستقبله الصدر الأعظم صوقوللي، وأدخله القصر، وإعتلى العرش على عجل، وخشية أن يزاحمه أحد على العرش، فقد بادر في نفس الليلة بإغراق إخوته الذكور الخمسة. وبعد يومين، وزَّع هدايا الجلوس، وفي الخامس من كانون الثاني سنة ١٥٧٤م = ٩٨٢ هـ تقلد السلطان الجديد سيف السلطنة(*). وفي مايو سنة ١٥٧٥م = ٩٨٣هـ، وصل دوقماق خان سفير إيران إلى استانبول، للتهنئة بإعتلاء العرش، وتجديد إتفاق الصلح بين البلدين. وقد إزدانت المدينة، وأُقيمت مراسم إستقبال رائعة، ومثل السفير بين يدي السلطان، وقدم هدايا الشاه القيِّمة، وسط حفاوة بالغة. وكانت من المناسبات المعدودة في تاريخ إستانبول.

وبأوامر من السلطان مراد الثالث في شهر مايو سنة ١٥٨٢م = ٩٩٠هـ إحتفلت إستانبول بختان الأمير محمد (=محمد الثالث) وكان إحتفالا بهيجاً، في مضمار الخيل. وفي شهر ابريل سنة ١٥٨٧م = ٩٩٦هـ عصفت بالعاصمة ثورات الفرسان، وسلاح الخيَّالة، وعلى رأسهم «عبيد الباب» الحرس الخاص. أي الحرس الإمبراطوري؛ وهاجموا السراي مطالبين برأس الوزير الأول دوغانجي

(*) تقليد السيف: كان هذا يرمز إلى بيعة السلطان عند جلوسه على العرش في الدولة العثمانية. وهو من أهم مراسم إعلان السلطان الجديد أول مَنْ تقليدالسيف هو السلطان مراد الثاني. والذي قلده السيف هو الشيخ المبارك «أمير بخاري». وقد استحسن هذا التقليد، وأصبح من الأمور المتبعة عند اعتلاء السلطان الجديد للعرش. وبعد فتح استانبول، وتشييد جامع أبي أيوب الأنصاري أصبحت هذه المراسم تجري به. أخر من تقلد السيف في الدولة العثمانية هو السلطان وحيد الدين وكان آلاي البيعة يخرج من سراي الحكم حتى جامع ابي أيوب وسط حفاوة بالغة من الشعب.

محمد باشا . وكان الدافع وراء هذه الثورة هو إنخفاض قيمة العَلُوفة، والعملة فى العاصمة إلى أقل من نصف قيمتها، مما أثر فى أسعار كل البضائع والممتلكات . وتحت وطئة الغليان وافق السلطان على إعدام محمد باشا والدفتردار محمود باشا . وما أن هدأت المدينة حتى إجتاحتها النيران، وأتى الحريق فى يوم وليلة على الأحياء اليهودية، وسوق العاديات، وحمام كَديك باشا، والعديد من المساجد، والجوامع، والمدارس، والجديد فى هذه الأحداث؛ أن الشعب، وقوات الإنكشارية التى كانت فى الحرائق السابقة، تتسابق فى تقديم العون والمساعدة فى أعمال الإطفاء، فإنها فى هذه المرة قد إنغمست فى أعمال السلب والنهب . وفى سنة ١٥٩٠م = ٩٩٩هـ، وفى نهاية شهر تشرين الأول إجتاح المدينة وباء معدى، تسبب فى وفاة آعداد غفيرة على مدار شهرين .

عقب وفاة مراد الثالث فى الخامس عشر من كانون الثانى سنة ١٥٩٥م = ١٠٠٤هـ تولى إبنه الأمير محمد العرش، وتلقب بلقب محمد الثالث (٩٧٤ - ١٠١٢هـ = ١٥٦٦ - ١٦٠٣م فى السابع والعشرين من نفس الشهر، وفى نفس اليوم أمر بقتل كل الامراء بإغراقهم . ويعتبر محمد الثالث هو السلطان العثمانى الذى وافق على الخروج من إستانبول على رأس الجيش المحرب من جديد، وذلك بعد انقطاع دام ثلاثين عاماً . وبعد عودته مظفراً إستقبله شعب المدينة، وسط إحتفال مهيب، شمل كل أحياء المدينة .

وفى الثامن من إبريل سنة ١٥٩٨م = ١٠٠٧هـ، تم وضع حجر الأساس للجامع الجديد، الذى يُعتبر بحق من أجمل، وأروع، النماذج فى العمارة الإسلامية . وتم وسط إحتفال كبير، ولتحقيق هذا الهدف تم نزع ملكية المبانى، والمعبد اليهودى القائم فى هذا الحى، وتم دفع ضعف الثمن الذى قُدِّرت به هذه الممتلكات . وكلِّف بعملية الإنشاء المهندس المعمارى داوودآغا، أحد طلبة معمار سنان البارزين . وبناءاً على وفاة والدة السلطان؛ السلطانه صفية توقف العمل، ولم تكتمل عماية البناء إلا بعد ستة وستين عاماً على يد السلطانه طورخان والدة السلطان محمد الرابع .

ومن الأحداث الطريفة التى شهدتها مدينة إستانبول، عاصمة الإمبراطورية فى الأول من إبريل سنة ١٦٠٠م - ١٠٠٩هـ هو مقتل اليهودية كيرا وإبنيها بأيدى السپاهية، وذلك لأنها بشكل ما، قد دخلت السراى، وعن طريق الرشوة، والنفوذ الذى إكتسبته لقربها من السلطانه صفية قد نالت الكثير من الامتيازات التجارية، وأعْمَلت فى السراى فساداً، وتسييراً لبعض المهمات فى مقابل الرشوة .

وقد استطاعت وولديها الحصول على إمتياز التزام الجمارك . وكانت تقدم مقابل الإلتزام نقوذاً مزورة، وعملات معدنية مغشوشة العيار . وكانت هذه النقوذ تقدم كعلوفة : « مرتبات » لقوات السپاهية فثاروا عليها، وقتلوها هى وولديها .

وفى السابع من إبريل سنة ١٦٠٠م - الثالث والعشرين من رمضان سنة ١٠٠٩هـ تلقى أهالى المدينة خبر وفاة الشاعر التركى الكبير باقى(*) فحزنوا عليه حزنا شديداً، وبكوه هو وصاحب كنه الأخبار عالى الذى توفى هو الآخر فى هذه الأيام.

ومن عبق تاريخ مدينة استانبول فى تلك الأيام الخوالى أن مدرساً صغيرا يدعى صارى عبدالرحمن، وهو من أصل مجرى، قد جهر بالزندقة فقبض عليه، وعقدت مناظرة علمية بينه وبين هيئة علمية تكونت من قاضى عسكر الأناضول، وقاضى عسكر الروميلى. وبعض العلماء وانتهت المناظرة التى تمت فى الديوان بإعدامه لعدم رغبته فى الرجوع عن أفكاره.

أحمد الأول (١٠١٢ - ١٠٢٧هـ - ١٦٠٣ - ١٦١٧م)

فى الثانى والعشرين من كانون الثانى سنة ١٦٠٣م - ١٠١٢هـ توفى السلطان محمد الثالث، فإعتلى العرش مكانه إبنه أحمد الأول (١٠١٢ - ١٠٢٧هـ - ١٦٠٣ - ١٦١٧م) بالرغم من أن عمره لم يكن قد تجاوز الرابعة عشر. وبعد أربعة عشر يوماً من إعتلاءه العرش أقيمت احتفالات ومهرجانات كبيرة بمناسبة إختتانه. وشهدت مدينة إستانبول بذلك أول حفلة ختان تتم للسلطان. كما شهدت لأول مرة استثناء شقيقه الأمير، وولى العهد مصطفى، من القتل بأمر السلطان. وفى الرابع والعشرين من تشرين الأول سنة ١٠١٣هـ - ١٦٠٤م وُلد الأمير عثمان، فأقيمت الاحتفالات لمدة سبعة أيام، وسبع ليالى متصلة فى مدينة إستانبول.

ويحدثنا المؤرخ پچوى عن أن الإنجليز هم أول الذين أدخلوا الدخان «التوتون» إلى إستانبول لأول مرة سنة ١٠١٨هـ - ١٦٠٩م عندما زار الإسطول الإنجليزى المدينة فى هذا التاريخ. أما المؤرخ نعيما فيرى هذا التاريخ هو ١٠١٤هـ - ١٦٠٦م..

وفى سنة ١٠١٤هـ - ١٦٠٦ خلال شهر حزيران تم قطع رقبة يوسف باشا الذى كان مشغولا بالجلاليةفى ضواحى صاروخان ومفتشه، وكان التنفيذ فى مقر الجيش فى أسكُدار باستانبول.. وفى

(*) الشاعر باقى: ١٥٢٦ - ١٦٠٠م = من أقوى شعراء الأدب الديوانى التركى. ولد فى استانبول. كان والده مؤذنا فى جامع الفاتح، قضى طفولته فى فقر وعوز، عمل صبى سرَّاج للمساعدة فى اعاشة الأسرة. كان يمتلىء قلبه بحب واحترام العلماء. التحق بالمدرسة، وتلقى العلم على علماء عصره، كما تتلمذ فى الشعر على شعراء كبار مثل ذاتى. كان يكتب الشعر من صغره. نال شهرة فى عالم الشعر فى استانبول ولم يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره بعد. وأصبح مدرساً. تولى قضاء العسكر فى الأناضول والروميلى، لم يوفق فى تولى منصب شيخ الإسلام الذى تمناه كثيراً. يأتى فى مقدمة الشعراء الكبار. ابتعد فى اشعاره عن القوالب الصوفية المعتادة. كانت لغته، وصوره الشعرية رائعة نال لقب سلطان الشعراء. له ديوان. وله مرثية مشهورة فى السلطان سليمان القانونى. «المؤلف»

الرابع من كانون الثانى سنة ١٦١٠م - ١٠١٩هـ تم إلقاء حجر الأساس لجامع السلطان أحمد. وشهدت استانبول لأول مرة خروج كسوة الكعبة المشرفة التى أعدَّت بها إلى مكة المكرمة فى الثانى والعشرين من شهر تموز - يوليه سنة ١٦١٠م - ١٠١٩هـ. وكانت العادة أن تعد هذه الكسوة فى مصر.

ولقد شهدت إستانبول فى السابع والعشرين من يوليو سنة ١٦١٢م - هـ الإحتفال بمولد الأمير مراد « مراد الرابع ». وفى نفس السنة احتفلت المدينة بمقدم الكسوة القديمة للكعبة، ومزراب مياه الكعبة وباب الروضة المطهرة، والمجوهرات التى كانت معلقة على جدران الضريح النبوى الشريف، وأقيم إحتفال حاشد عند وضع هذه الآمانات المقدسة فى الخزينة. ولما كانت أعمال الترميم تتم فى الكعبة المشرفة، وجد حسن باشا الذى كان مكلفاً بهذه المهمة أن السقف القديم للكعبة كان مازال سليما.. فصنع حسن باشا منه عُكَّازاً، وبعث به إلى السلطان مع تمنياته بالشباب الدائم. وأعيد قفل الحانات، ومنع المسكرات فى مدينة إستانبول فى شهر أغسطس سنة ١٦١٣م - ١٠٢٢هـ.

وفى سنة ١٦١٤م - ١٠٢٣هـ شهدت العاصمة استانبول مقدم أول سفير لهولندا، وأقيمت له، وعلى شرفه وليمة كبيرة فى حديقة أسْكُدار، وقدم التجار الذين كانوا برفقة السفير الهدايا القيِّمة للسلطان. وبعدها إستأذن السفير فى العودة إلى بلاده.

وفى السنة التالية شهدت المدينة وصول السفير الإيرانى إليها، ولم يحل ذلك دون خروج الجيش متوجهاً إلى حرب إيران. وفى تشرين الثانى سنة ١٦١٦م - ١٠٢٥هـ وُلِدَ الأمير إبراهيم (السلطان إبراهيم). وعمت الفرحة أرجاء المدينة. كما شهدت نفس هذه السنة حبس السفير الإيرانى فى « يدى كوله ». وكان أول سفير إيرانى يُحبس فى استانبول وأقيمت مراسم كبيرة لافتتاح مسجد السلطان أحمد الذى تم البناء فيه فى السادس من يوليه - حزيران سنة ١٦١٧م - ١٠٢٦هـ. ويعتبر هذا الجامع هو الأول والأخير الذى بنيت له ست منارات فى مدينة إستانبول.

ولقد شهد السلطان مراسم الاحتفال، وبعد أن لازمه المرض لمدة عشرين يوماً، وافته المنية بعدما أتم أربعة عشر عاماً فى السلطة، وكانت الوفاة فى الثانى والعشرين من تشرين الثانى سنة ١٦١٧م - ١٠٢٧هـ.

السلطان مصطفى: هـ = ١٥٩٢ - ١٦٣٩م

عثمان الثانى: هـ = ١٦٠٤ - ١٦٢٢م

تولى مصطفى الأول السلطة، ولكن بسبب الخلل العقلى الذى اتهم به، حلَّ محله عثمان الثانى

إبن أحمد الأول. ولما كان لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره، فقد تلقب في التاريخ العثماني بـ« گنچ عثمان » الفتى عثمان. شهدت إستانبول خلال فترة حكمه الكثير من قلاقل الجند، وإغتشاش العملة، وإنقلاب الأسعار والقحط والغلاء الشديد.

شهد شهر فبراير سنة ١٦٢٣م - ١٠٣٣هـ حدثاً غريباً حيث وضع الصدر الأعظم قَرَة حسين باشا أحد القضاة الذى كان ينتسب إلى السادات فى الفلقة بعد أن طرحه أرضاً. فثار علماء استانبول إثر ذلك، واجتمعوا فى جامع الفاتح، وأصدروا الفتاوى بأن الصدر الأعظم كافر، وأهدروا دمه. فهرب شيخ الإسلام الذى كان فيما بينهم. وفعل مثله قاضى استانبول. وتم تفرين العلماء بالقوة. وتم عزل الذين تسببوا فى هذه الأحداث وتعتبر هذه هى المرة الأولى التى شهدت فيها إستانبول ثورة للعلماء.

السلطان مراد الرابع : ١٠٢١ - ١٠٥٠هـ = ١٦١٢ - ١٦٤٠م

تولى السلطنة فى العاشر من سبتمبر سنة ١٦٢٣م - ١٠٣٣هـ عقب خلع مصطفى الأول.

ولقد شهدت سنة ١٦٢٥م - ١٠٣٥هـ وباءاً فتاكاً، كان الموتى يخرجون بالآلاف يومياً، فأقيمت الصلاة، والدعاء لدفع الخطر فى مدمار الخيل بإستانبول وفى أغسطس من عام ١٦٢٦م - ١٠٣٦هـ وصل سفير إنجلترى إلى العاصمة إستانبول لطلب الإذن والسماح لهم بالتجارة مع تونس والجزائر وإطلاق سراح الإنجليز المحبوسين فى تلك الولايتين. وفى مقابل قبول ذلك، طُلبَ من الإنجليز إطلاق سراح السفن التجارية التى كانت تعمل بالتجارة فيما بين اليمن، والهند وإعادة البضائع لأصحابها وفى بداية كانون الأول ١٦٣٤م - ١٠٤٤هـ كان السلطان متوجهاً عن طريق البر، إلى بورصة، وعند مروره على مدينة «إزنيك» وجد أن الطرق غير معبدة، فأمر بشنق القاضى. وما أن وصل هذا الخبر إلى إستانبول حتى خلق حزناً، وإستنفاراً لدى العلماء. فأرسل شيخ الإسلام آخى زاده حسين أفندى رسالة إلى والدة سلطان، موصياً إياها أن تمنع السلطان عن مثل هذه الأفعال. وكان العلماء خلال هذه المدة فى شبه إجتماع مستمر، لتدارس هذه المشكلة.. وكان آخى زاده يحضر هذه الإجتماعات.. وما أن علم السلطان بالخبر حتى عاد فوراً، إلى استانبول: فأمر على الفور بنفى حسين أفندى إلى قبرص، خاصة، وأن السلطان كان يُضمر له الحقد. لحمايته، وكفالته للأمراء أولياء العهد، والحيلولة دون إعدامهم ولكنه أعاد سفينته من عرض بحر مرمره، وأمر بإعدامه، فى السابع من كانون الثانى سنة ١٦٣٤م - ١٠٤٤هـ.

وكانت إعدام الشاعر الهجائى المشهور نفعى(*) بأمر السلطان فى استانبول فى السابع والعشرين من كانون الثانى سنة ١٦٣٥م - ١٠٤٥هـ، وذلك بسبب فساد توبته. كما صدرت الأوامر إلى قائمقام إستانبول بايرام باشا بإخراج كل الذين تركوا ديارهم، وجاءوا إلى العاصمة، وأقاموا بها منذ أربعين سنة.

السلطان إبراهيم ١٠٢٤-١٠٥٨هـ = ١٦١٥-١٦٤٨م

عند وفاة السلطان مراد الرابع كان الأمير الوحيد الموجود فى العاصمة هو الأمير إبراهيم. وكان شقيقاً للسلطان مراد الرابع. وقد تولى السلطنة فى التاسع من فبراير سنة ١٦٤٠م - ١٠٥٠هـ. وقد إرتبط بقاء الدولة العثمانية باستمرار السلطان إبراهيم فى السلطة وأبناءه من بعده.

وإلى جانب القلاقل، وحركات العصيان، والاعدامات التى شهدتها مدينة إستانبول خلال فترة حكم السلطان إبراهيم، إلا أنها إرتدت أجمل ما لديها من زينة فى الخامس من مارس سنة ١٦٤٦م =١٠٥٦هـ حيث زُفّت كريمة السلطان الكبرى إلى فضلى باشا، وقد تكفله الصدر الأعظم صالح باشا، فأعد لها نخلتين من الفضة(*)، وخمسين بوهچة «بؤجة صره» من الملابس، وفافلتين من البغال محملة بما خف حمله، وغلا ثمنه، وتماثيل غريبة الشكل مصنوعة من السكر، وجُمعت طيور وعصافير زينة بما قيمته خمسين ألف قرش. وصُبّت النخلتين، التى كان يحمل كل منهما خمسين رجلاً - فى دار سك العملة. وأثناء إحضارهما إلى السراى العتيق، قد أُزيلت شرفات المنازل، التى كانت تطل على الشوارع الضيقة حتى لا تفسدهما.

(*) الشاعر نفعى: ١٥٧٢ - ١٦٣٥م شاعر عثمانى شهير، اشتهر بالهجاء. ولد فى قصبة حسن قله بأرضروم. إسمه الأصلى عمر. نادم العظماء فى عصره، ونادم خان القرم. والده هو شاعر عصره محمد بك. بعد أن أتم تعليمه المدرسى جاء الى استانبول. شغل بعض الوظائف، عاصر أربعة سلاطين هم أحمد الأول، ومصطفى الأول وعثمان الثانى ومراد الرابع. قدم لهم وللوزراء ولعظماء عصره القصائد. آبعد عن الكثير من الوظائف بسبب لسانه، نال حماية مراد الرابع. وبالرغم من أنه أقسم فى حضرة السلطان بألا يهجو أحد إلا أنه لم يبر بقسمه، بسبب هجاءه للوزير بايرام باشا، خنقوه وألقوا بجسده فى مياه البحر. أثر فيمن أتوا بعده. له العديد من الأشعار «المؤلف»

(*) نخلة العرس: «مصطلح فنى يُطلق على زينة تُقام للعروس على هيئة نخلة. وكانت توضع فى كوشة العروس فى ليلة الزفاف. ثم أصبحت من الأعراف والتقاليد العامة التى تُقام فى حفلات الزواج، والختان. وحسب مقدرة صاحب العرس، كانت تُعلق بها زخارف أخرى من ورق مذهب او مفضض أو تعلق فصوص من الأحجار الكريمة. وكانت تُصنع فى العادة من شمع العسل، ولكنها فى بعض المراحل التاريخية صنعت من المعادن وحتى من معدن الفضة. والنخلة فى التراث الإسلامى رمز للحضارة الزراعية والخضرة والنماء. وفى التراث الاغريقى هى رمز للنماء، والنشوة، والشراب والخضرة. وقد جسدها العرب بالإله هُبَل. أو سبَلْ. تحمل الكثير من المعانى الخيرة. وبالنسبة للرجال هى مصدر القوة، وللنساء هى رمز النماء. كانت تُصنع النخلة كاملة، ثم رويدا رويداً بدأ الاكتفاء ببعض من سعفها. كانت حرفة خلال العصر العثمانى وفى مصر أيضاً. ويذكر أوليا چلبى أن مدينة استانبول كان بها أربعة دكاكين، و٥٥ نخالاً، يقومون بتصنيعها فى عصر السلطان مراد الرابع. «المؤلف»

وبقرار من هيئة العلماء، وأركان الدولة، ومعسكر الإنكشارية تم عزل السلطان إبراهيم فى الثامن من أغسطس سنة ١٦٤٨م-١٠٥٨هـ.

السلطان محمد الرابع: ١٠٥٢-١١٠٨هـ = ١٦٤٢-١٦٩٣م

وسط مراسم مبهرة تقلد السلطان محمد الرابع سيف السلطنة فى جامع وضريح أبى أيوب الأنصارى فى نفس يوم خلع السلطان إبراهيم. ولما كانت الأموال التى فى خزينة الدولة لا تكفى عطايا، وهبات الجلوس على العرش، فقد طُلبَ من الشيخ الصينى مائتين كيسه، فلما رفض، تم القبض عليه، ومصادرة ما لديه من أموال من الذهب، والفراء والأشياء الثمينة بما قيمته ستة آلاف كيسه(*) ذهبية. ولما كانت الأموال النقدية التى صودرت مرتفعة العيار. فقد وجدت طلباً متزايداً عليها بين الشعب، حتى أطلق عليها «آقچة الصينى».

شهد عهد السلطان محمد الرابع، إلى جانب ثورات، وقلاقل قوات الإنكشارية المختلفة، لأول مرة ثورة المهنيين، والحرفيين فى استانبول ففى الحادى والعشرين من أغسطس سنة ١٦٥١م-١٠٦٢هـ. وكان سببها أيضاً الإنخفاض الذى شهدته قيمة العملة، وما ترتب على ذلك من تضخم فى الأسواق. ولأول مرة أيضاً، تقتل إحدى سيدات السراى، حيث شهدت استانبول فى الثانى من سبتمبر سنة ١٦٥١م-١٠٦٢هـ مقتل ماهبيكر كُوسَمْ والده سلطان، وكانت جدة السلطان القائم على العرش، وذلك بسبب تدخلها فى عملية إعتلاء العرش، حيث كانت تُحبذ البيعة لسليمان الثانى، فتحركت طورخان سلطان والدة محمد الرابع أسرع منها، وكسبت هى الصراع لصالح إبنها.. فقامت المصادمات بين مؤيدى كلا الطرفين. ولأول مرة تشهد إستانبول إخراج السنجق- البَيْرقَ، العَلَم الشريف من خزينة الأمانات المقدسة ويُحمل ضد معسكر الإنكشارية المقيمين فى العاصمة إستانبول، فإلتف الشعب مع قوات العلماء والخيَّالة حول السلطان، فترك الجنود آغواتهم وإنضموا إلى جانب السلطان. فتم القبض على آغوات الإنكشارية ونُكِّل بهم جميعاً.

وفى إبريل من سنة ١٦٥٣م-١٠٦٤هـ شهدت إستانبول وصول سيد حاجى محمد سفيراً لحاكم الهند جيها نشاه وبعد أن قدَّم الهدايا المعتادة، أقام له كل من الصدر الأعظم، وشيخ

(*) الكيسة والآقجة : مصطلح مالى، يدل على الحافظة التى كانت توضع فيها النقود الذهبية أو الفضية. وكانت تتغير قيمتها من عصر إلى عصر آخر كان يُطلق على العملة التى توضع فى الكيسه إسم الأقچة. وحتى عصر الفاتح كان الفيلورى الذهبى يساوى أربعين آقجة. أول الأمر كان الكيس يساوى ٣٠ ألف أقچة أو ١٠ آلاف دينار ذهب.. ثم بدأت القيمة تتغير وفقاً للوضع السياسى والاقتصادى للبلاد. دخلت كلمة أقچة إلى اللغة العربية بمعنى العمله البيضة «بيضة» أبيض.. ثلاث أبيض.. ألخ..

الإسلام، وأركان الدولة الولائم والحفلات على شرف السفير القادم من بلاد الهند . وقد حضر السفير العديد من مجالس العلم، ومنتديات الشعر، والأدب . وأعدت له الزيارات للأماكن الأثرية، والمتنزهات فى العاصمة . ولم يتم مثل هذا الاهتمام لأى سفير سابق فى إستانبول .

وبعد هذا التاريخ بثلاث سنوات، وعقب الأحداث التى عُرفت فى التاريخ العثمانى بـ« حادثة چنار» وصل إلى استانبول السفير الهندى الجديد فى الحادى عشر من إبريل سنة ١٦٥٦م - ١٠٦٧هـ . وبعد أن قدَّم أوراقه، وهداياه . . مَثَل بين يدى حضرة السلطان فى الخامس عشر من نفس الشهر وسط مراسم كبيرة . وتقدم السفير إلى السلطان بطلب المساعدة العسكرية والموافقة على بناء مسكن للحجاج الهنود فى مكة المكرمة . ومع أن هذه المطالب كلها لم ينظر إليها بعين الرضى والقبول، إلا أن السلطان قد وافق على إرسال مهندس معمارى تركى إلى مدينة أحمد آباد لإستكمال قبة « نورماحال » .

ومن الأحداث المهمة التى شهدتها إستانبول سنة ١٦٥٦م - ١٠٦٧هـ هى محاولة إنزال السلطان محمد الرابع عن العرش، وتولية شقيقه سليمان مكانه . وكان وراءهذا التدبير شيخ الإسلام خوجه زاده مسعود أفندى(*) . وإنتهت هذه المحاولة بنفى شيخ الإسلام إلى مدينة بورصه، ثم إعدامه هناك بعد مدة .

أما الخامس عشر من سبتمبر سنة ١٦٥٧م - ١٠٦٨هـ فقد شهد حدثاً سيكون فاتحة عصر جديد فى حياة الدولة العثمانية، ألا وهو تعيين كپريلى زاده محمد باشا(*) صدراً أعظم . فعقب توليه الصدارة كان الصدام على أشده بين المدعيين بالحفاظ على الشريعة، والعودة إلى عصر النبوة من ناحية، ومن ناحية أخرى بين أرباب الطرق الصوفية، وكانت المجموعة الأولى؛ بالرغم من نفوذهم الكبير، فى السراى، وجمعهم لثروات طائلة، والسماح لأنفسهم بالتدخل فى شئوون الحكم، إلا أنهم خرجوا على المجتمع بدعوى العودة إلى بساطة عهد النبوة، وحياة التقشف . وللوصول إلى هذا الهدف لابد من هدم التكايا والزوايا الخاصة بكل الطرق الصوفية فى استانبول، وتجديد توبة كل الدراويش، ومن لا يقبل هذا؛ يُعدم فوراً . وإجتمعوا فى جامع الفاتح لهذا الغرض .

وما أن سمع الصدر الأعظم بهذا، حتى طالبهم بصرف النظر، والبعد عن اللعب بالأمور

(*) شيخ الإسلام خوجه زاده مسعود أفندى: وفاته ١٦٥٦م = ١٠٦٧هـ هو شيخ الإسلام السادس والثلاثين فى الدولة العثمانية . معلم السلطان أحمد الأول . ووالده الإمام مصطفى أفندى الآيدينلى . لا يعرف بالضبط تاريخ، ومكان ميلاده . بعد أن أتم تعليمه تولى التدريس فى مدارس القسم الخارجى . عُزِل من عمله وهو فى بورصة، تولى مشيخة الإسلام سنة ١٦٥٦م = ١٠٦٦هـ . زج بنفسه فى أعمال السياسة مما أدى إلى قتله سنة ١٦٥٦م = ١٠٦٧هـ . لم تتجاوز مده مشيخته خمس شهور .

الدينية، ولكن تحت إصرارهم على قرارهم أصر الصدر الأعظم على إصدار فرمان بإعدامهم . . وما أن صدر الفرمان حتى إكتفى الصدر الأعظم بنفى قادتهم الثلاثة؛ « استووانى، وترك أحمد، وديوانه مصطفى إلى قبرص . . وإنتهت المشكلة بهذا الشكل، إلا أن هؤلاء الذين لم تعجبهم هذه القرارات، فقد حرضوا قوات الإنكشارية، والسپاهية، وتركوا العنان لأعمال السلب، والنهب . فلم يجد الصدر الأعظم بُداً من إعدام ما يقرب من مائة منهم فى مدينة إستانبول وحدها وتعقب الآخرين.

لم يقف الأمر عند المسلمين، بل تخطاهم، ووصل إلى المسيحيين اليونانيين . . ففى نفس التاريخ، تم ضبط رسالة مرسلة من بطريرك الروم فى استانبول إلى قادتهم، وولاتهم فى الأفلاق يحرضهم على العمل ضد الدولة، والخروج عليها، فتم القبض عليه، ولما إعترف بكتابته لهذه الرسالة لتحريض كل المسيحيين التابعين للدولة العثمانية ضدها، تم شنقه على باب پارمق « پارمق قاپى » . وفى أواخر سبتمبر من عام ١٦٥٧م - ١٠٦٨هـ توفى فى إستانبول كاتب چلبى (*) .

فى الثانى والعشرين من يوليو - تموز سنة ١٦٦١م - ١٠٧٢هـ أعيد بدء البناء فى الجامع الجديد « ينى جامع » بدعم وتأييد من « والده طورخان سلطان » للصدر الأعظم ولتنفيذ ذلك، تم نزع ملكية المساحات التى كانت فضاءاً عقب الحريق الذى التهم الحى اليهودى، والممتدة من حى « خوجه باشا » حتى « تخته قله » . ولكن اليهود الذين إعتبروا أنه « قضاء أسود » بالنسبة لهم، عرضوا عليه رشوة مقدارها مائة كيسه (٥ مليون آقچة) ليصرف النظر عن هذا القرار، إلا أن كپريلى زاده محمد باشا رفض ذلك، وأصر على موقفه، فاضطراليهود إلى بيع هذه الأراضى، وإشترت والده سلطان قسماً منها، وإشترى الآهالى القسم الآخر، ثم شيدت عليها، وحول الجامع، فيما بعد المبانى الجميلة، كالأسواق، والمدارس، والمدافن ودار للقراء، وسبيلين للمياه . وصدرت الأوامر بإنشاء قصر يطل علي البحر . وتم إفتتاح هذا الجامع الجديد . يوم الجمعة الموافق الحادى

(*) كاتب چلبى : (١٦٠٩ - ١٦٥٧م = مفهرس عثمانى عظيم . ولد هذا العالم الجليل، والمفكر الكبير فى استانبول، أصل اسمه « مصطفى » ذهب إلى الحج، ولما كان من طائفة الكتاب عُرف بـ « حاجى خليفة » ونطقها الأوربيون بـ « حاجى قلفه » وهو نجل ضابط من ضباط الخاصة يدعى عبد الله . لم يتم تعليمه المدرسى، والتحق بقلم تسجيل السپاهية فى الأناضول وهو ما بين ١١ - ١٢ من عمره . وقد تابع دروس اشهر علماء استانبول للإستزادة العلمية . حصل على ميراث كبير عقب وفاة اثنين من أقاربه الأثرياء . .بدد معظم هذه الثروة فى شراء أُمهات كتب الأدب، والفكر، والتاريخ والمخطوطات . كوّن مكتبة خاصة ضخمة . كان يقضى كل وقته فى القراءة والكتابة . كان أكثر اهتماماته بالتاريخ والجغرافيا، والمالية، والجندية، والبحرية، والتصنيف، والحساب، والطب . . وتعمق فى دراسة كل هذه العلوم . كان يجيد العربية والفارسية، كما كان يعرف اللاتينية والفرنسية بالقدر الذى يمكنه من الاستفادة بهما .له ما يقرب من ثلاثين مؤلفا، أشهرها كشف الظنون بالعربية . وقد حقق فيه ١٤٫٥٠٠ الف كتاب بعشرة آلاف مؤلف . وله فزلكة فى التاريخ العثمانى . وعن البحرية، « تحفة الكبار »، وميزان الحق، وتقويم التواريخ . . ودستور العمل . . وقدترجم معظمها إلى معظم اللغات الأوروبية . « المؤلف »

والثلاثين من تشرين الأول سنة ١٦٦٥م - ١٠٧٦هـ فى احتفال عظيم حضره السلطان ووالده طورخان سلطان - « السلطانة والدة السلطان » وحتى بناء الجامع، كان يُطلق على جامع السلطان أحمد؛ لقب « الجامع الجديد ». ومنذ ذلك التاريخ أصبح هذا اللقب يطلق على هذا الجامع. وسُمى الآخر « جامع السلطان أحمد » فقط، ومازالا هكذا حتى اليوم.

ولإتمام الحرب التى بدأت بسبب فتح جزيرة كريت توجه السلطان محمد الرابع فى الثالث عشر من إبريل سنة ١٦٦٦م - ١٠٧٧هـ إلى أدرنه مغادراً إستانبول. وهو فى مدينة أدرنه أصدر أوامره المشددة بإعادة منع الخمور، وإزيلت كل الحانات الموجودة فى مدينة استانبول أيضاً سنة ١٦٧٠م - ١٠٨١هـ.

وخلال شهر كانون الأول سنة ١٦٧٠م - ١٠٨١هـ دخل الأسطول العثمانى بقيادة القبطان البحرى، قابلان مصطفى باشا إلى مدينة إستانبول وسط طنطنة، وبَهْرَجة زائدة. وبصحبته الأسرى، والسفن، والغنائم الملطية التى غنمها بعد انتصاره فى الحرب. وشهد السلطان خروج المحمل من مدينة استانبول على رأس قافلة الحج. وكان مع القافلة الرحَّالة التركى الشهير أوليا چلبي(*) ومن الأخبار الطريفة التى تعبِّق أجواء مدينة إستانبول؛ ففى الرابع عشر من كانون الثانى ١٦٧٨م - =١٠٨٩هـ وصلها الرسام الهولندى قورنيل ل.بروين . Corneill Le Bruyn. وظل بها حتى نهاية شهر يوليو سنة ١٦٨٨م - ١١٠٠هـ وخلال هذه المدة قام برسم سنة بانورامات « إطلالات » عامة لمدينة إستانبول، وأماكنها المختلفة.

وفى سنة ١٦٧٩م - ١٠٩٠هـ، وجد أحد المارة فى زبالة أكرى قاپى، حجراً مدوَّراً. لمن يكن يعرف قيمته، فبادله بثلاث ملاعق، من بائع متجول لبيع الملاعق الخشبية. ثم اشتراه أحد الصاغة بعشر آقچات، وعرضه الأخير على جواهرجى آخر، وعندما أدرك أنه من الماس عرض أن يكون له نصيب هو الآخر. وصل النزاع الذى نشب فيما بينهما، إلى نقيب الصاغة، فأخذه منهما، بعد أن دفع لكل منهما خمسين ألف آقچة. وصلت الأخبار إلى مسامع الصدر الأعظم عن طريق العسس،

(*) الرحالة آولياچلبى: (١٦١١ - ١٦٨٢ = ١٠٢٠ -١٠٩٤هـ) من أشهر الكتاب الرحالة العثمانيون. ولد فى إستانبول هو ابن صائغ القصر درويش محمد ظلى. تلقى تعليماً خاصاً. ودرس فى المدارس - الكليات. حفظ القرآن، وتلاه. دخل إلى القصر خلال عصر السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) دخل إلى الأندرون - « القسم الداخلى » وبعد دراسة أربع سنوات أصبح سباهياً - خيالاً. رأى الرسول (صلعم) فى منامه، وبدلاً من أن يقول الشفاعة يارسول الله، قال السياحة يارسول الله. « فابتسم له الرسول. ويحكى أن أمنيته قد تحققت. لقد قضى خمسين عاماً من عمره فى السياحة. لم يحدد مكان وفاته هل فى مصر أو فى إستانبول. من أكبر كتاب الرحلات فى الأدب التركى الديوانى. سهل العبارة. سلس الأسلوب، دقيق الملاحظة. كان يستخدم لغة الحديث فى عصره. طبعت رحلته فى عشرة أجزاء. الجزء العاشر يخص مصر. وقد قمت بترجمته وهو تحت الطبع. « المؤلف »

فأراد أن يقتنصه لنفسه، إلا أن السلطان الذى علم بالخبر، ما كان منه إلا أن طلب الحجر بـ(خط همايون شريف » أى بأمر سلطانى . ولما إتضحت قيمته ظهرت أنها ماسة تزن أربعة وثمانين قيراطاً، وضُمت إلى خزينة السلطان .

ومازالت إلى اليوم فى متحف « طوپ قاپى سراى » وتُعرف حتى الآن بـ« ماسة القاشوقچى » أى ماسة بائع الملاعق .

ومن الطرائف، أيضا، أن شاهدت مدينة إستانبول أول حالة رجم . ففى التاسع والعشرين من حزيران - يوليه سنة ١٦٨٠م - ١٠٩١هـ قُبض على زوجة « خفّاف » من الإنكشارية المتقاعدين، وكان يسكن بجوار جامع مراد باشا فى حى «آقسراى»، . . وأحبت المرأة بائع حرير يهودى وقُبض عليهما، وهما فى حالة إرتكاب الجرم . وجاءت شهادة الشهود مؤيدة للخيانة الزوجية . ولما كان قتل اليهودى يتطلب إصدار أمر سلطانى، فكان لابد من عرض الأمر برمته على السلطان، فأصدر الأمر، وأعلن أنه سيحضر بنفسه أمر التنفيذ فى الإثنين . وأقبل السلطان من أسكدار إلى قصر إبراهيم باشا فى (آت ميدانى) مضمار الخيل، وأحضر الزانى ، والزانية إلى هنالك . وقبل اليهودى الدخول فى الإسلام، وبعدها ضُرب عنقه، أما المرأة، فقد دُفنت إلى خِصْرها فى الحفرة المعدة لذلك، ورغم إنكارها للجرم، وصرخاتها المتوسلة، فقد ظل الناس يرجمونها بالحجارة حتى لفظت أنفاسها الأخيرة .

وفى نفس السنة أغلقت محكمة « بالاط » لثبوت عقدها للنكاح بما يخالف الشريعة الإسلامية . وإستخراج حجج منظمة لذلك . وشيد قصر فى حى « أبى أيوب الأنصارى » للسلطانه الوالدة طورخان سلطان وفى الثانى عشر من تشرين الأول، من نفس العام، خرج السلطان من العاصمة إستانبول متوجهاً إلى أدرنه بمناسبة الحصار الثانى لمدينه ڤينا .

شهدت إستانبول فى الرابع والعشرين من حزيران سنة ١٦٨٤م - ١٠٩٦هـ وفاة والدة السلطان، السلطانة الوالدة طورخان، فعم الحزن، ومظاهر المآتم كل أرجاء العاصمة . وكان المدينة لم يكفها هذا الحزن، فقد عادت الجيوش العثمانية بعد أن تعرضت لخسائر فادحة من جراء محاصرة ڤينا الثانية . فقد جاءت الهزيمة قاسية على نفوس أهل العاصمة فلاكت الألسنة السلطان . ووصل النقد إلى منابر المساجد والجوامع ومما زاد من حدة النقد، أن السلطان لم يعبء بمثل هذه الإنتقادات، وكان يخرج كالمعتاد إلى رحلات الصيد مع صحبته وندمائه . وكأنه بذلك قد صب الزيت فوق العيدان المتقدة، فإتحدت جموع العلماء مع بعض من قوات الإنكشارية، وانتهت المعركة بعزل الصدر الأعظم، وتتالت تعيينات، وعزل لعدد من مشايخ الإسلام بسبب محاولاتهم لصرف نظر السلطان - حتى ولو مؤقتاً - عن رحلات الصيد .

السلطان سليمان الثانى: ١٠٥٢ - ١١٠٣هـ = ١٦٤٢ ١٦٩١م

توجه السلطان سليمان الثانى بحراً إلى ضريح أبى أيوب الأنصارى فى الثامن والعشرين من تشرين الثانى سنة ١٦٨٧م - ١٠٩٩هـ لتقلّد السيف، وسط المراسم المعتادة. وعاد بطريق البر إلى السراى، وسط حشود الجماهير. وقد كان المعتاد هو الذهاب براً، والعودة بحراً عبر الخليج الذهبى.

توالت ثورات الجند، بسبب عدم تقاضيهم رواتبهم لمدد طويلة.

توفى سليمان الثانى (١٠٥٢ - ١١٠٣هـ = ١٦٤٢ - ١٦٩١م) فى الثانى والعشرين من حزيران سنة ١٦٩١م - ١١٠٣هـ فى مدينة أدرنة، ويعتبر بعد سليمان القانونى، هو السلطان الذى توفى خارج أسوار العاصمة إستانبول. فتولى السلطة مكانه شقيقه أحمد الثانى (١٠٥٣ - ١١٠٧هـ ١٦٤٣ - ١٦٩٥م)، الذى توفى هو الآخر خارج إستانبول، حيث توفى فى أدرنة أيضاً سنة ١٦٩٥م - ١١٠٧هـ. فتولى مكانه السلطان مصطفى الثانى (١٠٧٥ - ١١١٥هـ - ١٦٦٤ - ١٧٠٣م) ويُعتبر هو أول سلطان تتم له مراسم تولية العرش خارج العاصمة إستانبول.

خلال هذه السنوات سُكّت عملة ذهبية سميت «أشرفى» فى دار سك العملة فى استانبول، وكان عيارها أعلى من عيار العملة المضروبة فى مصر المحروسة. ومن بعد هذا التاريخ بدأت العملة المضروبة فى إستانبول تُبعث إلى مصر، وغيرها من الولايات، والممالك، ولم تكن تستمر طويلاً، فى أيدى الأهالى.

شهدت مدينة إستانبول صراعاً مذهبياً بين الأرمن، حيث ضبطت منشورات تُبشر بالمذهب الكاثوليكى بين الأرمن. وبناءاً على شكوى بسبب قبول هذا المذهب، تدخلت الدولة، وأوقفت طبع هذه المنشورات، وأغلقت المطابع الأرمنية، وتم حبس البطاركة الذين كانوا يقومون بهذه الدعاية.

عندما أبدى السلطان مصطفى الثانى رغبته فى إستمرار إقامته فى أدرنه بدلاً من إستانبول، خلقت هذه الرغبة عدم إستحسان بين أهل المدينة.. ولكن عقب القلاقل وحركات العصيان، تم خلعه فى الثالث والعشرين من أغسطس سنة ١٧٠٣م ١١١٥هـ. وتولية أحمد الثالث (١٠٨٤ - ١١٤٩هـ) = ١٦٧٣ - ١٧٣٦م. مكانه وتحرك السلطان الجديد من أدرنه متوجهاً إلى العاصمة فى شهر سبتمبر. وفى حى داوود باشا، بقى السلطان يوماً، وبعث بالسلطان القديم مصطفى الثانى، وأولياء العهد الأربعة، والسلطانة الوالدة إلى سراى طوپ قاپى، وتوجه هو فوراً نحو ضريح أبى أيوب الأنصارى لإجراء مراسم توليه العرش.

وفى الحادى والعشرين من إبريل سنة ١٧٠٤م - ١١١٦هـ إنتهى العمل فى قصر والده سلطان الذى أمر بإقامته البادشاه فى الجناح الخاص بها فى السراى. كما تم إفتتاح قصر غلطه الذى إنتهت عملية ترميمه فى السابع من كانون الثانى سنة ١٧١٥م - ١١٢٨هـ.

لقد شهدت العاصمة إستانبول ظهور أول مكتبة عامة إفتتحت للقراء فى الرابع والعشرين من تشرين الثانى سنة ١٧١٩م - ١١٣٢هـ حيث أمر السلطان أحمد الثالث ببناء مكتبة فيما بين قاعة الإستقبال والجناح الداخلى لمدرسة الأندرون بالسراى الهمايونى، وأهداها كتبه الخاصة، والكتب الأخرى التى تجمعت وكانت مهملة فى السراى.

وبهمة الصدر الأعظم نوشهيرلى داماد إبراهيم باشا تمت عمليات ترميم، وتجديد السرايات الموجودة فى حدائق «بشيكطاش» و«ضولمه باغچه». وأقيمت أفراح عامة، شملت العاصمة كلها بسبب حفلات الختان التى تمت للأمراء الأربعة ولم تكن قد رأت مثيل لها منذ أمد بعيد. وخلال هذه الاحتفالات تم ختان إبن الصدر الأعظم، وما يزيد عن خمسة آلاف طفل معهم وكانت هذه هى المرة الأولى التى تشهد فيها العاصمة هذا الختان الجماعي. وخلال هذه المدة أيضا، تم عقد قران، وزفاف إبنة السلطان مصطفى الثانى «السلطانة أمة الله» إلى والي الموصل «سيركه عثمان باشا»، وسط مظاهر الثراء، والبذخ الزائد..

وإعتباراً من عودة السلطان أحمد الثالث إلى إستانبول وقد بدأ عصر جديد فى حياتها.. كان هذا العصر هو عصر تضميد الجراح التى أعقبت الحروب، والثورات والقلاقل. كان عصر التطور المادى الذى نتج عن سنوات السلام. عصراً كله بهجة، وسروراً بالنسبة للعاصمة إستانبول. ظهرت فيها حدائق اللاله =«التلب» - «الشقائق النعمانية» فى كل الأحياء.. وأقيمت اللاله - لهذه الزهرة المسابقات، والمهرجانات، وتم استنباط أنواع جديدة منها، بل وتم إستيراد أنواع أخرى منها من هولندا. وقد أطلق المؤرخ الكبير أحمد رفيق(*) على هذا العصر «عصر اللاله»(*).

(*) أحمد رفيق: (١٨٨٠ - ١٩٣٧) مؤرخ، قام بتدريس التاريخ واللغة الألمانية فى الكليات العسكرية. يُعتبر من أهم الكتاب الذين ربطوا بين التاريخ والأدب. من أهم أعماله: لاله دورى «١٩١٢». حياة إستانبول فى القرن العاشر الهجرى ١٩١٤، حياة إستانبول فى القرن الحادى عشر الهجرى ١٩٢١، العلماء والفنانين ١٩٢٢. الأتراك وجهاً لوجه مع بيزنطه ١٩٢٧. طورخان والده ١٩٣١ التاريخ والمؤرخون ١٩٣٢.

(*) عصر اللاله: Lâle Devri (١٧١٨ - ١٧٣٠م) اسم يُطلق على فترة السفه والإسراف والبزخ الذى عرفتها إستانبول فى عهد السلطان أحمد الثالث. وقد عرفت هذه الفترة فى التاريخ العثمانى على أنها فترة مرح، وفرح، وبهجة. وتبدأ عقب اعتلاء نؤشهيرلى داماد إبراهيم باشا الصدارة. وتنتهى هذه الفترة بإعدام پاترونا خليل. وعصر اللاله هو عصر إعادة ترميم إستانبول. وتشييد العديد من القصور والعمارة الجميلة وتجملت فيها شواطىء إستانبول بالقصور والمصايف.. وظهرت مصاحبات الحلوى فى الشتاء، ومسابقات السلاحف فى الصيف.. وكانت حفلات اللهو لا تنقطع ليلاً أو نهاراً من بيوت الأغنياء. ومن بين المسابقات التى استحدثت خلال هذه الفترة تسابق السلاحف وعلى ظهورها الشموع بين أغصان زهرة اللإله. وتعزف المعازف، والألحان لمصاحبة المغنيين. كانت تقام الموائد، ويُشرب الشراب حتى الصباح. وقد خلق هذا السفه حالة من الغضب والاشمئزاز بين الشعب. إلتف الكثير حول أنصار پاترونا خليل، وأعدموا داماد إبراهيم باشا. وآبعد السلطان أحمد الثالث عن العرش. «المؤلف».

شهد حى كوچوك مصطفى باشا فى السادس من تموز سنة ١٧٢١م - ١١٣٢هـ حريقاً، وصل إلى مشارف جامع السلطان سليم، وقد استخدمت لأول مرة فى العاصمة إستانبول طلمبات إطفاء الحرائق، وقد أمكن إخماد النيران فى ظرف ساعتين فقط.

وفى أغسطس من نفس العام شب حريق آخر، كان من خسائره إحتراق معبد چاويش، ومدرسته، وكُتَّابه، وسبعة أفران، وسبع طواحين، وأربعة معامل صناعة زيوت، ومائة وعشرين دكاناً، وعشرين منزلاً للمسلمين، وسبعين لليهود، وأربعين للمسيحيين ودمرت الحرائق تماماً جامع حاجى عيسى، وأحد عشر منزلاً للمسلمين، وثمانية للمسيحيين، وثلاثة معابد يهودية. وكلها فى نفس الحى.

وتأخرت عملية الإطفاء لعدم توافر هذه الطلمبات. وتداخل البيوت الخشبية فى بعضها البعض.

وخلال هذه الفترة أيضا مُنع إستخدام الأفيون منعاً باتاً، وكان يتم نفى المتعاطى، أو المتعامل به. كما أعيد إحياء صناعة الخزف بعد إهمالها سنوات طويلة، وذلك بإفتتاح مصنع لها فى سراى تكفور. وأصدر السلطان أوامره بإعادة ترميم الأجزاء الخربة فى أسوار المدينة، وبناء جامع، ومدرسة، وحمام، ودكاكين مكان القصر الخرب فى حى بيك على شاطىء البوسفور. وأطلق على هذه العمليات «همايون آباد» أى إعمارات السلطان. وبيعت مجموعة من الأراضى فى الجبال المحيطة للآهالى فظهر حى جميل، وبهيج فى زمن قصير. وما هى إلا بضع شهور حتى ظهر قصر «نشئت آباد» على الشاطىء بجوار جامع الدفتردار.

وكان عام ١٧٢٦م - ١١٣٩هـ هو عام ظهور المطبعة التركية فى العاصمة على يد سعيد أفندى وإبراهيم متفرقة(*) وقد تمت بدعم وتأييد من السلطان وشيخ الإسلام الذى أصدر فتوى تُفيد بأن الإسلام لا يمنع، بل يشجع على التقدم. وتمت سنة ١٧٢٧م = ١١٤٠هـ، وطُبع بها أول عمل تركى سنة ١٧٢٩م ١١٤٢هـ. كانت المحاولة الأولى فى العاصمة، أيضاً، لتأسيس تعليم حديث على النمط الأوروبى قد تمت سنة ١٧٢٧م = ١١٤٠هـ حيث تم إنشاء مدرسة = كلية للهندسة العسكرية فى أسكدار. وقد طُبعت لائحتها التى أعدَّها إبراهيم متفرقة بأمر السلطان، ورعاية الصدر الأعظم. .ولم تظل بعيدة عن الهجمات الإنكشارية التى كانت تُعارض مثل هذه المستحدثات العسكرية.

وإذا كان الحريق الذى شب بالمدينة فى السابع والعشرين من تموز سنة ١٧٢٩م =١١٤٢هـ قد آتى على ثمن آحياء المدينة، وكان من أشنع ما رآت العيون فى السنوات الأخيرة. وأكملت ثورة «باترونه خليل» على البقية الباقية من رونق المدينة فى نفس السنة، والتى إنسحب فيها السلطان أحمد الثالث من السلطنة. وفقد النوشهيرلى داماءِ ابراهيم باشا حياته خلال هذه الأحداث ومات الشاعر المشهور نديم (*) خلالها أيضاً. زادت حركة العصيان، وهرب الذين لا علاقة لهم بها إلى الجزر القريبة المحيطة بالمدينة، وخاصة من غير المسلمين. وأتى الثوار بمحمود الأول (١١٠٨ - ١١٦٨هـ = ١٦٩٦ - ١٧٥٤) إلى العرش وسط جو مشحون بالقلاقل، وإمتناع الحرفيين، والمهنيين، والتجار من ممارسة أعمالهم خوفاً على حياتهم.

السلطان محمود الأول (١٦٩٦ - ١٧٥٤م = ١١٠٨ - ١١٦٨هـ) (*)

تمنطق السلطان الجديد سيف السلطنة حسب الآعراف المرعية فى السادس من تشرين الأول سنة ١٧٣٠م =١١٤٣هـ. وكان أول عمل يقوم به هو التنكيل بالعصاة، والمخربين. وقد إنضم الشعب إلى جانب القوات الخاصة بالسلطان فى عملية التنكيل إنتقاماً للآضرار التى لحقت بأفراده، والخراب الذى آصاب المدينة. وإمتدت حراكات التنكيل، والتطهير إلى كل المفسدين حيث جُعموا فى جامع بايزيد، وأقتص منهم. وتم منع السيدات من إرتداء الملابس التى تُحرك غرائز الرجال بدعوى «الموضة»، والسيربها فى الشوارع إعتباراً من شهر كانون الثانى سنة ١٧٣١م =١١٤٤هـ. وشهدت العاصمة فى عهد هذا السلطان المحاولة الثانية لإنشاء تعليم عسكرى حديث وذلك بإنشاء كليات لتخريج ضباط جدد للجيش الجديد. .إلا أن هذه المدارس العليا أُغلقت أيضاً تحت وطئة ضغوط

(*) الشاعر نديم: من شعراء الديوان، ولد فى إستانبول، وتوفى بها سنة ١٧٣٠م. بعد أن أكمل تعليمه وتعلم العربية اشتغل بالتدريس، لفت أنظار الصدر الأعظم الداماد إبراهيم باشا بنشاطه الأدبى والثقافى، فكلفه بترجمة بعض الأعمال التاريخية من العربية إلى التركية. وعمل فترة ما كأمين لمكتبة الصدر الأعظم الخاصة. وقُتل سنة ١٧٣٠م خلال ثورة پاترونه خليل. وهو من أشهر شعراء عصر اللاله، وانتشرت أشعاره فيما بين سنة ١٧١٨ - ١٧٣٠م

(*) السلطان محمود الأول: ١٧٣٠ - ١٧٥٤م: ولد فى إستانبول سنة ١٦٩٦م فى الثانى من أغسطس. والدته صالحه سلطان وكانت محبة للخير. وقد أمرت ببناء العديد من أسبلة المياه. وأجرت عيون المياه فى العاصمة. وشيدت جامعاً فى أسكدار. تولى السلطة فى الثالث من أكتوبر سنة ١٧٣٠م. وقضى على أنصار العاصى پترونه خليل فى ١٥ / ١٢ / ١٧٣٠م فى ١٩ تموز سنة ١٧٣٣م خرج إلى حرب بغداد. واستولى على قلعة بلجراد فى الأول من سبتمبر سنة ١٧٣٩م ولكنه عقد الصلح معهم ومع الروس والنمساويين سنة ١٧٣٩م أيضا شهد عصره تولى مجموعة كبيرة من الصدور العظام، فلم تكن تطول المدة بأحدهم. فى عصره احترقت إستانبول فى ٤ فبراير سنة ١٧٤٧م فيما سمى بالحريق الكبير. وفى الثالث من سبتمبر سنة ١٧٥٤ شهدت العاصمة فى عصره أيضا زلزالاً مدمراً مما أصاب قباب جوامع آياصوفيا، وبايزيد، والفاتح بخسائر فادحة.

الإنكشارية، وممارساتهم الاستفزازية. كما أن السلطان محمود الأول قد أصدر أوامره للسراى ورجالات الدولة بتقديم الكتب التى كانت تهدى إليهم إلى مكتبة الآيا صوفيا وقد بادر هو نفسه بذلك، وأمر بإنشاء مبانى ملحقة، وقام بإفتتاحها وزيارة المكتبة فى الحادى والعشرين من كانون الأول سنة ١٧٤٣م = ١١٥٦هـ.

ويعتبر السلطان محمود الأول؛ هو أول من أقام خارج سراى طوپ قاپى حيث بدأ يُقيم فى سراى بشيكطاش على ساحل البوسفور إعتباراً من التاسع من إبريل سنة ١٧٤٨م =١١٦١هـ. وفى التاسع عشر من كانون الثانى سنة ١٧٤٩م =١١٦٢هـ تم وضع حجر الأساس لجامع « نورعثمانية » وأُتم البناء، وفُتح للعبادة إعتباراً من الثامن من كانون الأول سنة ١٧٥٥م =١١٦٩هـ فى عهد السلطان عثمان الثالث (١٧٥٤ - ١٧٥٧م = ١١٦٨ - ١١٧١هـ) والذى تولى العرش فى الثالث والعشرين من كانون الأول سنة ١٧٥٤م =١١٦٨هـ. ووافقته المنية فى الثلاثين من تشرين الأول سنة ١٧٥٧م =١١٧١هـ.

وعقب تولى مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤م =١١٧١ - ١١٨٨هـ) السلطة فى الثامن من تشرين الثانى من نفس العام حسب الأصول المرعيَّة فى ضريح أبى أيوب الأنصارى، أصدر فرماناً، بضرورة محافظة الأرمن، والروم، واليهود الذين يعيشون فى إستانبول على قيافاتهم =ملابسهم القديمة. وفى العاشر من ابريل سنة ١٧٦٠م =١١٧٤هـ، تم وضع حجر الأساس لجامع « لاله لى ». وكذا، وضع الصدر الأعظم راغب باشا حجر الأساس للمكتبة، والمدرسة الإبتدائية فى « قوقصة »، وقد تم إفتتاحهما للعمل، والخدمة فى الثانى من مارس سنة١٧٧٣م = ١١٨٧هـ

وقد شهد عهد مصطفى الثالث صدور أول براءة = شهادة للإمتيازات، والإعفاءات الممنوحة للبنادقة فى مصر فى الثالث عشر من إبريل سنة١٧٦٣م =١١٧٧هـ

وعقب وفاة مصطفى الثالث فى الحادى والعشرين من كانون الثانى سنة ١٧٧٤م = ١١٨٨هـ؛ إعتلى العرش السلطان عبد الحميد الأول (١١٨٨ - ١٢٠٤هـ = ١٧٧٤ - ١٧٨٩م) بالطرق المعتادة وظل فى الحكم خمسة عشر عاماً، شهدت إستانبول فيها العديد من الحرائق، وكان أشهرها حريق « جبالى » الذى أتى على حوالى مائتين ألف منزل بالمدينة. إلا أنه رغم هذه الظروف الصعبة أدرك بسرعة، ضرورة الإصلاحات، وقد إعتمد فى ذلك على رجال تولوا منصب الصدر الأعظم يتميزون بالكفاءة، ويشاركونه مفاهيمه. وقد كرس جهوده بعد معاهدة « كوچوك قاينارجه » لإنشاء مدفعية، وبحرية جديدتين بالكامل. وإعادة تنظيم القوات التقليدية للجيش.

تتزايد ضغوط كاترين الثانية، وتفصح عن نواياها بالتدخل فى شؤون خانية القرم، وإزالة دولة غيراى، وتنصيب شاهين غيراى. وتجبر السلطان على توقيع معاهدة أيْنَالى قواق فى يناير ١٧٨٤م = ١١٩٩هـ. وقد أدت هذه الضغوط الروسية إلى تولى حزب الحرب فى إستانبول مقاليد السلطة

بتعيين الصدر الأعظم يوسف باشا قوجه ، وإرتقاء سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧م = ١٠٤٢ - ١٢٢٢هـ) مقاليد السلطنة، فى الثالث عشر من ابريل سنة ١٧٨٩م = ١٢٠٤هـ.

سليم الثالث (١٢٠٢ - ١٢٢٢هـ = ١٧٨٩ - ١٨٠٧م) (*)

لقد أبدى سليم الثالث أكثر مما أبداه محمود الأول، وعبد الحميد الأول إصراراً، وعزماً على مواصلة تحديث الدولة العثمانية، فإلى جانب التجديدات العسكرية فى الجيش العثمانى، فإنه يحاول تكوين دراية وخبرة بنظم الحكم الحديثة فى الدول الآخرى؛ وخاصة فى فرنسا، وذلك بسبب النشاط، والفعاليات التى يقوم بها فى استانبول الفنيون الفرنسيون، كما أنه أول سلطان عثمانى يرسل سفراء دائمين إلى العواصم الأوروبية الكبرى . .

ولم ينس سليم الأول المكانة التى للجيش؛ فكان النظام الجديد والذى حاول أن يقره بشتى الطرق فى المدة ما بين ١٧٨٩ - ١٨٠٢م = ١٢٠٢ - ١٢١٧هـ. واستنفر لذلك كل طاقاته.

أما الإصلاحات المدنية فهى أقل عمقاً بكثير، فهى تدخل ضمن إعادة تنظيم خدمات الشئوون المالية، وتزويد المدن، وعلى رأسها العاصمة بالمنتجات الأساسية . وإلزام الفلاحين النازجين إليها بالعودة إلى قراهم، ومراعاة التقاليد، فيما يتعلق بارتداء الملابس بالنسبة لمختلف فئات السكان .

تزايدت الضغوط، والتهديدات من قبل الروس، والإنجليز على السلطان، فهم لا يرتاحون إلى إتساع النفوذ الفرنسى فى استانبول، مما دفع بالإنجليز أن يدفعوا بإسطولهم للقيام بتظاهرة أمام العاصمة، قبل أن يتجه نحو مصر فى مارس سنة ١٨٠٧م = ١٢٢٢هـ.

وحين كان السلطان سليم الثالث يستعد للمناورة، فإذا به يواجه بتمرد مفاجىء، نشب فى صفوف الإنكشارية المتمردين على ضباط الجيش الجديد، ويتردد سليم فى إستخدام القوة، فيزحفون على القصر، فيدخلونه، وينضم إليهم المعارضون من كل الطوائف . .فالمطلوب هو الغاء الإصلاحات، ثم خلع السلطان، فيتخلى السلطان سليم الثالث عن الدفاع عن نفسه، ويتنحى تاركاً العرش لمصطفى الرابع (*) ابن عمه فى التاسع والعشرين من مايو سنة ١٨٠٧م = ١٢٢٢هـ.

(*) سليم الثالث : ١٧٨٩ - ١٨٠٧ - : تولى السلطنة العثمانية فى السابع من إبريل سنة ١٧٨٩م قضى أوائل فترة السلطنة فى هزائم وتقهقر مستمر. أقام النظام الجديد فى تشكيلات الجيش ١٧٩٣م. عارض بشدة حملة نابليون بونابرت على مصر سنة ١٧٩٨م. وأعلن الحرب على فرنسا. كان يتردد على تكايا المولوية ويسعى للقاء الشاعر المولوى الشيخ غالب الذى توفى ١٧٩٩م وافق على تعيين محمد على باشا والياً على مصر فى ٨ يوليو ١٨٠٥م فى سنة ١٨٠٦م عين إبراهيم حلمى باشا صدر أعظم، فى ٢٢ من ديسمبر سنة ١٨٠٦ أعلن الحرب على روسيا. وعقب تسلم الإنجليز لمدينة الاسكندرية إندلعت ثورة قاباقچى مصطفى فى الخامس والعشرين من مايو من نفس السنة، وفى التاسع والعشرين من نفس الشهر أنزل السلطان سليم الثالث عن العرش، واعتلى مكانه مصطفى الرابع .

وتتعرض التجديدات التى شهدتها العاصمة لهزة عنيفة، بل للإلغاء فى عصر مصطفى الرابع (١٨٠٧-١٨٠٨-١٢٢٢-١٢٢٣هـ) الذى لم يبد أى قدر يذكر من قوة الشخصية. ويجرى رد الإعتبار إلى المؤسسات والقوانين السابقة.

وفى الثامن والعشرين من يوليو = تموز سنة ١٨٠٨م = ١٢٢٣هـ. وصل علمدار مصطفى باشا بجيش الروميلى، وهاجم السراى، والباب العالى. قاصداً إعادة سليم الثالث إلى الحكم. ولكن كانت القوات المعارضة قد تمكنت من قتل السلطان القديم سليم الثالث وبذلك أصبح محمود الثانى (١٧٨٥-١٨٣٩م = ١٢٠٠-١٢٥٥هـ) هو السلطان. وفى التاسع من تموز تقام جنازة مهيبة فى استانبول للسلطان سليم الثالث. ونُفِّذ حكم الإعدام فى القتلة.

السلطان محمود الثانى :(١٢٠٠-١٢٥٥هـ = ١٧٨٥-١٨٣٩م) (*).

أتم السلطان محمود الثانى مراسم إعتلاء العرش، فى الثالث عشرمن سبتمبر من نفس العام. ولأول مرة، فى التاسع والعشرين من نفس الشهر يعقد إجتماعاً فى قصر جاغلايان مع أعيان ضواحى إستانبول، ويطلب منهم تعهدات مكتوبة، يتعهدون فيها بإستمرار طاعتهم للسلطان، ويتم تبادل التوقيعات على هذه التعهدات. وكانت إستانبول بذلك لأول مرة تشهد مثل هذا الإتفاق بين السلطان، ورعيته.

لابد - بلا أى جدال - من إرجاع التدشين الحقيقى للإصلاحات فى الإمبراطورية العثمانية إلى السلطان محمود الثانى، فعلى مدار عهده (١٨٠٨-١٨٣٩) وهو يعمل على إنتهاج سياسة ترمى إلى تجديد النظام الإدارى المتكلس للدولة. وأدخل تغييرات هامة فى الجيش. .ويرجع له الفضل الأعظم فى إعداد مرسوم الإصلاحات الأول (كَلخانه خط شريف)(*)، والذى لم يعلن إلا بعد موته بأربعة شهور.

(*) السلطان محمود الثانى ١٢٠٠-١٢٥٥هـ-١٨٠٨-١٨٣٩م والده هو السلطان عبدالحميد الأول، والدته هى نقشديل سلطان، كان ميلاده ٢٠/٧/١٧٨٥م. تولى عرش السلطنة ٢٨/٧/١٨٠٨م. وكانت وفاته ١/٧/١٨٣٩م.عقب توليه السلطة عين علمدار مصطفى باشا كصدر أعظم. ولكن الإنكشارية قتلوه فى عصيانهم، فعين مكانه مميش باشا. ولكنه فى سنة ١٨١١م عين لاظ أحمد باشا مكانه. تمكن سنة ١٨١٢هـ من استرداد المدينة من أيدى السعوديين.وفى سنة ١٨١٣م استرد مكة المكرمة من أيديهم أيضاً، وبهذا أخذ الحجاز من أيدى السعوديين مرة أخرى. كثُر فى عهده تغيير الصدر الأعظم. عاصر عهده ثورة اليونان سنة ١٨٢١م واعلنوا استقلالهم عن الدولة العثمانية سنة ١٨٢٢م ولكنه تمكن من إعادة فتح أثينا سنة ١٨٢٧م، وفى نفس السنة تم اغراق الأسطول العثمانى فى نوارين. وفى سنة ١٨٢٨ اعلنت الحرب على روسيا، وتم تعيين رشيد محمد باشا صدر أعظم وفى سنة ١٨٣٨ تم تغيير هذا المنصب إلى مسمي «باشوكيل» أى رئيس الوزراء. وفى شهر تموز توفى السلطان محمود بمرض السل.

(*) كَلخانه خط شريف - كلخانه خط همايون مصطلح ادارى، أطلق على البيان الذى ألقى فى حديقة كَلخانه، =

إن السلطان محمود الثانى الذى تولى العرش وهو فى الثالثة والعشرين من العمر. بعد أن استتبت به الأمور ونجح فى تدعيم أركان عرشة، نظر حوله، فوجد أن والى مصر محمد على باشا قد سبقه فى مضمار الإصلاحات، وأنه يحقق النصر تلو النصر بهذه الأنظمة الجديدة، ويؤلف جيشاً قومياً قوامه المصريين، ويدربه ضباط أجانب ويستعين به فى حروبه، فيعينه فى بادىء الأمر. فاخذ قراره بالاقتداء بما نجح فيه محمد على فى القاهرة (١) .

تتالت الآحداث التى شهدتها العاصمة إستانبول على هذا الدرب من العمل؛ فيتم الإلغاء الرسمى لفيلق الإنكشارية، والسياهية، ويجرى إعتقال، وإعدام القادة. والزعماء، وكذا زعماء الطريقة البكداشية. كما يجرى القضاء على جميع القوى، والأجهزة المرتبطة بالإنكشارية بما سُمى فى التاريخ العثمانى بـ « الوقائع الخيرية » . وتوالت الإصلاحات، وليس هناك ما يدعو إلى الشك فى نوايا محمود الثانى الإصلاحية ولا فى قدراته على تحقيقها. وإذا كانت الإصلاحات العسكرية قد سادت خلال الجزء الأول من السلطنة، فإن الجزء الثانى؛ قد تم تكريسه للإصلاحات المدنية بوجه خاص.

ومن الطرائف والغرائب التى شهدتها العاصمة إستانبول؛ إعصاراً مدمراً أتى على معظم سواحل « قرة آغاج » و« قاسم باشا » و« بلاط » و« فنار » . وأغرق العديد من وسائل النقل البحرية. وكذلك ظهور بعض الملابس الغريبة، والتى لم يعهدها آهالى إستانبول، واعتاد بعض آصحاب الوظائف على إرتداءها، وتركوا ملابسهم التقليدية، فما كان من السلطان إلا أن أصدر أمراً بمنعها، كما أصدر فرماناً يحتم على كل صاحب بيت أن يهتم بنظافة بيته، ورفع الذبالة والمخلفات، وجاء هذا الفرمان عقب الوباء الذى إنتشر فى العاصمة إستانبول، إثر وصول بعض السفن التجارية الوافدة إليها من إزمير. كما وصلت إلى استانبول عن طريق البحر هدية والى مصر محمد على باشا؛ والتى كانت عبارة عن فيل سودانى ضخم ومن المنشآت التى شهدتها إستانبول خلال هذه المدة؛ إعادة بناء مبنى « الباب العالى »، ومعسكرات « جبه جيلر » وبناء الجامع الذى سمى « جامع هدايت »

= وبه كانت بداية الفترة التاريخية التى اصطلح على تسميتها بفترة التنظيمات فى التاريخ العثمانى. وقد قرأه مصطفى رشيد باشا نيابة عن السلطان أمام جمع غفير من السفراء ورجالات الدولة ومنذ ذلك التاريخ (١٢٥٥هـ-١٨٣٩م) وحركات التجديد والتغريب تجرى على قدم وساق فى كل مناحى الحياة فى العاصمة. وبهذا الفرمان وضحت بشكل قاطع حقوق الرعيّة، وتمت المساواة بين أفراد الشعب من ناحية الضرائب، والواجبات والحقوق العامة. كما كان نقطة انطلاق فى تجديد أشكال الأدب وعالم الطباعة والصحافة، والترجمة، والفنون المسرحية بكل اشكالها. وقد التزم السراى بالأحكام التى وردت به فى معظم الفترات، ولكن التدخلات الأجنبية، والرغبة الملحة فى القضاء على الرجل المريض قد أنهت الحياة تماماً فى الدولةالعثمانية.

(١) تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢٨ وما بعدها.

ومن محدثات هذه الفترة فى إستانبول؛ عندما تم ضبط بعض الجواسيس الذين يتخفون بالملابس التركية الإسلامية عقب حرب المورة، وضعت اللوائح التى تُنظم الدخول والخروج منها، وأن يحمل المترددون على المدينة تذكرة دخول مختومة. كما تم وضع موظفين لتفتيش الداخلين عند مداخل «كوچوك چكمجة» وكوبرى «بوستانجى». وتم منع مَنْ لا يحملون مثل هذه الوثائق الموثقة، والمصدق عليها من الدخول إلى العاصمة.

وقد صدرت الفرامانات التى تمنع الإسراف فى ملابس الفراء على غير الوزراء، والعلماء، وعدم إستخدام الذهب، والفضة إلا فى الزينة النسائية..وعدم إستخدام هذه المعادن فى الأسلحة، أو أطقم الكتابة.

وقد تم إستخدام المدافع للإعلان عن الإفطار، والإمساك فى رمضان وكانت تُطلق من قلعة الروميلى، وإعتباراً من سنة ١٨٢٤م = ١٢٤٠هـ، تم إطلاق مدافع آخرى من قلعة الآناضول، ومن برج «يدى قوله». وصارت عادة منذ ذلك التاريخ.

كما شهدت إستانبول إنشاء، وتكوين أول «محفل ماصونى» سرى، على يد اسماعيل فروخ أفندى وقد إنضم إلى هذا المحفل بعض الكتاب، والأدباء المعروفين آنذاك؛ أمثال: كتخدازاده الباشيكطاشى، والشاعر فهيم أفندى (*) متخصص اللغة الفارسية وآدابها، وملك باشا زاده عبد القادر وجيغا لازادة طاهر بك وغيرهم من أرباب الفكر والفلسفة. وإتخذ المحفل من قصر اسماعيل فروخ أفندى الموجود فى «اورطه كوى» مركزاً. وكان المنضمون إلى المحفل يجتمعون مرة، أو مرتين أسبوعياً، ولا يسمحون قط لغير الأعضاء بالحضور. وبناءاً على إخبارية قد تم وقف نشاط هذا المحفل بنفى كل من إسماعيل فروخ أفندى، وعبد القادر، وطاهر بك. كما نفى بعض زعماء البكداشية أمثال، المؤرخ ورئيس الأطباء شانى زادة . وقد شهدت العاصمة وفاة الخطاط، والرسام مصطفى راقم أفندى قاضى عسكر الأناضول فى شهر مارس ١٨٢٦م = ١٢٤٢هـ. وقد جاء إلى إستانبول وهو صغير السن، وعمل بالرسم والخط. وقد رأى سليم الثالث أعماله عن طريق رئيس الكتاب راتب أفندى الذى كان يشمله بالرعاية، فأمره سليم أن يرسم له صورة. وقد درَّس الخط والكتابة إلى السلطان محمود الثانى، وهو ولى للعهد.

(*) الشاعر فهيم أفندى: من شعراء الديوان (١٦٢٧-١٦٤٨) وقد ولد فى إستانبول، اسمه الحقيقى مصطفى. توجه إلى مصر وهو فى السابعة عشر من عمره مو الوانى أيوب باشا تاركا استانبول. وبعد أن فقد صلته بالوالى بعد فترة عاش فى القاهرة وحيداً معدماً. وعند عودته إلى إستانبول مرض فى الطريق، ومات فى إيلغين. له غزليات، وقصائد كتب نظائر لها شعراء التنظيمات. رغم أنه مات شاباً إلا أن له مكانة بأشعاره وغزلياته فى الأدب التركى العثمانى. «المؤلف»[يبدو أن هذا ليس هو الشاعر المقصود].

لقد شهدت مدينة استانبول سنة ١٨٢٨م = ١٢٤٥هـ إنشاء أول كلية حديثة للطب والجراحة. وتقرر فى نفس السنة لبس الطربوش كزى رسمى للعساكر المنصورة المحمدية، ومنذ ذلك التاريخ بدأ إرتداء هذا الطربوش فى استانبول، والعالم الإسلامى. كما شهدت ظهور أول مصنع للحرير الطبيعى، وإنتقال الصدر الأعظم محمد سليم سرى باشا البندرلى إلى المبنى الجديد للباب العالى، وسط إحتفال بهيج.. وحتى هذه السنة لم تكن ترسانة إستانبول قد عرفت السفن البخارية، ولذا فقد تم شراء سفينة بخارية وإحضرت إلى استانبول خلالها.

ولم تكن الإمبراطورية العثمانية، وعاصمتها إستانبول قد عرفت التلغراف حتى ذلك التاريخ، وعلى أمل تسهيل، وإسراع الإتصال تم لأول مرة إنشاء أبراج تمتد من إستانبول حتى سيليسترا، وتُبعث منها البرقيات التلغرافية. ثم رويداً، رويداً، بدأت هذه التأسيسات تشمل كل آحياء العاصمة، والضواحى القريبة منها.. كما صدرت فى إستانبول لأول مرة جريدة تسمى « تقويم وقائع » سنة ١٨٣١م = ١٢٤٧هـ، وكانت أو جريدة رسمية أسبوعية تصدر فى العاصمة. والسلطان محمود الثانى شخصياً هو الذى وضع لها هذا الإسم. وكان يطبع منها خمسة آلاف عدد [1].

وإرتدت المدينة ملابس العرس لمدة أُسبوع متواصل ١٥ مارس سنة ١٨٣٤م = ١٢٥٠هـ بسبب زفاف شقيقة السلطان الأميرة صالحة على خليل رفعت باشا مشير الطوبخانه العامرة. وقد تم ترميم، وتجديد كل الزوايا، والتكايا، والخانقاوات الموجودة فى إستانبول بهذه المناسبة. كما صدرت الأوامر بتجديد المساجد والجوامع التى تضررت من الحرائق السابقة.

وقد تقرر كذلك تعميم نظام البريد الحديث فى بلدان الإمبراطورية لتَعُم الفائدة لكل المواطنين. وكنموذج تم إفتتاح خط إستانبول إزميت. وعُممت المسافات الكيلومترية المصنوعة من الحجارة. وخلال نفس السنة؛ أُلغى إنتخاب رئيس حاخامية اليهود، وأصبح يُعيَّن من قبل الباب العالى.

وفى سنة ١٨٣٥م = ١٥٢١هـ صدرت الأوامر بتعليق صورة السلطان فى كل الدوائر الحكومية، ،وأُقيمت الإحتفالات العسكرية والدينية بهذه المناسبة [2]، ولكن عقب وفاة السلطان محمود الثانى، وبزعم أن ذلك مخالف للشريعة تم تغطية الصور المعلقة فى الدوائر الحكومية.

وخلال نفس السنة سُمح لأركان الدولة، والوزراء، والامراء، وعلية القوم بركوب « الحنطور » الذى كان وقفاً قبل ذلك على السلطان فقط، وقد وُضعت مراسم، وأعراف، وبروتوكول لذلك.

---

(١) M.sertog`lu, Mufassal Osmanli Tarihi, Istanbul 1963, v1 s. 3655 - 3660.

(٢) Lutfi Tarhi, V .s.50

كما صدر الفرمان السلطانى بإنارة كل مآذن إستانبول، ودوائرها الرسمية بالقناديل إبتهاجاً بالمولد النبوى الشريف اعتباراً من سنة ١٨٣٧م = ١٢٥٣هـ

وفى الثالث من تموز = يوليو ١٨٣٩م = ١٢٥٥هـ إعتلى عرش السلطنة السلطان عبد المجيد (*)، الذى لم يكن قد تجاوز السادسة عشر من عمره بعد، وسط مراسم تقليد السيف المعتادة فى ضريح أبى أيوب الأنصارى. وفى السادس والعشرين من شعبان سنة١٢٥٥هـ = الخامس من تشرين الثانى سنة ١٨٣٩م أعلن وزير الخارجية، مصطفى رشيد باشا، فى ميدان كَلخانة، بسراى «طوب قاپى» مرسوم التنظيمات (١) الخيرية.

استانبول والتنظيمات الخيرية: ١٢٥٥ - ١٢٩٥هـ = ١٨٣٩ - ١٨٧٨م

إن هذا المرسوم السلطانى، إنما يشكل إنعطافة مهمة فى تاريخ عاصمة الإمبراطورية، بل الإمبراطورية العثمانية كلها، فهو يمثل نقطة إنطلاق لبرنامج واسع لإصلاحات سوف تؤدى إلى تغيير جذرى، وثنائية ملحوظة فى الحياة اليومية.

إن هذه الحركة الإصلاحية التى عُرفت فى التاريخ العثمانى بالتنظيمات سوف تبلغ أوجها فى إصدار أول دستور عثمانى عام ١٨٧٦م = ١٢٩٣هـ.

يستحق السراى، والدور الذى لعبه السلاطين فى تحريك عملية الإصلاح إشارة خاصة؛ فالتنظيمات جاءت بمثابة ثورة فوقية، ذلك لأن سكان العاصمة من السلاطين الجدد إعتباراً من عبدالمجيد ومَنْ خلفوه، كانوا سلاطين غير شكليين، لم يكتفوا بمجرد البصم على قرارات، أو فرمانات تُعد فى الباب العالى، (٢) مكاتب الصدر الأعظم،

لقد تشرب سكان السراى، ورثة محمود الثانى منذ طفولتهم فن الحكم الجديد، وقد تباهى عبد المجيد الأول عند إرتقاءه العرش بمعرفته المعقولة باللغة الفرنسية، والتميز بتعليم جيد إلى حد ما، يعطى مكانة متساوية فى العاصمة للفنون، والعلوم. .ويتحمس أخوه عبد العزيز الذى يعتلى العرش سنة ١٨٦١م = ١٢٧٨هـ بدرجة كبيرة للروح الأوربية، فيطوف عواصم أُوروباً للزيادة فى التعمق.

(*) السلطان عبدالمجيد ١٨٣٩ - ١٨٦١م = تولى السلطنة ومازال شابًا. تلقى تعليمًا راقيًا وكان يتابع عن كسب ما يدور فى أوروبا من تطور. وكان مثل والده من المتحمسين للتجديد والتطور. والأخذ عن الغرب. هو الذى أصدر فرمان تولية محمد على باشا لولاية مصر سنة ١٨٤١م. للمرة الثانية بعد خروجه من سوريا وعكا. وفى ١٩ تموز سنة ١٨٤٦م استقبل والى مصر محمد على باشا فى استانبول.

(١) Tanzimat . I. Istanbul, 1940.

(٢) تاريخ الدولة العثمانية، جـ ٢ ٦٣٠٢ - وما بعدها.

لعل مراد الخامس الذى يرافق السلطان عبد العزيز فى الجولة الأوروبية، وإندفاعة نحو الغرب، مما جعل العاصمة تفتح أحضانها لعالم الماسونية الحافل بالأسرار، بل يصل الأمر أن ينتسب السلطان نفسه إلى المحفل الشرقى الفرنسى الكبير (١). وهذا فى حد ذاته يمثل حدثاً بالغ الأهمية للسراى، والعاصمة. .فالرهان على الماسونية الفرنسية كان. .فى ذلك الوقت. .إختياراً للعقلانية، وللروح الفولتيرية، ولأفكار الثورة الفرنسية الكبرى؛ كما كان مغامرة بإيلام العالم الإسلامى إيلاماً عميقاً.

والواقع أن عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ - ١٩٠٩م = ١٢٩٣ - ١٣٢٧هـ)، بالرغم من كل الصفات التى ألصقها به المعارضون كالطاغية، والدموى، وظل الله فى الأرض، و«السلطان الأحمر» ما كاد يأخذ مكان أخيه مراد الخامس (١٨٧٦ - = ١٢٩٣هـ) فى آواخر صيف ١٨٧٦م = ١٢٩٣هـ حتى يُصبح واحداً من أكثر أنصار التحديث الذين وصلوا إلى السلطة حماساً. (٢)

إن هؤلاء الذين ورثوا العرش بعد محمود الثانى وقد تمكنوا من أخذ الإصلاحات على عاتقهم، فجعلوا من القصر أحد البؤر الأكثر وضوحاً للتحديث. .وإذا كان السلاطين قد لعبوا دورهم بحماس كواجهة للتنظيمات نجد أن الباب العالى، والوزارات قد شهدت عمليات إعداد المشاريع، وتكوين اللجان، وتحرير مسودات المراسيم السلطانية، وهم بذلك قد احتلوا مكانة لا تقل فى أهميتها عن المكانة التى تخص السلاطين، ولا يمكن أن نمر دون الإشارة إلى مصطفى رشيد باشا (١٨٠٠ - ١٨٥٨م = ١٢١٥ - ١٢٧٥) ملهم مرسوم كَلخانة السلطانى. ولسوف نتناول جوانب كل هذه التنظيمات والتجديدات والإصلاحات فى الجزء الحضارى.

ومما عبّق آجواء تاريخ إستانبول خلال هذه الفترة ما يلى:

لقد استمر الإحتفال بزفاف عديله سلطان الذى بدأ فى السابع والعشرين من إبريل سنة ١٨٤٥م = ١٢٦٢هـ لمدة أسبوع كامل. وكان المكان الذى أُختير للإحتفالات هو مروج حيدر باشا، فأقيمت السرادقات والخيام، وأماكن اللهو والتسلية، كما تم نصب خيمة سلطانية أمام قصر السلطان، وخيام للسفراء وعائلاتهم الذين كان يستقبلهم السلطان. .وتفرج الجميع على البالون الضخم الذى طار به الإيطالى المسمي غوموضعى«Gomosgi» فى سماء إستانبول بهذه المناسبة(٣) وكانت هذه هى المرة الثالثة التى تشاهد فيها إستانبول مثل هذا البالون(*). وقد ظل

(١) المرجع السابق ص ٦٦ . (٢) نفس المرجع، ونفس الصفحة.

(٣) Lutfi. v111. s. 84.

(*) كانت المرة الأولى قد تمت من قبل نفس هذا الشخص، وقد طار بالبالون الذى امتطاه من حيدر باشا، ونزل فى جوار بازاركوى بالقرب من يلوا. وكانت المحاولة الثانية فى ١٧ تشرين الأول سنة ١٨٤٤م = ١٢٦٠هـ وطار من كوچوك تقسيم وهبط فى يشيل كوى. وفى هذه المرة الثالثة طار فوق مدينة استانبول لمدة ساعة، ثم هب إعصار فجرف البالون إلى حيث لا يعرف أحد. «المؤلف»

يحلق فى سماء إستانبول لمدة ساعة بهذه المناسبة . ومن أجل التهنئة بهذا الزفاف حضر إلى استانبول صهر والى مصر محمد على باشا، وقابل السلطان ونال إحتراما مشهوداً. وربما كان توطئه لزيارة والى مصر نفسه محمد على باشا لإستانبول حيث استقبله السلطان عبدالمجيد، عقب وصوله إليها بالباخرة فى آواخر شهر تموز - يوليو سنة ١٨٤٦ - ١٢٦٣هـ . وأقام له السلطان الولائم عدة مرات، فقد استقبلته كذلك، والدة سلطان، وشقيقه السلطان أسما سلطان، واحتفيا به حفاوة بالغة، وقد إنعكس ذلك على بقية أركان الدولة ورجالاتها . وغادر محمد على باشا إستانبول فى العشرين من أغسطس متوجهاً إلى مصر المحروسة .

وقد شهدت العاصمة وفاة الصحفى الإنجليزى شرشل، أول من أصدر جريدة خاصة باللغة التركية فى إستانبول سنة ١٨٤٠م - ١٢٥٦هـ بإسم «جريدة حوادث» جريدة الحوادث، وصدر عددها الأول فى الحادى والثلاثين من يوليو . وكان هذا الشخص، وهو يصطاد فى مكان ممنوع على الأجانب قد قتل طفلاً تركياً . وتم حبسه لهذا السبب، إلا أن السفارة الإنجليزية تدخلت استناداً على الإمتيازات الممنوحة لإنجلترا، وحولتها إلى مشكلة سياسية، تم عزل ناظر الخارجية بسببها، ومُنح تشرشل الإمتياز الذى طلبه لإسكاته .

وحتى سنة ١٨٤٦م - ١٢٦٣هـ كان العبيد والجوارى تُباع وتُشترى كأى بضائع أخرى فى سوق الأسرى . ولكن بأمر السلطان الصادر فى كانون الأول من هذا العام تم وقف بيع العبيد، والجوارى، والأسرى ونُبّه على الأهالى بضرورة صلاة الجماعة فى الجوامع والمساجد القريبة منهم . وفى الحادى والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٤٧م - ١٢٦٤هـ، تم حصر الأطفال الذين يستحقون الختان، وبمناسبة إختتان الأمراء، وأولياء العهد تم ترتيب حفل كبير بهذه المناسبة فى صحراء حيدر باشا . واستمرت هذه الإحتفالات على مدى إثنى عشر يوماً، أختتن فيها الآلاف من الأطفال .

ولم تخل أجواء العاصمة من روائح التعصب، والتخلف آنذاك أيضاً، فتحت إصرار قائد الجيش المتعصب والرجعى الداماد سعيد باشا تم إبعاد مصطفى رشيد باشا ممثل التقدميين فى الثالث والعشرين من إبريل سنة ١٨٤٨م - ١٢٦٥هـ، عن الصدارة العظمى . ومثلَّ سعيد باشا بأنصاره حيث أعدم البعض، ونفى البعض الآخر إلى خارج البلاد . وهكذا تم إبعاد التقدميين عن إستانبول . وتحت وطئة هؤلاء الرجعيين تم إلغاء دروس الرسم من المدارس، بل وصل الأمر فى التفكير فى إلغاء دروس الخرائط، أيضاً، إلا أن عودة مصطفى رشيد باشا إلى الصدارة فى الحادى عشر من أغسطس حال دون استشراء هذه التحركات الرجعية .

شهد التاسع والعشرين من يوليو ١٨٤٩م - ١٢٦٦هـ تمام أعمال الترميم والتجديد فى جامع الآياصوفيا، وإفتتاحه للعبادة، وسط إحتفال دينى عابق بالروحانية، وما هى إلا أيام قلائل حتى

إختتمت أعمال البناء فى جامع « المجيدية » بجوار سراى چراغان، وتمت مراسم الإفتتاح يوم الجمعة الموافق الثالث من تشرين الثانى من نفس العام.

وشهدت العاصمة خلال هذا العام شيئاً مشهوداً، حيث تم الإعلان للشعب عن الأيام، والساعات التى يستقبل فيها الوزراء، ورجال الدولة ، والعلماء المواطنين، وتحددت هذه المواعيد فى المساء، وسميت بالمساعى المسائية « سواريه » Soirée. وبذلك تم الحيلولة دون الزيارات الغير مرتبه، والإزعاج المرهق لرجالات الدولة. وللحيلولة دون تفشى الرشوة تحت مسمى الهدايا، وتم تنظيم لائحة بهذا الصدد. وبأمر من السلطان تم تشكيل « مجلس عمومى » من زعماء طلبة المعاهد، والكليات الشرعية، والعسكرية. وتحدد لهذ المجلس موعداً للإجتماع فى الباب العالى، لمناقشة هذا الإقتراح، وتم قبوله. وفى الحادى عشر من كانون الأول سنة ١٨٤٩م - ١٢٦٦هـ، والمجلس فى حالة الإنعقاد. وصل السلطان عبدالمجيد إلى الباب العالى. واستمع إلى المناقشة والحوار.. وعندما وصل النقاش بالمجتمعين إلى توجيه النداء للمسئولين بالقسم حول عدم قبول الرشوة، تقدم السلطان، ووضع يده على المصحف الشريف، وأقسم بذلك، وتبعه كل رجالات الدولة فى هذا القَسَم.

لم يتوقف السلطان عبدالمجيد عن تفقد أحوال رعيته؛ ففى الثامن من يونيه - حزيران سنة ١٨٥٠م - ١٢٦٧هـ يخرج السلطان، وبرفقته ولى العهد عبدالعزيز، والأمير مراد، وقائد الجيش، ومشير الطوبخانه العامرة، وناظر التجارة، مغادراً إستانبول، متوجهاً إلى بحر ايجه، وجزر البحر الأبيض لتفقد أمورها، وبعد جولة استمرت أربعة وعشرين يوماً بالسفينة الطائف زار خلالها جزر ليمنى Limni، وكَريت Girit، ورودس Rodos، وصاقيز Sakiz، ومرَّ على چشمهçesme، وأزمير Izmir، وغاليبولى، عاد إلى إستانبول، فإستقبله الآهالى فى عرض البحر بكل ما يملكون من سفن، ويخوت، ومراكب شراعية، وقوارب وكان من بين المستقبلين والدته، وبعض أبناءه الصغار، وأركان الدولة. وبعد أن عاد السلطان إلى إستانبول، سعى إلى الإستمرار فى لقاءه بشعبه، ورعيته، وذات يوم، ولنفس الهدف، وصل إلى الباب العالى، وإنضم إلى الاجتماع المنعقد فى قاعة مجلس والا » - مجلس الولاة - وإنخرط فى النقاش مع رجال الدولة، والعلماء. وخرج على رأس الموكب، لتفقد أعمال إمتحانات الرشدية - « الإعدادية » المنعقدة فى مدارس أحياء، داود باشا، وبايزيد، وأسكدار، إلخ، ومنح حوالى خمسين طالباً « نيشان عفارين » أى وسام الإمتياز..!

لم تعدم العاصمة، إهتمامات سيدات السراى بالشئون العلمية جنباً إلى جنب مع الأمور العلمية، والتعليمية والاجتماعية، والبحثية؛ ففى الثامن عشر من يوليو - تموز سنة ١٨٥١م - ١٢٦٨هـ تم إفتتاح « آنجمن دانش » - الجمعية العلمية، وبهذه المناسبة تمت مراسم إفتتاح « القسم الخاص » الذى تم تخصيصه فى المدرسة المسماة « دار المعارف » والتى أمرت بإنشاءه « بزم عالم والده

سلطان » والدة البادشاه بجوار ضريح السلطان محمود . وقد حضر السلطان، وأركان الدولة ورجالاتها هذا الإحتفال . وكان هذا المجلس العلمي = الجمعية العلمية، يضم فى عضويته أربعين عضواً أصلياً وثلاثين مندوباً . وكانت إجتماعاتها تُعقد يوم الأربعاء الأول من كل شهر، وتعتبر أول آكاديمية علمية تركية(١) .

وشهدت إستانبول إفتتاح أول خط تلغرافى يربط بينها وبين أدرنه ووارنا . وكان هذا أول خط تلغراف فى إستانبول وتركيا .

كما شهدت العاصمة حدثاً لم يكن قد حدث من قبل، فخلال الحفل الذى أقامه السفير الفرنسى تووانول « Touvenol » فى السفارة الفرنسية فى إستانبول فى الرابع من فبراير سنة ١٨٥٦م - ١٢٧٣هـ . فوجىء الجميع بحضور السلطان عبدالمجيد، فقد كانت هذه أول مرة يحضر فيها سلطان عثمانى حفل راقص بالو « bálo » . فاستقبله السفير، وجنرالات الجيش الفرنسى الموجودون فى الحفل . . فأدى الجند الفرنسيون والأتراك التحية، وبعد أن إلتقى السلطان مع السفير على إنفراد بعض الوقت، دخل إلى صالون الحفل، وتفرج على الراقصين، ثم ودَّع الحضور، وغادر السفارة .

وفى السابع من كانون الثانى سنة ١٨٥٨م - ١٢٧٥هـ، ودعت إستانبول الصدر الأعظم، وحامى التنظيمات، ومعلنها مصطفى رشيد باشا إلى مثواه الأخير (٢) .

لقد أزكمت رائحة الإسراف الذى استشرى فى آواخر أيام السلطان عبدالمجيد، أنوف سكان العاصمة، فقد تخطى الإسراف كل الحدود الممكنة، وقد استدان القصر، بفوائد مرتفعة من صرافى « بك أوغلى » ،ورهنوا النفيس ، والغالى، الذى ضاع عندما لم يمكن الوفاء بالرهن؛ لقد استدان السلطان مليونين ديناراً عثمانياً ذهبياً عند زواج إبنته فاطمة سلطان . وأثرى الكثيرين من رجالات الدولة مستغلين ضعف السلطان . .وقد أطلت فتنة طائفية بين الجهلة من الرعية، وتأسست جمعية سرية كانت آهدافها التخلص من السلطان بأى شكل، وانتسب إليها العديد من العسكريين والموظفين . .تم الكشف عنها فحُكم على البعض بالإعدام، والبعض بالمؤبد، والبعض بالنفى وما شابه ذلك من العقاب إلا أن السلطان حوَّل آحكام الإعدام إلى المؤبد . .

شهد يوم الجمعة الموافق الثامن والعشرين من يونيه = حزيران ١٨٦١م = ١٢٧٨هـ إعتلاء السلطان عبد العزيز العرش، وتقلد السيف فى ضريح أبى أيوب الأنصارى كالمعتاد، ولكن الذى لم

M. Sertoglu, M. O. Tarihi, v1. s. 3020. (١)

C. Baysun, Mustafa Resid pasâ, Tanzimat, I. s 723 - 746. (٢)

يكن معتاداً هو إلاعلان عن مولد ولى العهد بعد مولده بثلاث سنوات، فلم تكن تقاليد السراى تسمح بأن يُعلن ولى العهد إبوته، وإنجابه. ولما إعتلى عبد العزيز الذى كان ولياً للعرش السلطنة، إعلن عن مولد الأمير يوسف عز الدين. وفى الثالث من إبريل سنة ١٨٦٣م = ١٢٨٠هـ أُعلن عن سفر السلطان عبد العزيز إلى مصر على متن السفينة «فيض الجهاد» مغادراً إستانبول. وحين عودته من مصر مرَّ على إزمير، وأستُقبل عند عودته إلى العاصمة استقبالاً حاشداً، واستمرت الاحتفالات ثلاثة أيام، إبتهاجاً بالعودة الميمونة. .وبالمقابل أصدر السلطان فرماناً برفع التكليف بالخدمة العسكرية عن آهالى مدينة استانبول (١).

وتم إفتتاح كلية للآداب لأول مرج فى استانبول سنة ١٨٦٣م = ١٢٨٠هـ وأعقبها سنة ١٨٦٤م= ١٢٨١هـ مدرسة الفنون، وبدأت لأول مرة مدرسة اللغات لتعليمها لموظفى الدولة بشكل رسمي فى نفس هذه السنة. كما تم إفتتاح كلية الطب المدنية سنة ١٨٦٦م = ١٢٨٣هـ فى العاصمة أيضاً.

وعندما وصل إستانبول والى مصر إسماعيل باشا وبصحبته إبنته المشهورة بجمالها توحيدة هانم، قدَّمها الوالى إلى السلطان وعرَّفه بها. .وقد أراد السلطان عبد العزيز بتأييد من والدته پرتونيال pertevniyal الزواج بها، إلا أن الصدر الأعظم كچه جى زاده فؤاد باشا عارض هذا الزواج لمحاذير سياسية. وتم عزله لذلك(٢).

وبناءاً على دعوة من نابليون الثالث لحضور حفل إفتتاح المعرض الدولى فى باريس غادر السلطان عبد العزيز، وبرفقته ولى العهد مراد، و الأمير عبد الحميد، إستانبول (فى الحادى والعشرين من يونيه سنة ١٨٦٧م = ١٢٨٤هـ بعد أداء صلاة الجمعة)، وبعد أن زار باريس طاف بأوروبا، وعاد إلى العاصمة إستانبول بالباخرة السلطانية فى السابع من آغسطس من نفس العام.

وتم افتتاح مجلس «شورى الدولة» فى العاشر من إبريل سنة١٨٦٨م = ١٢٨٥هـ وإحتفلت إستانبول بهذه المناسبة، وقد مُثِّلت كل الولايات والعناصر والأديان فى هذا المجلس المهم، إلا أنه بعد فترة إنحصرت مهمته على الموضوعات التشريعية فقط.

وتوالت عمليات الإحتفال بتدشين مؤسسات علمية جديدة فى العاصمة بداية من ١٨٦٨م= ١٢٨٥هـ؛ كإفتتاح ثانوية غلطه سراى السلطانية، ومدرسة للفنون للبنات ١٨٦٩م=١٢٨٦هـ، ودار المعلمات ١٨٧٠م = ١٢٨٧هـ ودار الفنون = «العلوم» العثمانية، إلا أنها أُغلقت بعد سنتين.

---

(١) M. s. OSmanli . tarihi v1 3125..

(٢) Ibnulemin Mahmud Kemal, son Sadrazamlar, s. 174.

وشهدت العاصمة وفاة الشاعر، والمترجم والأديب شناسى (*) سنة ١٨٧٠م = ١٢٨٧هـ فى الثالث عشر من سبتمبر.

وقد تم تدشين خط السكة الحديد الذى يربط بين حيدر باشا . وإزميت، ثم خط استانبول - أدرنه - فليبه، وسط إحتفال حاشد، وبهيج. وإعادة افتتاح دار الفنون العثمانية، وكلية لتخريج المتخصصين فى المتاحف . وتم القضاء على الآحداث التى كانت تُشبه الفتنة الطائفية، وكادت تدمر إستانبول لولا أن تصرف السلطان بسرعة، وعزل شيخ الإسلام حسن فهمى أفندى، والصدر الأعظم محمود نديم باشا، وقادة الطوائف المسيحية الآخرى. وكذلك تم نشر الفرمان الذى أصدره السلطان عبد العزيز فى التاسع عشر من مارس سنة ١٨٦٦م = ١٢٨٣هـ للخديوى إسماعيل بشأن إفتتاح قنال السويس.

ومن بين الآعمال المشهورة للسلطان عبد الحميد الثانى الذى تولى عرش السلطنة كالمعتاد فى السابع من سبتمبر سنة ١٨٧٦م = ١٢٩٣هـ هو إعلان المشروطية = «الحياة الدستورية» الأولى وسط طلقات المدافع التى أُطلقت إبتهاجاً بهذا الحدث . ورفضه الكامل لشروط مؤتمر الدول الست الذى استمر انعقاده فى استانبول لمدة تسعة وعشرين يوماً بحجة مناقشة إصلاحات الروميلى، ولكن الهدف الحقيقى من وراءه كان إزلال الإمبراطورية العثمانية . وإنفض المؤتمر، وغادر ممثلو الدول الست استانبول متجهين إلى ديارهم فى الثامن عشر من كانون الثانى سنة ١٨٧٧م= ١٢٩٤هـ. وإذا كان شهر فبراير قد شهد نفى المصلح المجدد مدحت باشا، فإن مارس من نفس السنة قد شهد إفتتاح مجلس المبعوثان الأول. ولكن لم تمض إلا سنة واحدة، وعقب الإنتقاد الشديد الذى وجه إلى سياسة السلطان، حتى صدرت الإرادة السنية بإغلاقه فى الثالث عشر من فبراير سنة ١٨٧٨م = ١٢٩٥هـ وظلت الحياة النيابية، والدستورية معطلة حتى أُعلنت المشروطية الثانية، فى الحادى والعشرين من تموز = يوليو سنة ١٩٠٨م = ١٣٢٦هـ، وتمت الإنتخابات على مرحلتين، وتم إفتتاح مجلس المبعوثان العثمانى الثانى بعد يومين من إعلان الدستور. وإفتتحت كلية العلوم جامعة إستانبول، فى الثالث عشر من ابريل سنة ١٩٠٩م ١٣٢٧هـ.

(*) الشاعر شناس: (١٨٢٦ - ١٣ / ٩ / ١٨٧١م): كاتب، وشاعر.. ولد فى إستانبول، وأتم دراسته بها، انتسب إلى قلم مشيرية الطوپخانه، تعلم العربية والفارسية، والفرنسية. توجه إلى باريس فى بعثة لدراسة المالية سنة ١٨٤٩م إلا أنه اشتغل باللغة، والأدب، والفكر.. تعرف على أدباء عصره مثل موليير، لامرتين.. وترجم عنهم إلى اللغة التركية بعد أن عاد إلى استانبول عمل بعض الوقت فى مالية الطوپخانه، ثم انطلق إلى العمل الأدبى، والتعليمى، والصحفى أصدر (ترجمان أحوال) مع آكاه أفندى سنة ١٨٦٠م. بعد أن توجه إلى باريس للمرة الثانية ترك العمل بالسياسة واتجه إلى الأدب، والترجمة وكتابة المسرح، وبعد أن عاد عمل بالصحافة مرة أخرى. اتسمت أعماله بالجدة، والتجديد، والتنوع، ومثلت أعماله سواء المترجمة أو المؤلفة على مسارح استانبول. ترك بصمات واضحة فى الأدب والفكر التركى الحديث. ولعب دوراً مهما فى إدخال التجديدات إلى الحياة الفكرية التركية. «المؤلف»

تحكمت جمعية الإتحاد والترقى فى مقاليد الأمور السياسية فى العاصمة وخلعت السلطان عبد الحميد الثانى، وتولى السلطان محمد رشاد السلطنة، وتقلد السيف فى ضريح أبى أيوب الآنصارى. وتم حلّ مجلس المبعوثان الثانى فى الثامن عشر من كانون الثانى سنة ١٩١٢م = ١٣٣١هـ.

تسارعت الآحداث فى العاصمة قبيل، وخلال، وبعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨م = ١٣٣٣-١٣٣٧هـ. وحلقت طيارات الأعداء فى سماء إستانبول لأول مرة فى الثانى والعشرين من يوليو = تموز سنة ١٩١٨م = ١٣٣٧هـ وتتالت هجمات الطيران المعادى، وكانت تلقى بالقنابل والمنشورات خلال طلعاتها التى استمرت طوال شهر أغسطس من نفس السنة.

وكما شهد شهر أغسطس هجمات الطيران على العاصمة، فقد شهد هذا الشهر أيضاً، آخر إحتفال بتقلد السلطنة، ومراسم السيف فى العاصمة، بل والإمبراطورية كلها. فقد تمت مراسم اعتلاء السلطان الجديد للعزش فى ٣١ أغسطس سنة ١٩١٨م = ١٣٣٧هـ كما شهدت العاصمة أيضاً، لآخر مرة، مراسم تولى الصدارة العظمى، فى حياة الدولة العثمانية، فى الثالث عشر من تشرين الأول حين تولى توفيق باشا الصدارة للمرة الثانية.

ولم يمض سوى يومان على تولى الصدارة، حتى دخلت أساطيل دول الحلفاء المكونة من خمس وخمسين قطعة بحرية إلى استانبول إنطلاقاً من شروط الهدنة. وفى الخامس عشر من مارس سنة ١٩١٩م = ١٣٣٨هـ، تم القبض على مائة وخمسين من قادة المثقفين الأتراك فى العاصمة، وفى اليوم التالى، دخلت إستانبول جحافل قوات الحلفاء ووضعت آياديها القذرة على كل مقدرات المدينة.

إستانبول العاصمة؛ من الإحتلال إلى الإنهيار:

خفتت الأضواء، وتلبَّدت سماء إستانبول بالغيوم، وتدنَّس تُرابها الطاهر، وتلوثت مياه بحارها، ومضيقها بقوات الآعداء، وسفنها البغيضه. .إستولت قوات الإحتلال على مبانى وزارتى الحربية، والبحرية، ودخلت مفرزاته إلى المخافر، ومراكز الشرطة لتسيير الأمور، وفقاً لقوانين المحتل، وأُعلنت الأحكام العرفية.

وإذا كان السلطان قد أمر بحل المجلس، فإن الإتحاد والترقى بدأت تسير نحو الهاوية، وتم القبض على ستين من زعماءها، كمجرمى حرب، بل وأمر داماد فريد باشا، ممثلاً فى ديوان الحرب الذى شكلته حكومته بإعدام البعض فى ميدان بايزيد.

إنتقلت حركة المقاومة لقوات الإحتلال بثقلها إلى الآناضول يسافر مصطفى كمال باشا إلى

صامسون مغادراً العاصمة استانبول فى السادس من مايو سنة ١٩١٩م = ١٣٣٨هـ . وفى التاسع عشر من تشرين الأول سنة ١٩٢٢م = ١٣٤١هـ، وصل إلى استانبول، الجنرال رفعت باشا، ممثلاً عن حكومة «مجلس الأمة التركى الكبير» وبعد عشرة أيام إلتقى بالسلطان وحيد الدين، وأخبره أنه لم تعد هناك حاجة، أو معنى لبقاء حكومة إستانبول، ولابد من إلغاء هذه الحكومة فى الحال، وأنه لابد من قطع العلاقات فوراً، مع دول الإحتلال . وأعلن مجلس الأمة التركى الكبير إلغاء السلطنة العثمانية فى الأول من تشرين الثانى سنة ١٩٢٢م = ١٣٤١هـ . وهكذا، إنتهت السلطنة العثمانية التى ظلت استانبول عاصمة لها ما يقرب من ستمائة عام . ولم يعد لها مركز الصدارة فى حكم البلاد . واستقالت آخر حكومة عثمانية فى العاصمة إستانبول برئاسة توفيق باشا فى الرابع من تشرين الثانى سنة ١٩٢٢م = ١٣٤١هـ، بل ودخلت إستانبول منذ ذلك التاريخ تحت إشراف الإدارة القومية . وكان يوم الجمعة الموافق العاشر من تشرين الثانى هو اليوم الذى شهدت فيه مدينة استانبول آخر إستقبال للسلام والتحية بعد الصلاة يقوم به آخر السلاطين العثمانيين السلطان وحيد الدين، الذى تسلل خفية فى ليلة السادس عشر من تشرين الثانى إلى البارجة الإنجليزية التى كانت تسمى مالايا « Malaya » وهرب من إستانبول .

وفى التاسع عشر من تشرين الأول سنة ١٩٢٢، وبقرار من مجلس الأمة التركى الكبير، أصبح عبد المجيد أفندى خلفة فى إستانبول . وفى الثانى من تشرين الأول سنة ١٩٢٣م = ١٣٤٢هـ، أدى أفراد القوات المحتلة السلام العسكرى للعلم التركى فى ميدان سراى ضولمة باغجه فى مدينة إستانبول، واستقلوا سفنهم، وغادروها غير مأسوف عليهم .

وهكذا، إنتهت فترة الإحتلال البغيض لمدينة إستانبول . ودخلها الجيش القومى التركى فى السادس من تشرين الأول . وفى التاسع والعشرين من فبراير سنة ١٩٢٤م = ١٣٤٣هـ . خرج الخليفة عبد المجيد لصلاة آخر جمعة له فى إستانبول . واستقبل المواطنين للسلام . كما كان معتاداً فى أيام الجمع . .وكانت هذه آخر مرة يُستقبل فيها الخليفة لتأدية مراسم الجمعة؛ ففى الثالث من مارس، أصدر مجلس الأمة التركى الكبير قرارة بإلغاء الخلافة . وخرج الخليفة عبد المجيد فى نفس هذه الليلة، هو، وكل آفراد الأسرة العثمانية إلى خارج البلاد تاركين إستانبول التى ارتوت بدماء أجدادهم الأوائل .

استانبول فى العهد الجمهورى :

شهد يوم ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٢١م = ١٣٤٠هـ توقيع معاهدة أنقره مع فرنسا، وبعد معاهدة لوزان التى عُقدت فى الرابع والعشرين من تموز = يوليو سنة ١٩٢٣م = ١٣٤٢هـ . صدر قانون فى الثالث عشر من اكتوبر سنة ١٩٢٣م = ١٣٤٢هـ لتحديد مركز الدولة الجديد، وقد تقرر بهذا القانون أن تكون آنقره هى مركز ومقر دولة تركيا . وبهذا الشكل أصبحت آنقره هى العاصمة . .ولم تعد استانبول مركز الدولة .

ثانيًا
روعة الحضارة

روعة الحضارة

بعد أن استنشقنا عبق التاريخ؛ فلا مندوحة، أو مفر من الوقوف بخشوع أمام روعة الحضارة. . فالحضارة نتاج تاريخ، وابداع بشرى، فيه تجسيد لنتائج التاريخ، واشهار لإبداع البشر، واشهاد على عبقرية الانسان، وامتزاجه مع المكان. .ولما كانت استانبول نتاج فريد لإمتزاج روعة الطبيعة، بجمال الأرض، ونضارة الخضرة، وإبداع الخالق. .واستلهام المخلوق. .فحضارتها كذلك ذات روعة خاصة، وشخصية فريدة. .وإذا كانت عبقرية الفاتح قد تجلت فى الفتح، فهاهى ساحة آخرى تشهد له بالعبقرية والعطاء اللا محدود. .

تلك الساحة لا تتصل بالكر، والفر، أو عالم السياسة، بل تتصل بالحضارة؛ بالبناء المرتبط بالحرب، ومباهج السياسة، بدور العلم ومراكز الثقافة، بإبداع الفن، والفكر، والحكم، والإدارة. .

كانت للفاتح فى هذه الميادين جولات باهرة، وصولات مبهرة، لا تقل روعة، أو عظمة عن جولاته فى ميدان الحرب، وساحة السياسة

وسنحاول فى هذا القسم، أن نُطل إطلاله عامة على ما وصل إلينا حتى اليوم من المعالم الحضارية لمدينة استانبول. .وستشمل البانوراما؛ الأسوار والقلاع، وتنتقل من السرايات إلى الكليات، ومن أضرحة الأولياء إلى تكايا الدراويش وخلوة المتصوفة، ومن منشآت العلم، والثقافة إلى التجارة ومراكزها، والإدارة ومحافلها. .سنحاول قدر المستطاع أن تكون الصورة واضحة، صادقة تعكس روعة هذه الآثار:

العمارة العسكرية

القلاع : من الثابت أن بايزيد الأول (١٣٦٠ - ١٤٠٣م =)هـ كان قد أقام قلعة فى نهاية القرن الرابع عشر ٩٦ / ١٣٩٧م، لكى تكون رأس جسر فى مواجهة بيزنطة، ولكى تُسيطر على البوسفور، وهى التى تُسمى حتى اليوم قلعة الآناضول = حصار الآناضول Anadolu Hisar . ومن المعروف أن محمد الثانى، وقبيل الفتح، وكما سبق القول، كان قد قام بترميم هذه القلعة التى تُعرف فى كتب التاريخ باسم ؛ القلعة الجديدة، أو القلعة البيضاء، أو القلعة الجميلة، وجعلها أكثر متانة واستحكاماً

سنة ١٤٥٢م=٨٥٦هـ. وهذه القلعة تتكون إلى جوار القلعة الرئيسية، والقلعة الداخلية، والأسوار، من مسجد مجاور لها، وأُضيف إليها ربما فى القرن السابع عشر الميلادى، الحادى عشر الهجرى مصلى. ومازالت هذه القلعة حتى اليوم مزاراً سياحياً، يشهد للعبقرية العسكرية بالتفوق والخلود.

قلعة الروميلى «Rumali hisari»:

ما أن استقر عزم محمد الثانى على فتح استانبول، وما أن وصل بطلائع جيشه إلى الضفة الأسيوية من البسفور، وتفحص قلعة الآناضول، ورآى كم هى متحكمة فى مدخل المضيق، حتى تاقت نفسه إلى إنشاء مثيل لها على الضفة المقابلة. فقال لمن حوله من القواد وأركان الدولة..(إن المرحوم جدى العظيم، السلطان بايزيد خان، قد أحسن اختيار موقع الحصار..ونحن بدورنا، لو أقمنا فى مواجهته قلعة آخرى، فنستطيع أن نقطع الطريق البحرى للقسطنطينية، وتفقد اتصالها بالعالم الخارجى.. يجب أن تكون هذه المدينة عاصمة ملكنا..)

ثم شرع فى البناء على الشاطىء الأوروبى، فى أضيق مكان على المضيق، ليحكم إغلاق هذا الممر، ويحول دون وصول المساعدات من البحر الأسود.

جلب الفاتح مواد البناء، وآلاف العمال المهرة، والبنائين من أنحاء الإمبراطورية، واشترك بنفسه مع كبار رجال دولته والقضاة، والفقهاء فى أعمال البناء. وتم إلقاء حجر الأساس فى ٢١ مارس سنة ١٤٥٢م = ٨٥٦ هـ وعيَّن المعمارى مصلح الدين آغا رئيساً لمهندسى البناء، والوزير شهاب الدين باشا مشرفاً عاماً على عملية الإنشاء، وكان الشيخ خسرو، يساعد فى البناء، ويشجع العمَّال، والبنائين، والنجارين على الوفاء. ويجسد التفانى فى الجهاد، ورفعة شأن البلاد وقت الجهاد..

كانت القلعة على شكل مثلث، سمك جدارها عشرون قدماً، فى كل زاوية منها برج ضخم مغطى بالرصاص، سمكه إثنان وثلاثون قدماً، وسميت هذه القلعة أيضاً (بوغازكسن) أى قاطع البوغاز. وظلت طوال العصر العثمانى قاعدة للأعمال الحربية فى أوروبا، ومستودعاً للزاد، والعتاد.

انتهى البناء، فى نهاية شهر تموز = يوليو من نفس العام، وعيَّن السلطان القائد فيروز آغا محافظاً عليها..وهكذا تم إغلاق طريق البحر الأسود بالكامل أمام بيزنطة.

بعد أن تم فتح المدينة، فقدت القلعتين دورهما العسكرى، وانحصر دورها طوال العصر العثمانى فى الحيلولة دون وصول السفن المعادية، واستخدامهما كسجن للإنكشارين الخارجون على القانون، وأتباع الدولة التى يُعلن عليها الحرب.

كانت القلعة تتكون من الأسوار، والأبراج، كان وسط الفناء مسجد، لم يبق منه حتى الآن، سوى بقايا المئذنة. .وداخل الأبراج كانت أدوار متكررة من الخشب، لتكون سكناً للجنود. وقد تعرضت القلعة لدمار خلال الزلزال الذى ضرب المدينة سنة ١٧٥٤ / ١٧٥٥م = ١١٨٦هـ. ثم أُعيد ترميمها اعتباراً منذ سنة ١٩٦٠م = ١٣٨٠هـ.

مازالت هذه القلعة مزاراً سياحياً، ومازالت أبراجها، وأسوارها تشهد على عظمة البناء، وروعة التشييد، ودقة التصميم، والتنفيذ.

الأسوار:

خلال محاصرة المدينة قُبيل الفتح، تم تخريب أسوار المدينة تحت وطئة المدافع العملاقة، وامتلئت الخنادق بالانقاض، وما أن تم الفتح المبين، حتى أمر السلطان بترميم هذه الأسوار ورفع الأنقاض، وتم ذلك على الفور، وإن كنا لا نملك كتابات تؤرخ لهذه الترميمات. ولكن عندما تولى بايزيد الثانى(١٤٨١ - ١٥١٢) أعطى أهمية بالغة لهذه الأسوار، وما كان بها من أبراج. وخلال الزلزال الذى ضرب المدينة سنة ١٥٠٩م = ٩١٥هـ وقعت خسائر فادحة فى المدينة بصفة عامة، والأسوار بصفة خاصة. .وقد أُجريت لها ترميمات جيدة ويثبت ذلك الكتابات التى كانت على بابا أدرنه، وخلال عصر مراد الرابع قام القائمقام بايرام باشا بتكسية الجبهات الخارجية للأسوار مما أظهر رونقها، وعظمتها منذ سنة ١٦٣٥م = ١٠٤٥هـ. واستطاع الأثريون أن يقرأوا الكتابات التى وجدوها على بوابة «يدى كوله». وعقب الزلزال التى ضرب المنطقة مرة آخرى سنة ١٧٦٦م = ١١٧٩هـ، تعرضت الأسوار للدمار، وتم تكليف الحاج محمد آغا، بإعادة الترميم، والبناء. وليس بين أيدى الباحثين؛ ما يثبت أن الأجزاء المطلة على الخليج الذهبى قد أُجريت لها اصلاحات منذ انتقال الإدارة إلى آيدى الأتراك. وإن استمرت البوابات فى الاستعمال، أما أقسام السور المطلة على بحر مرمرة، فقد نالت ما تستحق من رعاية، وعناية، وتم افتتاح طريق بمحاذاة السور فى المنطقة الممتدة من منطقة «سراى بورنو» حتى باب «يدى كوله» بعرض ١٧ زراعاً.

كذلك تم إعادة تجديد وترميم كل هذه الأسوار فى عهد السلطان أحمد الثالث، وكلف ابراهيم باشا للقيام بهذه العملية التى امتدت من ١٧٢٢م = ١١٣٤هـ إلى ١٧٢٤م = ١١٣٦هـ. وسُجِّلت هذه الترميمات فى الكتابات الموجودة على باب الإسطبل. وكذلك الكتابة التى وجدت فوق بوابة نازلى، والتى نُقلت إلى المتحف. وهذه الكتابة الشعرية من نظم الشاعر رفيق وكتابة الخطاط زهدى. أما السور المحيط بالقصر الجديد الذى أقامه السلطان محمد الثانى، والمسمى بالسور السلطانى، فقد تحول إلى طريق ساحلى يمتد الآن فيما بين «يدى كوله» وحى «سيركجى» وتم ذلك فيما بين سنة ١٩٥٦ - ١٩٥٨م.

مصانع البارود والمدافع :

من الثابت أن مدينة استانبول كانت تحتوى على إنشاءات عسكرية كثيرة؛ من بينها مصانع للبارود والزخيرة. .وكان أول مصنع للبارود، والذى ظل يعمل حتى سنة ١٤٩٠م = ٨٩٥هـ، موجوداً فى حى السلطان أحمد الثالث. وكان قد أُنشىء فى بادىء الأمر على أنقاض كنيسة بيزنطية قديمة. أما المصنع الثانى، فقد أُقيم فى سنة ١٦٤٧م = ١٠٥٧ بحى كاغيد خانه، وظل يعمل حتى عصر السلطان ابراهيم. والمصنع الثالث الذى أُقيم فى استانبول، كان فى الساحة الممتدة فيما بين طوب قابى = باب المدفع، و« شَهْرَمين »، وظل يعمل وينتج بشكل جيد منذ سنة ١٦٨٧م = ١٠٩٩ وحتى سنة ١٦٩٨م = ١١١٠هـ. ولكن بسبب الصواعق والحرائق رأت الجهات المسئولة نقل مصانع هذه المفرقعات خارج نطاق المناطق السكنية نظراً لما كانت تُسببه من الخسائر الفادحة.

ومما لا شك فيه؛ أن من أهم العمائر العسكرية التى شهدتها مدينة استانبول منذ القدم، والتى مازالت أطلالها موجودة، ومازال الحى الذى أُقيمت فيه يحمل نفس الإسم، ألا وهو مصنع المدافع = ال (طونچانه). فقد كانت تُصنع فيه، وتصب المدافع العملاقة، وهذا المصنع إلى جانب مهابته العسكرية، فقد كان أثراً معمارياً فخيماً؛ أُنشىء فى القرن السادس عشر الميلادى. ويتضح من الخطوط التى مازالت بارزة عليه أنه قد تم تعميره، وترميمه، وتجديده فى عصر السلطان سليم الثالث، سنة ١٧٩٠م = ١٢٠٥هـ. ومنذ بداية الإنشاء، قد أُقيم حوله معسكراً، ومساكن للعاملين فيه. وأمام الفرن، وعلى إمتداد الشارع الذى أُقيم عليه المصنع، قد تم بناء دار لمشيرية الطوپخانه على الطراز المعمارى الأوروبى المسمى « طراز عصر النهضة الحديث ». ثم تحول فيما بعد إلى معهد للفنون الجميلة، ولكنه أُزيل سنة ١٩٥٧م. ونُقلت صناعة المدافع وصبِّها إلى المنشآت التى أُقيمت لهذا الغرض فى (زينين بورنى). ،وإن كانت بعض الأطلال، والإسم ما زالا، يشاهدها ، ويسمع بها كل مَنْ يزور استانبول، والكتابات التى تؤرخ لهذه المنشآت؛ قد تم نشرها وعرضها فى المتاحف المختصة.

الفنون الإسلامية فى استانبول بعد الفتح المبين :

محمد الفاتح والفنون :

إن للفن العثمانى شخصيته القوية، له سماته التى تجعله فناً مستقلاً عن الفن فى مصر، وايران، والأندلس، والمغرب بل، وتجعله مستقلاً عن الفن السلجوقى. إلا أنه بكل المقاييس فن اسلامى أصيل. فالدولة العثمانية قامت على الشريعة الإسلامية، إلتزمت بجوهرها على مر العصور. .وقد استلهمت ابداعاتها من جوهر هذا الدين الحنيف. .فتحت نوافذها على كل العالم الإسلامى لتستلهم منها،

وتُضيف إليها من سماتها الشخصية ولم تصم آذانها، أو تغلق عيونها عن فنونّ البلدان المسيحية المفتوحة، بل صهرتها فى بوتقة الإسلام. .واضافت إليها من رحبة التسامح، والانفتاح على العالم الخارجي المحيط. .

إن محمد الفاتح الذى فتح استانبول سنة ١٤٥٣م = ٨٥٧هـ والذى امتدت فترة حكمه ثلاثين عاماً، قد أقام خلالها فى العاصمة الجديدة استانبول، والمدن الرئيسية الآخرى خمسة وثمانين جامعاً من ذوى القباب الضخمة، وثلاثمائة جامع عادى، وسبعة وخمسين مدرسة = «كلية» وتسعة وخمسين حماماً، عدا تسعة وعشرين سوقاً مغلقاً، والعديد من السرايات، والقصور، والقلاع، والحصون، والأسوار، والجسور، والخانات والبيوت. .وإن كان الزمن قد أتى على معظمها، إلا أن آثارها الحضارية مازالت ماثلة بين أمهات الكتب، وعيون المصادر. إن الفن العثمانى فى العاصمة، شأنه شأن كل الفنون الإسلامية فى العواصم الإسلامية؛ دمشق، وبغداد، والقاهرة، فن سلطانى، فحيث يُقيم السلطان تُشيد أمهات الفنون؛ وليس معنى ذلك أن المدن الآخرى تكون بمعزل عما يحدث فى العاصمة، بل هى تُشارك، وتستفيد من الوثبة الثقافية، تغذى، وتتغذى على ما يفد إليها من البلاط، أو تُقليداً كاملاً لما يجرى فى العاصمة من تشييد، وإتقان، وإبداع.

إن الحضارة العثمانية، شأنها فى ذلك شأن الحضارة الإسلامية تمنح الصدارة للعمارة. .وهى مما لا شك فيه عمارة تستند على المعارف والعلوم التقنية، والتطبيقية، وتتميز بحس تنظيم المكان، وتوازن الكتل، وتملك قيمتها الخاصة. وإن زخرفة المبانى - كما سيتضح - شأنها شأن زخرفة التحف المصنوعة، كانت شاغل الفنان المبدع. .والزخرفة الإسلامية بثراءها قد تجسدت هى أيضاً فى الزخرفة العثمانية. زخرفة فنان ماهر، فى التلوين؛ فالفن الإسلامى شرقى على العموم، فن ايحاء، أكثر مما هو فن تجسيم. .فهو يدين النحت المجسم، والنحت البارز ويستهجنه، يمتنع عن تصوير الإنسان، ويحرمه - فى العمارة على الأقل - وقد رأوا - كما سنرى - فى المنمنمات، والخزف، والبلور عوضاً عن ذلك.

إن الفن العثمانى. . كبقية الفن الإسلامى - فن حضارة المدينة فى المقام الأول من حيث الجوهر. ومركز المدينة الإسلامية فى الغالب والأعم هو المسجد الجامع، موقع تجمع الجماعة، لأداء الصلاة، والإستماع إلى الخطبة، والاعتكاف، وتدارس الأمور الشرعية. والشئون العامة، وتحفيظ القرآن للصبية، وتدارسه للكبار، ويقع بالقرب منه قصر السلطان، أو الوالى. وتنبع الحركة التجارية من مراكز اقتصاديةعلى مقربة منه. .والسوق القريب من المسجد الجامع، محاط بالخانات المعدة لاستقبال التجار، والدواب. .ويجرى انشاء زوايا، وحمامات، وأسبلة فى جميع الأحياء إلى حد ما، وذلك من أجل راحة ساكنى المدينة، وفى المدينة، ومنها، ينبع الجانب الرئيسى من الإبداع الفنى.

العمارة الدينية :

أ ـ الجوامع والمساجد :

إن الجوامع والمساجد هي بيوت الله ـ تعالى عن ذلك ـ في الأرض، تُقام فيها شعائره . . وهي الآثار الوحيدة التي كتب لها اجتياز العصور، وهي إذ تشهد على العظمة الإلهية، والحضور الظافر، والدائم للإسلام، تُعتبر ـ بوجه عام ـ العمارة الأكثر أهمية والأكثر تمثيلاً لمختلف مدارس العمارة الإسلامية. وفي عمارة الجوامع والمساجد؛ قد استعاض الترك عن تخطيط المسجد العربي بتخطيط أكثر كونية، وتلائماً مع البيئة، إلا أنهم أيضاً، في هذا التخطيط الكوني حافظوا على الآجزاء التي تتطلبها العبادة، بالرغم من أنهم اعتمدوا التخطيط المتمحور على المركز بدلاً من التخطيط العربي المستطيل.

والمسجد التركي العثماني، شأنه شأن كل الجوامع والمساجد وجهته مكة، وهذه الوجهة أي القبلة يُشار إليها على الحائط المطل ناحية القبلة . .بتجويف هو « المحراب » وإلى يمين المحراب يوجد المنبر، الذي يتألف من سلم مستقيم تعلو درجته الأعلى ظلة، ويغلق من أسفل بباب . .والآثاث الموجود بالمسجد بخلاف المصابيح، والسجاجيد، يتكون من دكك لمن يتولون قراءة أو تلاوة القرآن الكريم، ومقصورات، وكراسٍ، وراحلات للمصاحف، وخزائن حائطية. وخارج قاعة آداء الصلاة « الحرم » تنتشر الملحقات؛ كالصحن المحاط بالأروقة، وفي مركزه فسقية، وفي خارج نطاق المبنى الرئيسي توجد المراحيض والميضئات . .والمنارة التي يؤدي المؤذن منها النداء إلى الصلاة .

إن أوائل مساجد العاصمة استانبول، لم تنشأ من فراغ. بل نشأت على غرار مخططات مساجد إزنيك، وبورصة، وأدرنه. وهي استمرار للطراز التي انتشرت بين الترك قبل فتح استانبول. ولكن عصر الفاتح، ومنذ السنوات الأولى لحكمه، بدأ يشهد بعض التطور في الطراز المعماري للجوامع . .فالعين لا تخطئ تناول القباب بجرأة وجسارة، وإذا كنا نعدم الآن مخطط جامع الفاتح في استانبول، فإن خير ما يجسده الجامع الصغير الذي يحمل اسمه في آثينا والمسمى « جامع الفتحيه » فهو عبارة عن قبة في الوسط مقامة على أربعة أعمده محاطة بأربعة أنصاف قباب وفي الأركان والزوايا بأربع قباب آخرى.

ولكن استخدام أنصاف القباب على نطاق واسع، بدأ في استانبول مع بداية انشاء جامعة الفاتح. ففي هذا الجامع ظهرت قبة كبيرة قطرها ٢٦ متراً، وتجاه القبلة نصف قبَّة وعلى الجوانب الآخرى ثلاث قباب صغيرة. وهذا الجامع الذي أتمه المعماري سنان الدين يوسف فيما بين ١٤٦٢ ـ ١٤٧٠م = ٨٦٧ ـ ٨٧٥هـ قد شكل الأساس الذي قامت حوله جامعة الفاتح، التي تكونت من ست عشرة مدرسة، ودار للشفاء، واستراحة. « كروانسراي » وحمام. وعدد من المدافن والدكاكين وكانت كلها من القباب. وقد تسبب الزلزال الكبير الذي ضرب المدينة سنة ١٧٦٥م ـ ١١٧٩هـ في تصدع القبة

الرئيسية . وقد أعاد السلطان مصطفى الثالث فيما بين ١٧٦٧ - ١٧٧١م = ١١٨١ - ١١٨٥هـ ترميم الجامع، وأعاد البناء على أربع قباب نصفية . قطر كل منها ٢٠ متراً . ولكن وفقاً لآخر ما وصلت إليه الأبحاث الأخيرة، فلم تتم أى تعديلات على ناحية المحراب والصحن، بل كل ما تم بهذا الصدد هونقل الجدران بعض الشيء إلى الداخل . .

ومن الثابت أن مسجد محمد الفاتح قد استلهم عمارة الجامع العتيق «اسكى جامع» فى أدرنه (١٠٤٣ - ١٤١٢م) = (٨٥٦ - ٨١٥هـ) بالمبادىء نفسها، لكن قبابه قد تميزت ببعد يمثل ضعف بعد قباب جامع بورصة والتى بلغت ١٣ متراً . وهو ما سمح بتقليل عددها إلى تسع ويحولها لأثر يتميز بحجم يكاد يكون مساوياً . والالغاء التالى للدعامات يُغير بدوره رأساً على عقب فى المجال الداخلى . . كما أن الارتفاع الأعلى للقباب الثلاث للجناح المركزى سوف يبدل المشهد الخارجى . ولا شك أن التقسيم الثلاثى لمكان العبادة هو تقسيم عرضى، عزيز على الإسلام .

إن محمد الفاتح بجامعة الذى أمر ببناءه فى استانبول مختلفاً عن جامع والده فى أدرنه بمترين فى اتساع القبة . وإن كان قد حافظ على الثلاث شرفات، يكون قد مهد الطريق أمام الجوامع ذات القباب الكبيرة فى إستانبول . وبعد جامع أدرنه ذو الثلاث شرفات فإن جامع الفاتح بصحنه ذو الأروقة، تكون الجوامع ذات النسب العلمية فى التخطيط قد استقرت، وبدأت تخط لنفسها خططاً مستقلة حتى وإن تأثرت بالقباب البيزنطية . ويمكن اعتباره نتيجة تركيب يجمع بين تخطيطين، هما تخطيط المسجد ذى القبة الواحدة . والمسجد المتعدد القباب . مع الحفاظ على الشكل الأصلى لعمارة الجامع، ولكن ربما يكون الجديد فى عمارة المساجد فى العاصمة الجديدة استانبول هو تكليف «على بن صوفى» أحد أشهر خطاطى عصر الفاتح باستخدام الزخارف الخطية فى تزيين الجامع، وكتابة البسملة وآية الكرسى على لوحات من الخزف الأزرق . وكتب على الجدار الغربى، وعلى الوجه الخارجى البسملة وسورة الفاتحة بخط ثلث على امتداد ستة نوافذ، وقد كتبها باللون الأبيض على أرضية رخامية خضراء[١] . وكانت مناراته ذات شرفة واحدة، وقد تمت بشكل متوازن جداً لتلك التى جاءت بثلاث شرفات . وعلى الجهة الجنوبية لقاعدة المنارة، قد وضعت ساعة شمسية تُنسب إلى على قوشچى . إن هذا العمل الفنى الرائع بملحقاته وكلياته أصبح هو المثل الذى يحتذى به فيما أتى بعده . هذا العمل وإن دمره زلزال ولم يبق إلا على صحنه وملحقاته، تم إعادة تشييده، وفق تخطيط جديد عام ١٧٧١م - ١١٨٥هـ وكانت قبته التى تتوج حرمه ذات قطر لا سابق له قط عند العثمانيين ٢٥ متراً -، وكان كل ملحق من ملحقيه متوجاً بقبتين، ولم يكن هذا الترتيب مختلفاً عن

---

(١) Oktay Aslanapa, Turk Sanate. Remzi Kitabevi, 3 Baski, Kasim 1993. s. 240.

ترتيب أدرنه . . إلا من حيث استناد القبة المركزية على أربعة أقواس . وليس على ستة . ومن حيث امتداد قاعة الصلاة؛ فمن حيث العمق فهناك قاعة أخرى، محاطة أيضاً بأروقة جانبية، وتلوذ بقبة نصفية . . وهذه القاعة قد استخدمت كمصلى صغير .

وحول مكان العبادة، تمتد ـ بحرص بالغ الجدة على الوضوح والنظام ـ الكلية الضخمة . . سلسلة القاعات والرواقات المفتوحة على الأحواش، والمغطاة بنحو خمسمائة قبة صغيرة(١) وهكذا، يتشكل لأول مرة تجمع أثرى، يجمع كافة الخدمات الدينية، والاجتماعية، والثقافية ويدرج المسجد فى نسق معمارى حقيقى .

مسجدا بايزيد الثانى، وسليم الأول:

إن السلطان بايزيد الثانى قد سار على نفس الدرب الذى إختطه والده فى العمارة، ويعتبر مسجده فى العاصمة إستانبول، والذى أنجزه المعمارى خير الدين سنة ١٥٠٥م - ٩١١هـ أول أثر يمكن رصد تأثير كنيسة القديسة آياصوفيا فيه بوضوح كامل . وعلى الرغم من أن قبته أصغر من قبة الكنيسة بكثير، «فقطرها ١٨ متراً» فنجد له إطاله فى الشمال وفى الجنوب من خلال نصف قبتين . وأن ترتيب المكان يتحقق بروح جديدة فى الفن التركى . ولكن المقارنة تتوقف عند هذا الحد . . فهذا المسجد يُعد تطويراً لما سبق أن قام به هذا المعمارى فى آماسيا، فالمكعب المركزى الذى يدعم القبة والدعامات القوية، والتى تكفل رسوخها واندماجها فى الكل، ماتزال قريبة من مكعب ودعامات مسجد بايزيد فى أدرنه . وتبدو القبة كأنها منفصلة تماماً عن جسم المبنى، بما يُعلى من شأن الزخم الرأسى على حساب وحدة المنظر الخارجى .

أما القباب النصفية، المنخفضة، علاوة على ذلك، فإنها غير مرتبطة بها، بل تستند على المبنى، كما أن الأروقة الجانبية، ذات الارتفاع البسيط، تتألف من جناحين يدعم كل منهما أربع قباب . ويوجد صحن ذو أروقة له نفس أبعاد الحرم . . ويمهد له، ولكنه يبدو منفصلاً عنه بجناحين . هما أيضاً تحت القباب ـ ويشكلان امتداداً لساحة الصلاة من جهة الشرق ومن جهة الغرب، وتستند إلى ظهريهما . وفى طرفيهما البعيدين، مئذنتان متطابقتان يقسمان التكوين المعمارى . وهذان الجناحان المدهشان جداً، يذكران بمدرستى بايزيد فى أدرنه، القائمتين عند الحائط القبلى(٢) .

لقد أولى المعمارى جهداً كبيراً للزخرفة، وتخترق جدار الصحن درجتان من النوافذ، وثلاث

(١) تاريخ الدولة العثمانية جـ ٢ . ص ٣٧٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٨٠ .

بوابات ذات كوى جانبية قريبة أيضاً من الأسلوب السلچوقى فى العمارة . . وفى الداخل تؤدى أعمدة الاستخدام الجديد ذات الرخام الصناعى الأخضر، أو ذات الرخام الطبيعى أو الجرانيتية إلى إثراء تعدد ألوان الرخام، وصنجات العقود، المتناوبة بين الأحمر، والأبيض، أو الأسود والأبيض، والتى كانت قد استخدمت بالفعل فى جامع الفاتح .

ومما لا شك فيه، إن عمل بايزيد المعمارى هذا، يُعتبر عمل انتقالى، ويُعتبر عملاً متواضعاً جداً بجانب مسجد سليم الأول الكبير . والدى أنجزه إبنه سليمان القانونى ـ كما سبقت الإشارة ـ سنة ١٥٢٢م ـ ٩٢٩هـ . يرجع التخطيط الأساسى إلى استلهام التخطيط ذى القبة الواحدة لمسجد بايزيد فى أدرنه أيضاً . ولما كان المهندس المعمارى مشغولاً بالتغطية وحدها، فإنه قد توصل إلى التوفيق والإنسجام بين القبة الكبيرة التى يساوى قطرها ٢٤ متراً وبين جدران القاعة، وبذلك نفسه، بين الحرم والصحن، إلا أن المعمارى لكى يفعل ذلك، كان عليه التضحية بارتفاع المبنى . إلا أنه قد سعى إلى تعويض ذلك بمآذن تعتبر ذات ارتفاع مبالغ فيه .

المهندس المعمارى سنان وتراثه فى عصر سليمان القانونى:

بالرغم من أعمال بايزيد وسليم الأول المعمارية، إلا أن العمارة قد بدت وأنها فى مأزق . وكان لابد من ظهور مهندس معمارى عبقرى يحمل على عاتقه عوامل إخراجها من هذا المأزق . وقد ظفر عهد سليمان القانونى ـ العصر الذهبى للإمبراطورية العثمانية ـ بأحد قمم العالم وعباقرته، وهو المهندس المعمارى سنان لقد حظى بتقدير السلطان بعد أن أقام جسراً فوق نهر بروت فى ظرف ثلاثة عشر يوماً، ثم بنى جسراً آخر عبر الدانوب . وهكذا كان اختياره كبيراً للمهندسين، وحين بلغ الخمسين كان سنان قد شيد ٣٦٤ بناءً على أراضى الإمبراطورية .

كانت أول أعمال سنان فى استانبول، المجمع الخصكى الذى شيده خُرَّم سلطان . ومسجد هذا المجمع الذى اكتمل بناؤه عام ١٥٣٩م ـ ٩٤٦هـ له قبة واحدة، وصفه لها خمس قباب . وقد استخدم سنان هنا العقد الركنى الحامل ذا الفصوص الذى يشبه الصدفة، أو المحارة، والذى سبق ظهوره فى مسجد كَبزه(*) . وفى سنة ١٦١٢م ـ ١٠٢١هـ زيد فى مساحة الخصكى باضافة قبة جانبيه . تم

(*) مجمع ومسجد كبزه أُقيم سنة ١٥٢٣م ـ ٩٣٠هـ لواحد من ولاة مصر السابقين، هو چوبان مصطفى باشا . وتتشابه زخارف هذا المجمع مع الزخارف المملوكية فى مصر؛ حيث تظهر تطعيمات من الحجر المتعدد الألوان مع الرخام المستجلب من مصر . ويدور سور حول هذا المجمع الذى كان يضم مدرسة، وتكية، ومستشفى ودار لتقديم المرق، ومكتبة، ومسجد له قبة كبيرة قطرها ١٤ متراً، وبها عقود حاملة، ذات طاقيات صدفية مفصصة، وضريح مثمن فيما يلى المسجد .

وصلها بالمبنى بعقدين، وعمودين. وأقيمت غير بعيد من المسجد مدرسة، وكتَّاب، وسبيل، ودار للمرق، ومستشفى، يجمع بينها تناسق محدود.

تظهر أهم مراحل عبقرية المعمارى سنان من خلال ثلاث آثار عظيمة هى؛ مسجد شهزاده، ومسجد السليمانية بإستانبول، ومسجد السليمية فى أدرنه.

بدأ العمل بمسجد شهزاده عام ١٥٤٤م - ٩٥١هـ، واستغرق العمل فيه أربع سنوات. وقد عمد سنان فى تنفيذه لهذا المشروع إلى اسلوب جديد بالكامل جعله يقيم منشآت معمارية ضخمة رائعة باسلوب خاص به هو..

كان بناء هذا المسجد بتكليف من السلطان سليمان القانونى تخليداً لذكرى ولده الأكبر وأثيره شهزاده محمد الذى توفى فى مغنيسه فى الواحد والعشرين من عمره، وكانت مساحة المسجد التى يبلغ ضلعها ٣٨ متراً مغطاة بقبة قطرها ١٩ متراً، تعتمد على أربع دعائم، ومن حول هذه القبة أربعة أنصاف قباب، ثم قبة صغيرة فى كل ركن من أركان حرم المسجد، وبلغ ارتفاع قمة القبة الرئيسية عن أرض المسجد ٣٧ متراً؛ وبلغت المسافة بين كل دعامة والتى تليها ١٦,٥٢ متراً. وقد زيد فى امتداد انصاف القباب الأربعة بأضافة حنية ركنية على جانبى كل نصف قبه.

أما الشادروان، وبوائك الصحن المحيطة به وقبابها الست عشرة، وأعمدة البوائك الاثنى عشر، فقد كونت كلها توليفة لا تقل فى تناسقها وانسجامها عن تناسق وانسجام المسجد. وكلها معاً تكوّن منظور معمارى قوى التأثير. وتحويل الممرات من داخل المسجد إلى خارجه، أضفى على الداخل مزيداً من الترابط والتلاحم والروحانية. وبدلاً من عمل عديد من الأبراج الصغيرة تدور حول القبة - كما هو الحال فى مسجد بايزيد - فقد اكتفى بتغطية رؤوس دعائم القبة الأربع من الخارج بقباب مضلعة على هيئة أبراج أكسبت المسجد مظهراً أكثرا قوة. وللمسجد مئذنتان عند ركنيه المجاوران للصحن، ولكل مئذنة مطافان للمؤذن، وترتفع الواحدة بمقدار ٤١,٥٠ متراً، وتظهر حوائط المسجد من الخارج وكأن الواحدة منها تلى التى خلفها، وترتكز على قمتها، حتى لتبدو هيئة المسجد وكأنها هرم مدرج.

لقد أعطى الفنان المعمارى سنان قدراً كبيراً من الزخرفة، والتفاصيل المعمارية للمآذن. ويضم المجمع، إلى جانب المسجد، ضريح الشهزاده محمد، ثم المدرسة ودار الضيافة، ودار المرق «مطعم». والأضرحة هنا منتشرة، ومنسقة خلف جدار القبلة. وباقى الأبنية مرتبة فى الجانب الشرقى من الفناء الخارجى.

إن جامع شهزاده على جانب كبير من الأهمية، إذا يمثل نقطة بداية حقة للمعماريين الذين أعقبوا سنان. باعتباره أضخم، وأرحب المجمعات المعمارية التى ابتكرها الفنان المبدع سنان(١).

وعلى ربوة عالية تُطل على مرفأ سفن بحى اسكدار، أقام سنان شاهقة معمارية أخرى باسم مهرماه سلطان(*)، وقد مارس فى هذه المجموعة المعمارية تجاربه الجديدة، حيث أقام ثلاث أنصاف قباب ولم تكن هذه المحاولة إلا تكرار لتلك المحاولة التى تمت فى مسجد سليمان باشا الخادم فى القاهرة. وقد أقام سنان فى مجموعة مهرماه صفة ذات خمس قباب، ومئذنة سامقة فى كل جانب. ويكون بهذا قد ابتكر واجهة شاهقة ومتناسقة معاً. وقد تم الاستعاضة عن الفناء بسقف بسيط مائل تحمله بوائك على أعمدة ليكوّن صفة خارجية. كما توجد شادروان تُحيط به أربعة عقود.

وعندما توفيت مهرماه سلطان عام ١٥٥٧م - ٩٦٥هـ، كان سنان. يبنى مسجدها وملحقاته فوق ربوة عالية بباب أدرنه فى مدينة إستانبول، وقد اكتشف امكانية زيادة المساحة الداخلية للمسجد، وذلك عن طريق عمل قبة كبيرة بقطر ١٩ متراً، ترتكز فوق أربع دعامات، وثلاث قباب صغيرة فى كل جانب، تطل على المساحة المركزية للمسجد من خلال العقود. وفى النهاية أصبح المسجد بقباب صفته السبع الصغيرة المنخفضة، وبالقباب الأخرى القليلة الارتفاع، والمحمولة على العقود، وبمئذنته الوحيدة، عظيم المظهر، ذا سيادة واضحة على المنطقة كلها. وأضحى شاهداً بزخارفة، ونقوشه البديعة على إبداعات الفنان المسلم.

ولم يضع انتظار السلطان سليمان القانونى سدى، فقد بدأ الفنان سنان فى بناء مسجد السليمانية العظيم فوق ربوة تُطل على القرن الذهبى، واستمر العمل سبع سنوات، وانتهت حيث بدأ فى مسجد مهرماه سنة ١٥٥٧م - ٩٦٥هـ. وكان سنان قد تجاوز حينذاك الستين من عمره، ووضع فى هذا المسجد خلاصة فكره وابداعاته.. قد تحول تماماً إلى فكرة تخطيط المسجد ذى نصْفَيّ القبة، حيث وصل إلى أنجح النسب لإقامة المسجد الجديد. من خلال دراسة متأنية ودقيقة لكل من كنيسه الآيا صوفيا، ومسجد بايزيد معاً.

لقد اشتمل مجمع سليمان القانونى على أكبر، وأول جامعة منذ زمن محمد الفاتح، كان قد أشتمل على ثمانية عشر مبنى، إلى جانب ما هنالك من أضرحة. ونسق كل هذا باسلوب جديد كل الجدة، وبمفهوم واعٍ لنظريات بناء المدن وتخطيطها من جوهر فكرته كان الاستفادة من مدرجات الربوة بطريقة مثلى.. قام تصوره على أن يكون المسجد وحده مستقلة لها فناء ذو بوائك،

---

(١) Aslanapa, turk Sanati, s. 251 - 257.

(*) مهرماه سلطان؛ هى ابنة السلطان سليمان من زوجته خرم سلطان، وزوجة الصدر الأعظم رستم باشا. وكانت أثيره لدى والدها. توفيت سنة ١٥٥٧م - ٩٦٥هـ.

وشادروان، وأن يعكس تخطيطه الداخلي مظهره الخارجي. وقد جعل قطر القبة الرئيسية ٢٦,٥٠ متراً، وارتفاعها ٥٣ متراً. وهي أعلى قباب إستانبول ارتفاعاً بعد الآيا صوفيا. ترتكز القبة على أربع دعامات ضخمة، ولزيادة اتساعها من ناحيتي المدخل، والقبلة اضيف لهما نصفا قبة من كل ناحية بارتفاع أربعين متراً، ثم تم توسيع هاتان المنطقتان بحنيات ركنية اضافية. أما المساحتان الموجودتان إلى اليمين واليسار فقد غطيت كل منهما بخمس قباب، وبدلاً من الرتابة التى قد تنجم عن استخدام قباب صغيرة متماثلة، فقد عمد سنان إلى ابتكار جذاب، وغير مألوف، ويتلخص فى التبادل بين قبة صغيرة، وأخرى كبيرة حسب المساحة، التى تُغطيها القبة، وكانت القبة التى تتوسط الخمس هى الأكبر حجماً، وتتعادل فى اتساعها مع القبة الركنية. وبهذا يكون نوّع من التكامل بين منطقة وسط المسجد. وبين منطقة البلاطات الجانبية، ويكون المظهر الخارجى قد كشف بوضوح عن داخل المسجد بكل تفاصيله الدقيقة.

وإذا كان الداخل إلى المسجد يمتلىء بالهدوء والطمأنينة الروحية، واحساس باللانهائية، فما ذلك إلا نتيجة لارتفاع القبة الشاهق، ولإبداعات الزخارف الخزفية التى تكسو حائط القبلة. ولقد قام بعمل النوافذ ذات الزجاج الملون، وسائر أعمال النقاشة والبياض، رجل يدعى (سرهوش إبراهيم أى إبراهيم السكران). وأقيمت المآذن الأربع فى الأركان الأربعة لفناء المسجد. وخلف جدار القبة ساحة الدفن، بها الضريح الخاص بالسلطان العظيم سليمان وزوجته خاصكى خرَّم، والضريح مثمن الأضلاع.

ولقد قام الجامع، والجامعة بدور حضارى متميز طوال فترة قيام الإمبراطورية العثمانية، ومازال يقف شامخاً، شاهداً على روعة هذه الحضارة، ويجعل المخلصون من أبناء هذه الأمة مرتبطون دائماً بماضيهم المشرق، متطلعين إلى مستقبل أكثر اشراقاً وتطوراً.

تتالت أعمال سنان الإبداعية ومن أهمها المسجد الذى بناه فى إستانبول أيضاً(*) لأمير البحر سنان باشا، حيث بدأ فى تشييده سنة ١٥٥٥م - ٩٦٣هـ فى حى باشيكطاش، على بعد قريب من القرن الذهبى، حيث التجار والبحارة، وجرى البناء على طبقة أرضية مرتفعة جداً، كانت مخصصة لاستقبال السلع، وهذا المسجد الذى يمهد له رصيف صغير بسيط جداً، وله رواق، ومكسو بأجمل ما يمكن أن تراه العين من تكسيات القيشانى التى ظهرت وأبدعت فى القرن السادس عشر. إن هذا المسجد يظهر وكأنه جزيرة صغيرة من الهدوء فوق صخب المدينة. ثم إن تألق الألوان والوحدة فى تنوع المواضيع الزخرفية المختارة يضفيان عليه حميمية قصوى، ويسهمان فى المزاوجة، فى انسجام تام

(*) لن نتناول أعمال سنان المعمارية خارج مدينة استانبول.

بين الأحجام، والخطوط المعمارية التى لم يجر من قبل قط الموائمة بينها بهذه الدرجة من الروعة .

لقد أراد سنان فى مسجد سنان باشا أن يثبت تفوقه على الآياصوفيا فالقبة التى يبلغ قطرها ٣١,٢٨ متراً، قد زادت عن قطر قبة الآياصوفيا، وهذه القبة الضخمة جعلها لا تستند على أنصاف قباب، بل على ثمانية أعمدة مستطيلة، ويتم استيعاب ارتفاعها فى آن واحد بسلسلة من الأقواس، وعقود الزوايا المتناوبة، وبدعامات رشيقة تضبط ايقاع التكوين، وتبرز جبهاتها المتوجة على شكل هرمى فوق رقبة القبة، وتعيد ادخال الخطوط الرأسية التى كان هناك اتجاه شديد للتخلى عنها . ولإبراز القبلة على نحو أفضل فى أثر متمحور على مركز ، جرى وضع المحراب فى صدر صغير، جاء موفقاً إلى أبعد حد . فالمحراب هو وحده الذى يمكنه أن يمنح مكان العبادة الإسلامى عمقاً لا وجود له فيه باتباع أي حل آخر .

كما أن القباب فى الجوامع والمساجد الإسلامية المصوبة نحو الكون، والتى تقود النظر دائماً صوب رأس الجامع، إنما هى تحقيق للجبل الكونى، ويتجاوب مع المثل الأعلى لمهندسى القباب وفلسفتهم فهم يريدون اعطاء انطباع بأنها تُحلق فى السماء، ثم أن المنارات وغالباً ما تخيرها الفنان المسلم المبدع بأربع، فهى غالباً ماتقوم على الزوايا الأربع للمبنى، وليس فى الصحن، فهى بذلك تلعب دور الدعامات وتوحى بأعمدة الكون الأربعة[١] .

توالت، وتعاقبت أعمال سنان، والذين أتوا من بعده، لتزدان بأعمالهم المعمارية مدينة إستانبول ذات الثلاث آلاف مسجد، ولا يتسع المجال للإشارة، والإشادة بها كلها، لقد ساد نفس الطراز المعمارى المساجدي، والمجموعة المعمارية التى تحيط به فى العهود التى تلت سنان، ولا يسعنا المرور سريعاً دون الإشارة إلى جامع الوالدة سلطان الذى أقيم سنة ١٥٨٣م - ٩٩١هـ وجامعها الجديد فى اسكدار الذى يرجع إلى سنة ١٧١٠م - ١١٢٢هـ وإلى جامع أبى أيوب الأنصارى الذى أعيد بناءه سنة ١٨٠٠م - ١٢١٥هـ . ففى مثل هذه النماذج نجد أن أنصاف القباب، والأقواس يتم استخدامها بحرية على نحو تناوبى فى تكوينات حاذقه، ومفعمة بالحياة، تولد أحجاماً متباينة، وترتيبات غير متوقعة . . ولكنها غاية فى الجمال وروعة الإبداع .

لقد تم استدعاء تخطيط مسجد شهزاده فى عدة مساجد كبرى كمسجد السلطان أحمد . وفى البنى جامع « الجامع الجديد » وفى مسجد الفاتح الثانى . والواقع أنه قد اتبع وبشكل حاذق، ولا شك أن المسجد الأزرق، أو مسجد السلطان أحمد هو اليوم أشهر مبنى إسلامى فى إستانبول، وإن لم يكن الأجمل، فإنه الأكثر بهاءً على الأقل، كما أنه المبنى الأوسع، فهذا الجامع يقع على ساحة

---

(١) تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سبق ذكره ص ٣٨٥ .

مضمار الخيل «آت ميدانى» البيزنطية، وهو يطل على بحر مرمره، ويبلغ عرضه ٦٤ متراً، وطوله ٧٢ متراً. وهو من أعمال المعمارى صدفكار محمد آغا، أقامه فيما بين ١٦٠٩ - ١٦١٧م = ١٠١٨ - ١٠٢٧هـ باستخدام أقواس عظيمة لاسناد قبته على أربعة أعمدة ضخمة وهى قبة يزيد قطرها عن ٢٣ متراً، تُدعمها أربعة أنصاف قباب، تسندها هى نفسها ثلاثة عقود زوايا ذات أبعاد أقل، وبزيادة عدد الأحجام المعقوفه. والواقع أن المنارات الست، - والتى تشكل تجديداً شبه مطلق فى الفن الإسلامى، لم تستخدم بمثل هذا العدد الكبير إلا فى الحرم المكى - مع النوافذ التى تأخذ شكل عقد كامل، والموزعة على خمس درجات من الارتفاع، والبريجات ذات القباب إنما تكثف زخمه، وروعته الخارجية، أما الداخل المغمور بالنور، فهو مزخرف فى الجزء العلوى بالرسوم، التى يتم ترميمها، وبنحو، واحد وعشرين الف تربيعة خزفية مزخرفة بالزهور الزرقاء، والخضراء، والحمراء، والسوداء، وبباقات مضمومة من الورد.

ان جامع السلطان أحمد بهذا العدد الضخم من الخزف، يشكل بعد سراى طوپ قاپى، أضخم مجموعة خزفية فى إستانبول، وقد تم تأمين هذه الكمية المتجانسة من قبل الخزّاف قاشيچى حسن(١). ومن النماذج التى لا نظير لها فى هذا المسجد أيضاً، البلاطات الفيروزية اللون، ذات الكتابات القرآنية المذهبة التى تزين الجناح السلطانى. وكذا الزخارف المتعددة الألوان الموجودة أسفل السابقة.

إن روعة الحضارة الإسلامية، وما أبدعه الفنان المسلم تتجلى أيضاً فى الزخارف المدهونة التى تشغل كل جزء من أجزاء المبنى، سواء فى ذلك الدعائم المصبّغة أو القباب، وقد أضفى لونها الأزرق على جو المسجد من الداخل احساساً قوياً بسيطرة هذا اللون المفرح، والكتابات الموجودة من عمل الخطاط أحمد غبارى «Ahmed Gubari». ونلمح ابداعات من روائع فن محمد آغا الصدّاف، فيما هناك من تطعيم بالصدف على الأبواب، ومصاريع النوافذ، ولا يقل عن ذلك ابداعاً ما بالمسجد من أبواب برونزية.

ويحيط ببناء المسجد، فناء خارجى رحيب من ثلاث جهات، أما صحن المسجد، فيتوسطه شادروان، ويدور مع الصحن صف من البوائك محمول على ستة وعشرين عاموداً من الجرانيت، وتحمل هذه البوائك ثلاثون قبة. ويقع المسجد فى وسط المجمع الذى يحتوى كذلك على ضريح السلطان أحمد، ومدرسة، ودار للمرق، ومستشفى، وسوقاً، وقيسارية.. ويشكل هذا فى المنظر الخارجى مع الحديقة الغناء، والمسلتين، والسبيل القريب، وبوابة سراى طوپ قاپى، وقباب آيا صوفيا منظراً خلاباً، وتجانساً معمارياً فريداً.

---

(١) O.Aslanapa, Turk Sanati, s. 272.

وماهذا إلا دليل قاطع على تجانس الفن مع الطبيعة، وتآلف الحضارات وتكاملها من وجهة النظر الإسلامية. وهذا المنظر وحده لدليل قاطع على امتزاج الحضارة الإسلامية والمسيحية معاً فى نفس الفنان المسلم ولم تكن فكرة صراع الحضارات أو تصارعها تخطر على باله.. ولما حرص على بقاء الآيا صوفيا، ولما استلهمها، ولما حافظ عليها على مر العصور.

أما آخر المجمعات البنائية الفخمة التى شهدتها العاصمة استانبول، وتجسد روعة الحضارة فيها هو مجمع الينى جامع، الذى أقامه شيخ المعماريين آنذاك مصطفى آغا بتكليف من الملكة الأم طورخان سلطان، والذى استكمل البناء فيه ١٦٦١م - ١٠٧٢هـ. وهذا المجمع تكرار لنفس القبة المستخدمة فى جامع السلطان أحمد مع اختلاف فى النسب والأبعاد. فقطر القبة هنا ٣٥متراً، وارتفاعها ٣٦ متراً، وتكاد تكون مدببة عند نهايتها. وتبرز الدعائم الأربع التى تحمل القبة الرئيسية، ممثلة فى الأبراج الخارجية المثمنة، وأغطيتها ذات الفصوص. وللمسجد مئذنتان، ولكل واحدة ثلاثة مدارات، أومطافات للمؤذن. ويدور مع صحن المسجد صف من البوائك، وهذه يغطيها ٢٥ قبة، ويحمل هذه النوائك عشرون عموداً. وعلى الشادروان الذى يتوسط الصحن، قبة تحملها بضعة عقود. وقد اختارت السلطانة الوالدة طورخان سلطان بنفسها الزخارف الداخلية مما يدل دلالة واضحة على رهافة حسها، ومشاعرها الفياضة.

يضم المجمع الذى به مسجد ينى جامع «ضريح طورخان سلطان، وداراً لتحفيظ القرآن، ومدرسة أولية، وستة وثمانون دكاناً، والسوق المصرية، وچشمه - منهل مياه «وسبيلاً للمياه. وكان المجمع فى أول أمره محاطاً بالأسوار، ثم أضيف إليه حمام فيما بعد. وما هو موجود فى الوقت الحالى مع المسجد، الدكاكين، والسبيل، والضريح، وتعتبر الاستراحة السلطانية الملاصقة لجدران المسجد، والمتصلة بمقصورته واحدة من أكثر مبانى الاستراحات أصالة وكلاسيكية، بعد القصر الخزفى «چينلى كوشك» داخل سراى طوپ قاپى. وهذه الاستراحة تطل على بحر مرمرة والفرن الذهبى معاً. والزخارف الموجودة بها لخير دليل على أن الفنون الزخرفية التقليدية لم تفقد رونقها وبريقها بعد.

عصر اللاله وانعكاسه على العمارة:

دخلت بلاد المجر ضمن دائرة الإمبراطورية فى عام ١٦٨٩م - ١١٠١هـ بعد شروط قاسية فرضتها معاهدة كارلوفتش. وكان هذا بداية تحرك تدريجى نحو أوروبا وفرنسا. وخلال حكم السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠م = ١١١٥ - ١١٤٣هـ) سافر يرمى سكزنجى چلبى محمد أفندى سنة ١٧٢٠م - ١١٣٣هـ إلى باريس على رأس وفد مكون من ثمانين عضواً. واستقبل استقبالاً حافلاً. وعاد بتقارير إلى السلطان والصدر الأعظم داماد إبراهيم باشا، توضح مشاهداته فى باريس وتكشف هذه التقارير عن الكثير مما يثير الاهتمام. وأحضر الوفد رسومات وتخطيطات

للقصور والحدائق الفرنسية. وصادف ذلك وجود رغبة لدى السلطان فى اقامة قصور وفيلات واستراحات وحدائق فى منطقة كاغدخانة المطلة على القرن الذهبى والبسفور. واستتبع ذلك دخول تأثيرات باروكية، وروكوكية من العمارة الفرنسية، وتحولت بذلك الأنظار نحو اوروبا. .وظهرت هذه المرحلة التى تُسمى «عصر اللاله» نسبة إلى زهرة اللاله = التوليب، واخذ اسلوب العمارة الضخمة فى الانحسار مفسحاً الطريق لتجميل العاصمة استانبول زركشة أجزاء متعددة منها بالفيلات، والاستراحات، والحدائق، والأسبلة المطبوعة بطابع العمارة الأوروبية المستحدثة، وإن لم تفقد نكهتها الشرقية الإسلامية.

الطراز الباروكى :

فى هذا الجو المفعم بالرشاقة والزخرفة والبهرجة، اسس جامع نور - عثمانية بأمر من السلطان محمود الأول عام ١٧٤٨م - ١١٦٢هـ وانتهى البناء فيه فى عصر السلطان عثمان الثالث عام ١٧٥٥م - ١١٦٩هـ. وجامع نور عثمانية وهو أول جامع ضخم يقوم مستعرضاً بوضوح كل الآساليب والتأثيرات الفنية الجديدة. ومن الملاحظ أن التطلع نحو الباروكية الذى ظهر على استحياء على يد سنان فى مسجد مهرماه سلطان، عند أدرنه قابى = باب أدرنه، قد تحول فى «نور عثمانية» إلى شبه استجابة كاملة للآساليب المستحدثة فى مجال الزخرفة والتخطيط العمرانى [1].

يُعتبر جامع نور - عثمانية آخر عمل عظيم من أعمال العمارة الدينية العثمانية يُبنى تحت قبة واحدة، فخلال متصف هذا القرن أصبح التأثير الأوروبى ملحوظاً، إلا أنه كان قابلاً للإحتواء من قبل المعماريين المسلمين. .وحتى الزخرفة، وإن بدت باروكية بشكل سافر وواضح إلا أنها صارت باروكية اسلامية، ويملك المعماريون دائماً معارف تقنية فعلية، ويتميزون بروح ابداعية عند بحثهم عن صيغ جديدة فقطر القبة ٢٥,٧٥ متراً، وتحملها أربعة عقود كبيرة مدعمة بأربعة أبراج ركنية، ويقوم المبنى فوق قاعدة مبنية مرتفعة، أكسبت المسجد مسحة من السيادة والاشراف على المنطقة. ويبرز المحراب بوضوح خارج جدار القبلة. ويُغطى هذا الجزء نصف قبة غير مرتفع. .وتتكون الواجهة الخارجية للممرات الجانبية من طابقين بها عقود باروكية متماوجة. .يتم الصعود إلى المسجد بواسطة سلالم، والصحن ذو بوائك، نصف بيضاوى، ولا توجد به نافورة، والصحن له تسع قباب تواجه الحرم، تحملها أعمدة من البروفير، وتيجانها باروكية الاسلوب. أما صُفَّة المدخل فمغطاة بخمس قباب، متصلة بقباب الصحن. وترتفع عند ركنى صُفَّة المدخل مئذنتان لكل منهما مداران للمؤذن.

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧٦.

المسجد كله مغطى بالرخام، الأشكال الزخرفية تكسو جانباً كبيراً من جدرانه، ويدور بالقبة شريط من الكتابات القرآنية. تقرؤ به سورة الفتح، التى تبدأ من على يسار المحراب. وهناك كتابات آخرى قام بها خطاطون مشهورون. . والزخارف كلها بالاسلوب الباروكى المتأقلم مع الذوق الشرقى المسلم؛ فالعقود المتماوجة، والأشكال المحارية أو الصدفية، وورق الآقنت Akant، وتيجان الأعمدة المتمايزة، كل ذلك تمت معالجته بأسلوب يختلف عن الاسلوب الأوروبى الخالص، ولكنه يُشير إلى ميلاد اسلوب، وفن باروكى تركى مسلم جديد.

تزدان المقصورة السلطانية، والممر الملحق بها بافراط زخرفى مبالغ فيه، يتم الوصول إلى هذا المكان بسلم صاعد، يسمح اتساعه بمرور انسان فوق صهوة جواده، وإذا كان هذا السلم يقع فى الجهة الشرقية، فعلى الجانب الأيمن يوجد سبيل، كما توجد چشمه = منهل إلى يمين السبيل وبين الصحن الخارجى والسوق المغطى، وتشتمل هذه المبانى على مكتبة بيضاوية الشكل، وإلى جوارها ضريح ومدرسة جهة جدار القبلة وعمارة خيرية (=دارمرق)، واثنين وأربعين ومائة دكان للصناعات اليدوية التقليدية؛ ووزّاقة، وخطاطين. وكلها تقع داخل نطاق المبانى الكلية [١].

على الرغم من كل شىء، فإن جامع نور-عثمانية بملامحه الخاصة، وقبته التى يتجاوز قطرها الخمسة والعشرين متراً، وتخطيط المجمع الغير مألوف. . والتنوع الملحوظ فى طرز الزخارف، كل هذه العوامل مجتمعة عكست قدرة العمارة التركية الاسلامية على اظهار اسلوب جديد فى العاصمة خلال منتصف القرن الثامن عشر الميلادى الثانى عشر الهجرى.

وتزدان العاصمة استانبول بنموذج آخر، يدعم استيعاب الفنان المسلم للطراز الباروكى، ألا وهو مسجد لاله لى (Laleli) بمجموعته المعمارية الملحقة به، استمر البناء فيه من عام ١٧٥٩م-١١٧٣هـ حتى عام ١٧٦٣م-١١٧٧هـ. واشرف على العمل فيه المهندس المعمارى طاهر آغا بتكليف من السلطان مصطفى الثالث. وظل الجامع خرباً إثر زلزال ضربه سنة ١٧٦٥م-١١٧٩م حتى سنة ١٧٨٣م-١١٩٨هـ حين أصدر السلطان عبد الحميد الأول أمره إلى المعمارى سيد مصطفى آغا للقيام بالاصلاح، والترميم اللازم. وهذا الجامع يماثل نور-عثمانية فى كونه قائم فوق بدروم مرتفع، وطبقات متدرجة، هذا البدروم، بمظهره التعبدى الضعيف، قلل من فخامة المجمع، ولم يبلغ به درجة الاستفادة القصوى من هذا التدرج المتصاعد. المسجد من الداخل باهر الضوء، والحيوية، له شادروان، وصحن مربع، وعمارة خيرية، وتقع خلف المسجد مدرسة، وعدد آخر من المبانى كالضريح، والسبيل، ويتم الوصول إلى مقصورة السلطان بواسطة مدرج يمر بصحن الجامع، وبالطابق الأرضى سوق له قبو مرتفع يُستخدم فى الأغراض التى أُقيم من أجلها اليوم.

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧٧.

ومع الأتساع، والازدهار الذى شهدته العاصمة استانبول؛ لم تكن المبانى الدينية وقفاً على الجانب الأوروبى منها حيث سراى السلطان، والباب العالى، ومقار الوكالات = الوزارات، بل امتدت هذه المجاميع الإنشائية الدينية لتشمل الجانب الآناضولى من البوسفور. فقد أخذت الآعمال الإنشائية فى الظهور وفق الطراز الحديث فى هذا الجانب الأسيوى من البسفور؛ حيث أقام السلطان مصطفى الثالث جامع آيازمه « Ayazma » تخليداً لذكرى والدته مهرشاه عام ١٧٦٠م - ١١٧٤هـ. وقد أُقيم الجامع فوق ربوة تطل على المنطقة كلها، ووفق تخطيط داخلى تَرَسَّم نفس خطوات مسجد نور - عثمانية على حجم أصغر ولكنه أدق وأجمل. ويَظهر فى الجامع خليطاً من العقود المدببة، والمستديرة، والمتماوجة. ويتم الصعود إلى صفة المدخل بواسطة سلم رخامى نصف دائرى. ويقع المسجد وسط فناء له ثلاثة أبواب. على يمين المسجدنرى الجناح السلطانى. ومع أن الهدف من انشاءه كان كلية معمارية وتعليمية إلا أنه لم يبق منه إلى الأن إلا الچشمه على امتداد جدار المسجد.

لقد شهد عهد السلطان عبد الحميد الأول نهضة اعمارية فى مدينة استانبول، وكانت مجموعاته المعمارية؛ والتى تتكون من مسجد صغير، تُحيطه مدرسة كبيرة، وضريحاً وسبيلاً، وعمارة خيرية، وصفاً من الدكاكين، وخاناً. وكان البناء بالحجر المنحوت. والطوب. وقد نُقلت الچشمه والسبيل إلى ركن الجامع الباروكى الصغير الذى أمر السلطان أحمد الثالث ببناءه سنة ١٧٦٩م - ١١٨٣هـ فى مواجهة بستان كَلخانه تخليداً لذكرى ابنته زينب سلطان.

وأكبر المساجد التى أمر السلطان عبد الحميد الأول بتشييدها، هو ذلك الجامع الذى بُنى فى حى بَكلربَكى = بيلربى Beylerbeyi على الضفة الآناضولية من المضيق فى سنة ١٧٧٨م - ١١٩٢هـ وكان هدية لأمه رابعة سلطان. وهو ذو قبة واحدة ترتكز على عقود حاملة، ويبرز القسم الذى به المحراب عن الجدار بصورة واضحة، ويغطيه نصف قبة فطساء. وتقع المقصورة السلطانية فى الطابق الثانى، فوق صفة المدخل، والمسجد من الداخل يطل على البحر مما يضفى عليه رونقاً، وبهاءاً.. شمله نورانية ونور لانهائى.. ومع أن الجامع قد شيِّد بالطراز الباروكى الحديث، إلا أن الجدران قد كُسِيت ببلاط القيشانى المتوارث عن القرون السابقة، مما خلق نوعاً من التضاد، والتأثير المتباين.

ولقد أمر السلطان سليم الثالث ببناء مسجده سنة ١٨٠٥م - ١٢٢٠هـ على الضفة الشرقية من البوغاز، وبجوار معسكرات السليمية. والجامع مثله مثل جامع آيازمه ونور - عثمانية مبنى على أربعة عقود كبيرة حاملة للقبة، وفى الأركان الأربعة، توجد أربعة أبراج تُمثل تناسقاً وتناغماً مع ابراج المعسكر. وتم توزيع الأجنحة السلطانية قبيل جوانب المسجد، له مئذانتان رفيعتان أُقيمتا بالطراز

الباروكى . والمظهر الخارجى للجامع أكثر هدوءاً، وتناسقاً، وتأثيراً روحانياً عن جامع آيازمه . وقد أمر السلطان محمود الثانى فيما بين ١٨٢٢ - ١٨٢٣م = ١٢٣٨ - ١٢٣٩هـ بإعادة بناء المنارتين عقب تهدمهما .

الطراز الإمبراطورى :

عندما كانت السيادة للأسلوب الباروكى على منشآت استانبول كان هناك اسلوب جديد، تبدو ارهاصات تكونه؛ ألا وهو الأسلوب الإمبراطورى الذى يأخذ طريقه نحو بسط نفوذه على منشآت اوروبا لكن ذلك الطراز لم يظهر فى استانبول إلا فى أيام السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ - ١٨٣٩م = ١٢٢٣ - ١٢٥٥هـ) حين بنى السلطان مسجد النصر (Nusretiye Cam'ii) سنة ١٨٢٦م - ١٢٤٢هـ وسط معسكراته بمنطقة الطوبخانه . فكان هذا أول نماذج الطراز الإمبراطورى وأنجحها . وقد تكيَّف هذا الأسلوب ليساير الذوق التركى، وليقوم دليلاً على ظهور طراز مختلف عن الأسلوب الغربى الأصل . هذا المسجد وإن كان يذكرنا بجامع نور - عثمانية إلا أن النمط الباروكى قد اختفى فى هذا المسجد تماماً . القبة محمولة على عقود أربعة، وحنية المحراب بارزة ونصف دائرية . القبة ترتكز على رقبة عالية، تحيط بها مجموعة من الأبراج الصغيرة . وبالمسجد مجموعة من الخطوط الجميلة من ابداع الخطاط مصطفى راقم افندى . وتطل الاستراحة السلطانية الموجودة به على ميدان طوبخانه . النوافذ وغيرها من العناصر البنائية من هذا الأسلوب الإمبراطورى ذا الصبغة التركية الإسلامية .

وشهد عهد السلطان عبدالمجيد بناء مسجدين فى ضوله باغچه وحى أورطه كوى سنة ١٨٥٤م - ١٢٧١هـ، بنفس هذا الأسلوب الإمبراطورى، ولكل مسجد قبة واحدة، تعتمد على أربعة عقود لها أبراج ركنية . وأقيم مسجد ضوله باغچه من أجل «بَزْمِ عالم» ام السلطان . والمسجد يبدو كقصر رائع الزخارف، وله منارتان تشبهان الأعمدة القورنتيه . وهو يطل بشموخ على مياه البسفور .

وفى عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦٧ - ١٨٧٦م = ١٢٨٤ - ١٢٩٣هـ) كانت تسود بلاد اوروبا اسلوب فنى آخر خليط، يمزج بين كل الأساليب المعمارية من القوطى حتى الطراز الهندى . وقد انعكس هذا الطراز المعمارى الملز فى مسجد أم السلطان فى آقسراى فى استانبول وقد اسسته الملكة الأم برتونيال قادين عام ١٨٧١م - ١٢٨٨هـ .

وفى منطقة يلديز أقام السلطان عبد الحميد سنة ١٨٨٦م - ١٣٠٤هـ جامع مليىء بالزخارف والبهرجة، وهو يُعتبر أجمل نموذج لهذا الطراز الخليط ويسمى بالجامع الحميدى .

إذا كانت العاصمة استانبول قد شهدت نشاطاً معمارياً غير تركى الأصل فى عهدى السلطانين عبد الحميد، وعبد العزيز، وانتشرت المبانى الغربية باسلوب غريب بالكامل عن الذوق التركى.

إلا أن انتعاش الاتجاه القومى بزعامة المنظِّر ضياء كَوك آلب اعاد الحيوية والنشاط للفنون والعمارة، ويتحول المعماريون الأتراك بكل اهتماماتهم إلى الموضوعات العديدة التى تحتويها العمارة التركية. وتظهر على أيدى المهندس المعمارى الحديث كمال الدين (١٨٧٠ - ١٩٢٧م = ١٢٨٧ - ١٣٤٦هـ ومن بعده المهندس وداد. وكلاهما تلقى تعليمه فى اوروبا إلا أنهما استلهما الماضى وتركا تراثاً معمارياً كيلاسيكيًا حديثاً فى مدينة استانبول مثل خانات الوقف، ومسجد بستانجى، ومسجد بيك، ومسجد قمر خاتون فى حى تارلاباشى، وضريح السلطان محمد رشاد فى منطقة أبوب والإدارة المركزية لمكاتب البريد فى حى سركه جى، والبنك البحرى فى قره كوى، وتكونت من المهندسين الشبان مدرسة أعادت احياء العناصر الكيلاسيكيه كالعقود المدببة، والأعمدة المقرنصة والقباب والبلاطات المزخرفة. إلا أن المبالغة فى استخدامها أصاب الأسلوب الجديد بشىء من التدهور. وكان ظهور المبانى الخرسانية المسلحة الحديثة دافعاً لتخلى المعماريون نهائياً عن آساليب البناء التقليدية. والأخذ بالأساليب المعمارية الحديثة.

ب- الأضرحة العثمانية فى العاصمة استانبول :

للموت حرمته، والقبور هى دار الآخرة، والخلود لمحة من اللمحات التى أودعها الخالق فى نفوس خلقه؛ ومن هنا يحرص كل ذوى الشأن أن يتركوا من اللمسات ما يجعلهم يعيشون فى وجدان الأهل، والأحبة، وحرص الحكام أن يكون لهم حيز فى نفوس الرعية .

كان سلاطين آل عثمان حتى أيام الفاتح يدفنون فى العاصمة الأولى بورصة، أما الأضرحة التى بناها السلطان عبد العزيز عام ١٨٦٣م - ١٢٨٠هـ، فكانت بدائل لما تهدم هنالك من أضرحة لعثمان، وأورخان غازى . أول ما يُعتد به معمارياً من الأضرحة العثمانية فى العاصمة استانبول هو ضريح بايزيد الأول، فقطر قبته ١٠,٥٠ متراً، تحملها مثلثات منشورية، تقوم فوق جدران منخفضة نسبياً . وهذه الجدران مبنية من مداميك أو عرقات يتبادل فيها صف من الحجر مع صفين من الآجر . وفى مقدمة المبنى صف من البوائك، يحمله عمودان فى الوسط، ودعامتان فى الأركان، ويُغطى هذا الجزء ثلاث قباب . ويشير النص الكتابى إلى أن المنشىء هو ابن بايزيد . .وقع الضريح فريسة زلزال سنة ١٨٥٥م - ١٢٧٢هـ، ولكنه رمم، وجدد حسب الأصل فيما بعد .

والتربة الثانية ذات الشأن المعمارى هى تربة مصطفى ابن سليمان القانونى، والتى تسمى بتربة مصطفى الجديدة . وهى تتفق مع غيرها فى الاسلوب المعمارى . وأهم مايميزها هو البلاطات الخزفية التى تُغطى الجدران إلى ارتفاع ثلاثة أمتار، من اضافات السلطان سليم الثانى سنة ١٥٧٤م - ٩٨٢هـ، وهى من أفخر آمثلة الخزف العثمانى فى القرن السادس عشر الميلادى، العاشر الهجرى . وزخارف هذه البلاطات طبيعية للغاية، وتجمع بين أزهار؛ الزنبق، والتوليب ، والقرنفل، والفاونيا، وبراعم زهر الرمان، بألوان حمراء، وزرقاء، وخضراء، فوق أرضية زرقاء داكنة . ويدور مع الحافة العليا شريط عريض من الكتابات القرآنية تحتوى آية الكرسى، وذلك بالأبيض على الأرضية الزرقاء الداكنة . وباقى الترب الموجودة فى القرافة المرادية كلها بنفس الأسلوب .

ومما لا شك فيه أن الفنان المسلم قد استوحى من التراث الإسلامى عناصر الزخرفة النباتية من زهور وثمار مذكورة فى القرآن الكريم، كما أن الزخارف الخطية لم تخرج عن هذا السياج .

وبنيت مقبرة السلطان سليم الأول، خلف مسجده - كما هى العادة فى معظم الأحوال - وقد بناها ابنه سليمان القانونى، وتخطيطها مثمن من الرخام، وقبتها فطساء مضلعة، ورقبتها قصيرة، ولها صفة بها ثلاثة عقود محمولة على أعمدة، أما الحشوات الخزفية التى تزين الجدران حول القبة ففيها عودة إلى التعبيرات الزخرفية السلجوقية الحافلة بالنجمات الهندسية(١) . والأشكال المتشابكة داخل أشرطة

(١) فنون الترك وعمائرهم، أوقطاى آصلان آبا، ترجمة احمد عيسى، ص ٢٢٠ .

عريضة، والتصميمات التى تتوسط الحشوات تسودها آلوان من الأبيض والأصفر الواضح، والأصفر الباهت تحت الطلاء الشفاف. هذا إلى جانب وجود أوراق، وأفرع نباتية، ومراوح نخيلية، وتعبيرات من اللوتس على أرضية كوبلتية. وهناك على الحافات الضيقة تعبيرات من السحب الصينية، يمكن القول أنها تُشاهد لأول مرة. وتحمل اللوحة التأسيسية أن تاريخ البناء مكتوباً بالكلمات وهو ٩٢٩هـ - ١٥٢٣م.

أما السلطان سليمان القانونى، فقد دفن بالضريح الذى بناه له المهندس سنان ضمن مجمع السليمانية. وهذا المجمع الجنائزى يضم ثلاثة مدافن رخامية متجاورة. والمقبرة الوسطى من عمل سنان عام ١٥٧٧م - ٩٨٥هـ، وكانت لسليم الثانى بن سليمان القانونى، وقبتها ترتكز على مثمن مكون من ثمانية عقود، تحملها ثمانية أعمدة من الداخل.. قبة المبنى مزدوجة، وتستند الداخلية على الأعمدة، وتستند الخارجية على الجدران.. وتكسو هذه الجدران بلاطات خزفية من أروع ما أنتجت مدينة ازنيق، ورسمت هذه البلاطات بأشكال ازهار طبيعية، واوراق نباتية، إلى جانب أبيات من الشعر فى شريط بخط الثلث.

بلغ عدد مَنْ دفن فى هذه المقبرة - فيما بعد - أربعة وأربعون شخصاً، وقد انتزعت الحشوة الخزفية، التى إلى يسار المدخل من مكانها فى وقت متأخر.. ووجدت طريقها إلى متحف اللوفر فى باريس.. ومازالت به..!!.. فكيف..؟.. ولماذا..؟

والواقع أن الضريح العثمانى فى العصر الكيلاسيكى كما يبنيه سنان وتلاميذته، هو بوجه عام أوسع إلى حد ما من الضريح الذى بناه أسلافه، وغالباً ما نجد أن أضلاع قبته شبيهة بأضلاع ثمار القاوون.. وهذا الضريح المقسم إلى طابقين لا يستجيبان لأية متطلبات معمارية، أو المحاط برواق ذى أعمدة تدعم الأسقف المائلة التى تخترق خطه الضريح، وتنفتح عبر بوابة إلى افريز. إن هذا النموذج لما كان مكرراً فى عدد كبير من النماذج التى وصلتنا فى مدينة استانبول وغيرها من المدن، فإنه يستثير بشكل خاص اهتماماً عظيماً من حيث زخرفته الخزفية «مثل ضريح سليم الثانى، وضريح مراد الثانى»، لكنه لا يفتقر مع ذلك إلى محاولة كسر الرتابة، اعتماداً على النتوءات الغائرة، أو الكوى الصماء، مثل ضريح محمود باشا ١٤٦٣م - ٨٦٨هـ. أو التعاويق، أو أعمدة الزوايا الغائرة، أو قواعد النصب، مثل ضريح خسروباشا، وهو من عمل سنان ١٥٤٥م - ٩٥٢هـ. ومن الناحية المعمارية.. فإن الضريح الأكثر توفيقاً هو ضريح محمد شاه زاده، الذى بناه سنان أيضاً فى صحن المسجد الذى يحمل اسمه، فحجمه منسجم، وتوازنه تام، والنافذتان الموجودتان فى كل درجة من كل واجهة من واجهات المثمن تُضفى عليه كثافة وكمالاً.

كانت بداية عمل ضريح السلطان محمد الثالث على يد الغطاس أحمد آغا ثم أُتمها بعده

الصداف محمد آغا سنة ١٦٠٨م - ١٠١٧هـ . وتخطيطها مثمن من الداخل، والخارج . وتقوم القبة من الداخل على ثمانية أعمدة، وتعتمد الخارجية على الجدران مباشرة . ومع أن هذا الضريح يجاوره آخران، وأن الثلاثة قد نبعت كلها من أصول معمارية واحدة، إلا أن المعماريين نوعوا فى تكوينتها، ليخلق كلٍ لنفسه طابعاً خاصاً به .

أما الضريح الذى بنى ضمن مجمع السلطان أحمد عام ١٦١٩م - ١٠٢٩هـ . أى بعد ثلاث سنوات من بناء مسجده، بناء مربع يغطيه الرخام بالكامل . وأجمل ما فيه هو بابه المطعم بالصدف، وما يلفت النظر فيه هو البلاطات التى تزين الفراغات المحصورة بين النوافذ، وشريط الكتابات القرآنية ذو الأرضية الزرقاء . ويرقد فى هذا الضريح سته وثلاثون شخصاً بينهم السلطان عثمان الثانى، والسلطان مراد الرابع، ومؤسسها السلطان أحمد الأول، وزوجته خصكى كُوسم سلطان، وخلف المقبرة دار لقراء القرآن الكريم .

وقد استمر الاسلوب التقليدى فى عمارة المقابر والأضرحة والمساجد كما هو فى بداية القرن الثامن عشر، كما يوضح ذلك مسجد الوالدة الجديد فى اسكدار عام ١٧١٠م - ١١٢٢هـ ومسجد وضريح حكيم اوغلى على باشا ١٧٣٤م - ١١٤٧هـ . إلا أن بناء الأضرحة - شأنه فى ذلك شأن كل العمارة - أخذ يتجه نحو الاسلوب الباروكى مع منتصف ذلك القرن . ويُعتبر الضريح الذى بنى مع مسجد نور - عثمانية عام ١٧٥٥م - ١١٦٩هـ أقدم أمثلة الأضرحة التى تأثرت بالطراز الباروكى . وعدا النمط الباروكى العادى، فداخل التربة نرى شريطاً عريضاً من الكتابة، يعلو نوافذها، ومن فوقه شريط آخر من رسوم زخرفية باروكية تصل حتى القبة .

ويقوم ضريح مصطفى الثالث، فى جوار مسجد لاله لى (١٧٧٣م - ١١٨٧هـ)، وهو ذو عشرة أضلاع، وله صفة عريضة، مقدمته ثلاثية العقود، وتدور حول ثلاثة أضلاع من المبنى . وتحلية زخارف من ورق الآقنت باسلوب باروكى تسود جدرانه من الداخل والخارج، فى أعلى الحائط شريط كتابى، وسرر بيضاوية مسحوبة من طرفيها . .لتحلية الجدران فيما بين النوافذ . . يضاف إلى هذا رسوم من الطبيعة من ازهار القرنفل والشقائق الزاهية الألوان، وأشرطة من البلاطات الخزفية بها رسوم سحب صينية، واوراق نباتية ومراوح نخيلية، وتكون هذه الزخارف، مع ماهنالك من زخارف باروكية، خليطاً واضح الغرابة . .وكأن الفنان المبدع، فى الوقت الذى يأخذ بالجديد، لا يريد فى أعماق نفسه التخلى عن التقاليد والعنعنات التراثية، وقد دفن فى وقت متأخر فى هذا الضريح السلطان سليم الثالث إلى جوار والده [١].

---

(١) O.Aslanapa, Turk Sanati, s 285 - 289.

شهد عام ١٧٨٩م-١٢٠٤هـ اقامة ضريح السلطان عبد الحميد الأول، فى باغچه قاپى = (باب الحديقة) على يد المهندس المعمارى أحمد آغا. والضريح قائم فى أحد أركان المجمع المعمارى الذى كان قائماً، والمقبرة مربعة الشكل، مبنية من الرخام، زواياها مشطوفة، تقوم القبة فوق رقبة ثمانية، فوق عقود من الداخل. يزين ضلعين من أضلاع المبنى سبيل صغير رقيق، يبرز فيه الطراز الباروكى بوضوح. النوافذ تسودها الخطوط الكيلاسيكية المعمارية الخالصة. أما التفاصيل المعمارية الأخرى المسيطرة على صُفَّة المدخل الثلاثية العقود، وفى الأعمدة الثمانية، وتيجانها، فتكشف، وتنم عن أسلوب باروكى محجم، ومحدود. يشاهد الزائر شريطاً عريضاً فى الداخل من الكتابات، ونقوشاً بالقبة باروكية الطراز. والسلطان مصطفى الرابع مدفون إلى جوار أبيه فى هذا الضريح.

إن حى الصحابى الجليل أبى أيوب الآنصارى يحمل زخماً معنوياً كبيراً فى نفوس الأتراك منذ اكتشاف مقبرته عند الفتح المبين. .ولذلك لم يمض عصر دون زيادة، أو ترميم، أو تجديد، أو اضافة إلى مجمع المبانى الدينية، والتعليمية، والخيرية، والجنائزية حول ضريح أبى أيوب الذى كان تتم فيه مراسم تقليد السيف، واعلان البيعة للسلطان الجديد.

وفى عام ١٧٩٢م-١٢٠٧هـ. بنيت لمهرشاه سلطان، أم سليم الثالث، تربة رخامية ضمن مجمع أيوب، والتربة عبارة عن مدرسة، وسبيل، ومكتبة إلى جانب الضريح. البناء له اثنا عشر ضلعاً شبه مستديرة، وأسلوبها الباروكى منسجم، ومتناسق الملامح. أعمدته فى أركان المبنى ترتفع بقامة طابقين، وله صفان من النوافذ ذات العقود المتماوجة، وكرانيش ودعامات حلزونية طائرة، تدور حول القبة، ودعائم المبنى الداخلية التى فى الأركان من الرخام الأبيض، يعلو ذلك؛ شريط عريض من الكتابة، وكورنيش متدرج، وحليات باروكية الطراز من ورق الآقنت، وتتقدم المدخل صفة، وكل ذلك ينم عن اسلوب ناضج ومتناغم.

ولا نبرح مصاحبة الصحابى أبى أيوب قبل أن نطل على التربة الدائرية التى تخص شاه سلطان أخت سليم الثالث. ويجاور التربة سبيل ومدرسة وهى من ابداع المهندس المعمارى كامل آغا. وقد أبرز فيها الأسلوب الباروكى بكل تفاصيله وهيمنته؛ لهذه التربة أربعة عقود خارجية كبيرة، والأبراج تزين الأركان الأربعة، واجهتها تنطق بالحيوية بخطوطها البارزة، والغائرة. العقود كبيرة تميل قليلاً إلى الأمام، وكأنها رفرف بسيط. نوافذها طويلة، بيضاوية الشكل فى الطابق العلوى. والعقود المتماوجة تُميز الطابق السفلى.

التربة بطرازها الباروكى، تتناغم وتتوافق مع السبيل الباروكى الموجود بالواجهة المقابلة للشارع. والمزدان بزخارف كتابية، وورق الآقنت.

وعودة إلى محقق الفتح المبين، وإلى مجموعة مدافن مسجد الفاتح، لنجد هناك تربة رخامية بنيت عام ١٨١٧م - ١٢٣٣هـ. داخل فناء، مع مدرسة وسبيل، وهى تخص نقشديل سلطان، زوجة عبد الحميد الأول، وأم محمود الثانى، وهذه التربة من طابقين؛ تخطيطها دائرى. تتخلل الأعمدة ما بين النوافذ فى الطابق الأول. والسنادات بين نوافذ الطابق الثانى، القبة مضلعة تضليعاً خفيفاً. ترتكز على رقبة مرتفعة تُحيط بها سنادات، وأبراج صغيرة. ومع أن الأسلوب الباروكى واضح الملامح فيها؛ من انحناءات خطوطها، ومن كرانيشها الناقصة، وأوراق الأقنت المزدوجة التى تعلو الأعمدة، إلا أن بعض سمات الاسلوب الإمبراطورى بدأت تجد طريقها فى هذا الفن الجنائزى؛ فأشكال باقات الزهور فوق النوافذ البيضاوية، وفى صدر التربة؛ صفة تُغطيها قبة فى الوسط، وقبوان متعارضان فى كلا الجانبين. وتقوم الصفة، والقبة، والأقبية فوق ثمانية أعمدة. وبالداخل شريطاً من الكتابة يحلى رقبة القبة. وحليات من الباروك والروكوكو تزين القبة، وما تحتها من نوافذ بيضاوية.

الكتابات التى تُقرأ واضحة على التربة والسبيل، من عمل الراقن = الخطاط المشهور «راقم» وأخيه الأكبر اسماعيل زهدى أفندى.

ولقد اتضح الاسلوب الإمبراطورى بكل تفاصيله المعمارية فى تربة السلطان محمود الثانى، المقامة فى ديوان بولى = طريق الديوان عام ١٨٤٠م = ١٢٥٦هـ، وكلها مكسوة بالرخام وبالاسلوب الإمبراطورى. التربة مثمنة الشكل، وذات مظهر بديع من الداخل. والحيرة والتداخل بين المذاهب المعمارية تظهر وتتداخل فى المقبرة المثمنة، والخاصة بفؤاد باشا، والمجاورة للسلطان أحمد، فترجع لعام ١٨٦٩م - ١٢٨٦هـ. وتُشبه المقبرة الموجودة بجامع الوالدة فى آقسراى فى العاصمة استانبول. والعقود فيها على شكل حدوة الحصان، ورسوماً جدارية تملأ الجدران، بأسلوب مغربى، غير معروف بالكامل للعمارة التركية. ويظهر التحول الواضح عن الاسلوب المختلط فى المقبرة التى بناها المهندس كمال الدين عام ١٩٠٩م = ١٣٢٧هـ. فوق تل الحرية بمدينة استانبول لمحمود شوكت باشا، ففيه عودة إلى الذوق التركي الكيلاسيكي الأصيل.

العمارة المدنية فى استانبول بعد الفتح المبين :

أ- السرايات والقصور :

بعد أن فتح محمد الثانى القسطنطينية، وحوّلها إلى عاصمة ملكه، وتغيّر إسمها إلى استانبول، كان أول عمل قام به فى ميدان العمارة المدنية أن إختار مكاناً، لكى يُقيم فيه أول سراى لكى يكون قصراً للإقامة، وإدارة دفة الإمبراطورية. وجاء المكان فى وسط المدينة، فى الموقع الذى تقوم به الآن أبنية جامعة إستانبول، حيث ميدان بايزيد. .وقد آحاط المكان بسور منيف وهو نفس المكان الذى كان يُسمى « Forum Tauri ». ويمكن تتبع بعض آخبار هذا السراى من خريطة لتوزيع مواسير المياه فى القرن التاسع عشر، ومن النقوش التى ترجع إلى ما قبل ذلك.

غادر الفاتح إستانبول، وعاد إلى أدرنه، وعاد إلى الآستانة بعد سنة، فإذا بمعالم « القصر العتيق » قد اتضحت. كان عبارة عن منظومة معمارية متناسقة، فالسراى يضم مجموعة من القصور، واستراحات وأجنحة، وحمام، ومطبخ سلطانى، ومبانى مساعدة لإقامة الموظفين والحراس الذين يعملون فى السراى. ولما اتسعت الممالك؛ قرر الفاتح، وسيد العاصمة الجديد، بعد حوالى إثنتى عشر سنة من الفتح المبين، تشييد سراى جديد. .وقد إختار له اللسان الممتد فى البحر بين القرن الذهبى، وبحر مرمره، وفى موقع الأكروپول البيزنطى.

بدأت أعمال البناء فى السراى الجديد سنة ١٤٦٥م = ٨٧٠هـ وانتهت فى سنة ١٤٧٨م- ٨٨٣هـ. وقد بلغت المساحة التى شغلها المبنى سبعمائة ألف متراً مربعاً، وسُمى بالسراى الجديد، أو « طوپ قاپى سراى » أى سراى باب المدفع. ويحميه من جهة البر، سور ضخم بطول ١٤٠٠ متراً، ويتصل هذا السور بالسور البيزنطى المطل على بحر مرمره والممتد حتى القرن الذهبى، والسور بعد ترميمه قد دُعِّم بثمانية وعشرين برجاً. ويشتمل سراى طوپ قاپى على قصور، واستراحات ومساجد، وقاعات اجتماعات، ودواوين حكومية، ومكتبات ومعسكرات، ومبانى آخرى متنوعة. تدور حول أربعة أفنية كبيرة، يقع الواحد منها من وراء الآخر. وقد أخذ الموقع شكله الحالى بعد إضافة عدد من المنشآت الآخرى؛ كالمطابخ، وأجنحة الحريم، والأسبلة، والنافورات، والحدائق، على مدى سنوات وعصور متتالية، إذ ظل هذا السراى مقراً للسلاطين العثمانيين حتى القرن التاسع عشر الميلادى؛ الثالث عشر الهجرى، حيث انتقلوا إلى سرايات آخرى.

والسراى الآن بقصوره، وملحقاته متحف ينبض بالحياة. ولكن لكى نتصور كيف كانت تُدار منه أوسع إمبراطورية إسلامية لقرون عديدة، فلنتخير بعض الفقرات مما قيل فى وصف هذا السراى

حتى نقرب إلى ذهن القارىء المناخ الحضارى الذى كانت تعيشه استانبول؛ متمثلة فى سراى سيدها؛

(أن سراى طوپ قاپى هو مقر إقامة السلطان مع حاشيته، يحيط به سور عالٍ، قوى، عليه عدة أبراج للمراقبة. محيطة يقترب من ثلاثة أميال، له عدة بوابات، بوابته الرئيسية فخمة بكل معانى الكلمة، وتُفتح نحو المدينة، ووحدها هى التى تُستخدم فى الدخول، والخروج اليومى. .البوابات الآخرى مغلقة ولا تفتح إلا فى مناسبات، وبأمر السلطان، أو أحد كبار موظفى السراى. .

يحرس هذه البوابة الرئيسية كتيبة من القاپوجية = البوابين، تتَبدل نَوْباتهم. .خلال النهار، وفق نسق معيِّن، وكتيبةآخرى فى الليل. .يرأس الجميع «قاپوجى باشى» = رئيس البوابين = رئيس الحرس. .وبالقرب من السراى مقر لكتيبة من الإنكشارية مهمتها إيقاظ الحراس، ومن بداخل السراى إذا لزم الأمر. .

وهناك داخل هذا السراى قصور فخمة للسُكْنَى فى فصول السنة المختلفة. .وقاعات فسيحة. .وبها قاعة الديوان حيث يجلس السلطان للنظر فى شؤون الحكم، واستقبال الصدر الأعظم، وكبار رجالات الدولة، والوزراء، والقادة. والسفراء. .كما يستقبل السطان كبار موظفى الدولة المكلفون بمهمام خارجية، أو قادمون من مهام رسمية وذلك بهدف تقديم تقاريرهم. .أو لتلقى التعليمات. .

وثمة بنايتان عظيمتان؛ أحدهما للخزينة الهمايونية، والآخرى لملابس السلطان. .هذه المبانى جميلة جداً، منيعة البنيان. .سميكة الجدران. .حديدية النوافذ. .لكل منهما باب حديدى. .كلاهما مغلقان دائماً، أما باب الخزينة فعليه ختم السلطان. .

وبعد البوابة الرئيسة التى يدخل منها الزوار، وهم على صهوة جيادهم، يوجد فناء فسيح. .وعلى الجانب الأيسر من البوابة، توجد مظلة كبيرة للوقاية من المطر. .وعلى الجانب الأيمن؛ مستشفى لتطبيب من هم داخل السراى. .

بعد الفناء. .هناك بوابة آخرى. .أقل اتساعاً، وفخامة، يترجل عندها الضيف مهما كان مستواه. .يحرسها الحراس. .ومنها يلج الضيف إلى فناء أصغر، ولكنه أجمل. .وأروع بما يحتوى عليه من شتى أنواع الزهور، والنافورات، ومسيرات تحيط بها مختلف أنواع الأشجار، والمروج الخضراء التى تَرعى فيها الغزلان. .ولا يسير فى هذا الفناء أى انسان إلا ماشياً. .وعلى الجانبين؛ رواقان، وهما قائمان على عمد فخمة. . .وخارجهما جند التشريفة، والإنكشارية، والفرسان فى صفوف مستقلة، وفى ثيابهم المزركشة. .وهم على أهبة الإستعداد لإستقبال ذوى المهام الرسمية. .أو السفراء. .والرسل الذى سيمثلون فى حضرة السطان. .

وعلى الجانب الأيسر للفناء، الإصطبل السلطاني . .حيث يكون هناك ثلاثون أو خمسة وثلاثون جواداً من أحسن الجياد . .جاهزة للرياضة، أو التسابق مع النبلاء، والآغوات داخل ملاعب السراى . .

بالقرب من الإسطبل،عدة قصور صغيرة لإقامة موظفى الديوان، وبعد المرور من ثلثى الفناء . .توجد قاعة الديوان . .حيث تُعقد الجلسات . .ويلاصقها مبنى الخزينة الخارجية . .وتحمل ختم الصدر الأعظم . .وتختم دائماًعقب إنتهاء جلسة الديوان . .وخلف قاعة الديوان من الجهة الشمالية . .تقع البوابة التى تؤدى إلى قصور الحريم . .وتدعى هذه البوابة . .بوابة السُلْطَانة . .وتحرسها كتيبة من الطواشية السود . .

تؤدى هذه البوابة إلى القاعات الخاصة بالسلطان، وخلصائه وخدمه . .وغير مسموح لأى إنسان بالدخول إلى هنا، إلا بإذن خاص، من السلطان عدا الخدم فيكون الإذن من آغا الباب، أى رئيس الحرس الخاص . .أو رئيس الحُجَّاب . .ومعه كتيبة من الطواشية البيض . .

وبعد المرور من البوابة الثالثة . .ولها هى الآخرى مظلة جميلة . .تُشاهد قاعة الديوان العام . .

والديوان العام. .عبارة عن قاعة كبيرة مربعة الشكل . .خلفها غرفة أخرى للخدمة . .وآخرى عند مدخل الديوان من الجانب الأيمن . .ويفصلها حاجز خشبى فقط . .ومجموعة من الحجرات الأخرى الكثيرة تستعمل لشتى الآغراض . .وفيه يستقبل السلطان ذوى الحاجات . .ويفضى فى المظالم . .

والبوابات الثلاث، والتى تؤدى إلى داخل السراى هى؛ الباب السلطانى . .والباب الأوسط . . وباب السعادة . .وتَعرف المساحة بين الأول والثانى ب« **بيرون** » أى خارجى؛ وتشغلها ما تعرف بالخدمة الخارجية.

وتنقسم إلى ست فئات رئيسية :

فئة العلماء؛ وهى الطبقة الأعلى ثقافة، وتشمل علماء الدين، ومربى السلطان، ومؤدبوه، وأئمة القصر، ورئيس المنجمين، ورئيس الأطباء، ورئيس الجراحين، ورئيس أمراض العيون . ورئيس الأطباء أرفع مكانة من زميليه؛ فكان يرأس هيئة أطباء القصر، وكان بينهم بعض الأطباء اليهود، يعملون جنباً إلى جنب مع الأطباء المسلمين.

فئة الأمناء؛ وتتكون هذه الطبقة من أربعة أمناء، وهم من كبار موظفى السراى؛ كان كل واحد منهم، مع جهازه الإدارى، مسئولاً عن مصلحة من مصالح السراى؛ **فأمين العاصمة** = « امين شَهْرّ هو المسئول عن تشييد، وصيانة المنشآت السلطانية فى العاصمة . كما كان يقوم بوظيفة مدير القصور، ويشرف على شئوونها المختلفة؛ من صرف للمرتبات، ونفقات السراى، والقصور، وتوفير المأكل، والمشرب، والملبس لكل مَنْ فى هذه القصور . وجهازه الإدارى يتكون من ؛ رئيس المهندسين، ومفتش المياه، ومدير المخازن، والموظفين الآخرين المختصين بشؤون التموين، والصيانة .

ضربخانه أمينى؛ = أمين دار سك العملة؛ وهو يُعتبر موظفا فى الحكومة، والسراى معاً، بسبب طبيعة عمله.

أما الأمينان الأخران فكانا يُشرفان على مطابخ السراى، والقصور واصطبلاتها المتعددة..

فئة الموظفين فى الخدمة الخارجية؛ وكانت أكبر الفئات، وتتكون من آغاوات = قادة الركاب السلطانى، وقد أُطلق عليهم هذا اللقب لإمساكهم الركاب والعنّان عند ركوب السلطان جواده، وكان عددهم، ومكانتهم تتغير من فترة زمنية لأخرى،

يحدد قانون نامه محمد الفاتح مَنْ يدخل ضمن هؤلاء ب: **آغا الإنكشارية**، وست آغوات من آغوات كتائب السراى، وآغوات فرق المدفعية، والمدرعة، والعلمدار = حامل العلم = ميرعلم = قائد العلم، ورئيس حراس البوابات ومساعدوه، مدير الإصطبلات = ميرآخور، جاويش باشى = رئيس التدريب العسكرى، رئيس الذواقة = چاشنگيرباشى، ورئيس مدربى الصقور = چاكرباشى = منظم الصيد.

وكان هناك فئتى؛ **المتفرقة، والبلطجية**؛ وكانوا نوعاً من الحرس المختار من أبناء كبار الأعيان، وشكلوا طائفة المرافقين للسلطان، وهم راكبون صهوات جيادهم، ومسلحون تسليحاً جيداً، زيهم فى غاية الأناقة والرونق. ولكل منهم حاشيته الخاصة من المماليك، ،والمتفرقة؛ يكلفون بمهام خاصة بالإضافة إلى السير فى ركاب السلطان. أما البلطجية = آصحاب البُلْطْ» فكانوا فى الأصل نوعاً من فرق الطليعة فى الجيش. بعد فتح القسطنطينية، صاروا حرساً للسراى، بعضهم فى السراى القديم، والبعض الأخر فى السراى الجديد..وكان لبلطجية طوپ قاپى سراى إمتيازات خاصة بهم..كانت وظيفتهم تنحصر فى حماية الحريم، وكانوا يلبسون طواقى ذات زُءَابات تُصنع من قماش الدنتله الذهبى، فكانت تبدو وكأنها « خصلات » ومن ثم عُرفوا فى التركية ب « زلفى بلطجيه » أي البلطجية ذوى الخصلات، وكانوا تحت قيادة رئيس الطواشية البيض.

والبقية من رجال الخدمة الخارجية؛ يتمثلون فى العديد من الفرق الصغيرة، وبعض آصحاب المهن؛ كالرماة، وحرس المناسبات الرسمية = التشريفات، والإحتفالات، ومواكب الصلاة، وحرس الحاشية، والمدربون العسكريون، والسعاة، والحجاب، والمناولون والفرقة الموسيقية، وحملة البيارق، وآصحاب الحرف كالطباخين، والخبازين، والخياطين، والإسكافية..وعدد لا يحصى من ذوى المهن التى تحتاج إليهم خدمات السراى والقصور.

كان **الفناء الأول**؛ المحصور بين الباب السلطانى، والباب الأوسط يحتوى على مجموعة كبيرة من المبانى، كمساكن الحرس، وعنابر الجند، ومخازن الذخائر، ودار سك العملة، كان هذا القسم

مفتوحا لعامة الناس. **أما الفناء الثانى**، المحصور بين الباب الأوسط، وباب السعادة، فقد كان مفتوحاً فقط لأولئك الذين يخدمون فى السراى. كما كانت مساحته الواسعة تسمح بإقامة الإستعراضات العسكرية، والمناسبات الرسمية. وأهم مبانيه؛ الخزينة، وقاعة مجلس الديوان. .حيث كان يُعقد بها الديوان، ويُستقبل فيها السفراء، وكبار الزوار، والضيوف. .

كانت **قاعة الديوان**؛ أقصى ما يُسمح للزائر الأجنبى بتجاوزه، باستثناء السفراء الذين كانوا يستقبلون رسمياً.

عبر **باب السعادة**، كان يقع الأندرون أى القسم الداخلى. ويضم؛ قسم الحريم الهمايونى، أى جناح سيدات السراى، والوصيفات، والجوارى. .

وخلف باب السعادة؛ كان **الفناء الثالث والرابع**. .وفيهما عدد من الأفنية الجانبية، ومجموعة من المبانى. وكان الطواشية هم الذين يقومون بالخدمة الداخلية حتى القرن السادس عشر الميلادى، العاشر الهجرى. وسواء الطواشية البيض، ويرأسهم ال « قابى آغاسى » أى آغا الباب، أو الطواشية السود، ويرأسهم ال « قيزلر آغاسى » أى آغا الفتيات، فقد كان لهم نظامهم الخاص بهم. .

ثم حلَّ محلهم الوصفاء؛ وكانوا من « الديوشيرمه » الذين أُدخلوا فى الإسلام، وتربوا داخل مدارس السراى، وتدربوا على العمل فى خدمة السلطان، والسراى، وكان يُطلق عليهم فى بعض الفترات التاريخية، « **عجم اوغلانلرى** » أى آبناء الآعاجم أو أبناء الأجانب غير المسلمين أصلاً. وكان لهم نظامهم الخاص بهم فى الترقى، ومنهم مَنْ وصل إلى مرتبة الصدر الآعظم كمحمود باشا الذى ظل فى منصبه كصدر أعظم فيما بين ١٤٥٣ - ١٤٦٦م وغيره كثيرون. . .

ومما تجدر الإشارة إليه، لما يحمله من سمات حضارية، كيفية انعقاد الديوان فى عاصمة الإمبراطورية ؛

مكان الديوان. كما سبقت الإشارة. يقع بين الباب الأوسط، وباب السعادة. وهو عبارة عن قاعة فخمة ملحق بها عدد من القاعات الأصغر؛ يجتمع المجلس = الديوان السلطانى (ديوان همايون) فى قاعة القبة الشهيرة. ومما جاء فى وصف هذا المجلس:

أنه كان يجتمع أربعة أيام فى الأسبوع؛ السبت، والأحد، الأثنين والثلاثاء. ويرأس الإجتماع الصدر الأعظم، ويحضره باقى الوزراء وقاضى الروميلى، وقاضى الآناضول، والدفتردار، ورئيس الكتاب والنشانجى = حامل الأختام، وكتاب جميع الوزراء، وعدد كبير من النسَّاخ، ورئيس الجاووشية، ويحضر الجميع إلى الديوان قبل طلوع الشمس.

يجلس الصدر الأعظم فى صدر المجلس، وحوله بقية الوزراء حسب القواعد، والأصول المرعية عن يمينه، وعن يساره . . ثم يدخل أصحاب المطالب لعرض مطالبهم؛ يفض الصدر الأعظم فى بعضها، أو يحيلها إلى الوزير المختص بعد أن يكون قد سمع من صاحب الشأن مباشرة . ويفعل القائمقام نفس الشىء فى حالة غياب الصدر الآعظم . يقضون وقتهم على هذا المنوال حتى الظهر . .

بعد تناول الغذاء، يقضى الصدر الأعظم بعض الوقت فى بحث الشؤون العامة، ويتشاور مع الوزراء، ثم يبت فى الأمور، قبل أن يمثل بين يدى السلطان فى يومى الأحد والثلاثاء، لتقديم تقريره عما حدث، وعما أُنجز من مهام . . ثم يُسمح للقضاة، وبعدهما يُمثّل الدفتردار، وبعد ذلك يمثل مجلس الوزراء أمام السلطان، ولا يتكلم إلا الصدر الأعظم الذى يُعطى بياناً عما أنجزه المجلس، وعما يراه مناسباً ويعرض مذكراته، أو عرائضه واحدة تلو الآخرى، وبعد أن يقرأها السلطان، يأخذها الصدر الأعظم، وبعد وضعها فى حقيبة من الستان الأحمر = القرمزى، يضعها مرة آخرى أمام السلطان، الذى يأمر بكتابة الخط الهمايونى = الفرامان، لتنفيذ ما يقتضيه الأمر . .بعد الإنتهاء من المهام، ينفض مجلس الديوان، ويغادر أعضاء المجلس حسب نظام دقيق، ويركب الجميع خيولهم عند الباب الثانى، وينصرف كل بركابه حسب رتبته، ومنزلته .

كان أسلاف السلطان يحبون أن يحضروا هذا المجلس، ويسمع لهم بذلك، وكان أحياناً يتم ذلك بشكل سرى، ويتابع ما يحدث فى الديوان . . وقد ضمن ذلك حسن سير الأمور .

فى العهود الأولى، ترأس السلطان نفسه مجلس الديوان، ثم تخلى محمد الفاتح عن هذا التقليد للصدر الأعظم، وكان يتابع المجلس من خلف الستار، وظل الأمر كذلك حتى عصر السلطان سليمان القانونى الذى إمتنع عن حضور مجلس الديوان حتى على هذا النحو، وتركه تماماً للصدر الأعظم الذى كان قد بدأ فى رئاسة الإدارة المدنية، والعسكرية . . ولكنه لم يقترب من الإدارة الدينية .

كانت الشؤون المالية تحت الإشراف المباشر للصدر الأعظم، **فالدفتردار** الكبير جاء إسمه فى قانون محمد الفاتح بعد الصدر الأعظم مباشرة، وكان يتلوه فى الرتبة، وله حق الدخول على السلطان الذى يقف له ليحييه حسب القانون . . وبمرور الزمن أصبح للروميلى دفترداراً وللأناضول دفترداراً، وأضيف لهما ثالث فى القرن السادس عشر، وكان هؤلاء الثلاثة أعضاء فى الديوان، ويختارون من طبقة العلماء . .

لم يكن **شيخ الإسلام** يحضر جلسات الديوان، بل يكتفى بحضور قاضيا عسكر الروميلى، والأناضول، وكان كلاهما عضواً كاملاً فى الديوان . وذلك حفاظاً على مهابة شيخ الإسلام الذى كان يجلس فى التشريفات، والمراسم العامة بجوار السلطان، وكان شيخ الإسلام بإستطاعة إصدار فتوى بخلع السلطان إذا ما رآه يخرج عن الشرع .

كما كان **النشانجى**، وهو الموكل به ختم الأوراق الرسمية بطغراء السلطان، عضواً كاملاً فى الديوان، وكان يختار من بين كبار قضاة الدولة، ومن طبقه كبار العلماء وهو الذى يصادق على الصفة القانونية . للوثائق قبل ختمها بالطغراء . وهو المرجع لقوانين الإمبراطورية، والمنوط به صياغة القوانين الجديدة .

ثم إنضم إعتبارا من القرن السادس عشر، **رئيس الكتاب**، أى رئيس أفندى، وكان بمثابة السكرتير الرئيسى لمجلس الديوان، ورئيس مكتب الخارجية، وتحت الإشراف المباشر للصدر الأعظم، وضمن مهامه، إدارة العلاقات الخارجية مع الدول الأجنبية، ويساعده فيها رئيس المترجمين فى الديوان .

كان رئيس الكتاب، ورئيس المترجمين، والباشجاويش = رئيس التدريب العسكرى، ورئيس الحجاب، يجلسون فى حجرة مجاورة للديوان ويشتركون فقط حينما يدعون لذلك[1] .

بهذا الشكل المحكم فى الإدارة، وتحديد المهام، والمسئوليات استطاعت العاصمة - ومن خلال السراى أن تفرض سيطرتها على كل الولايات، وأن تجعل الإدارة المركزية ملمة بكل دقائق الأمور، وأن تضمن العدل والمساواة بين الرعية فى أغلب الأوقات، ولم يحدث الخلل إلاَّ فى مراحل الضعف، والتدخل الأجنبى، وفساد الحاشية .

ولا شك أن الموقع الفريد للأكروپول البيزنطى، القديم، والقائم على قمة تهيمن على القرن الذهبى، وبحر مرمره هو الذى سمح لافتتان السلاطين به، وبالتطور المتواصل الذى حرصوا عليه، لكى يبقى مجمع السراى الفخم محتفظاً برونقه، ومهابته . .

إن **طوپ قاپى سراى** الذى يُغطى مساحة سبعمائة ألف متراً مربعاً، والذى جرى البدأ فى تشييده فى القرن الخامس عشر ولم يتوقف العمل على تطويره حتى القرن التاسع عشر، وهو يشهد على تطور العمارة المدنية الإسلامية، والزخرفة العثمانية على مدار أربعمائة سنة . . هذا السراى الآن، تفصله عن الشاطىء الأسوار البيزنطية القديمة، وعن المدينة سور تركى طوله ما يزيد عن ١٤٠٠ متراً، ومستند على الأسوار الأولى، يُدعمه ثمانية وعشرون برجاً . . يتم الوصول إليه عبر سبعة أبواب عظيمة، الباب الرئيسى يطل على مداخل كنيسة الآيا صوفيا، وفى طرفه الأقصى، الباب الذى قد أمر بتشييده السلطان سليمان القانونى، هو باب الوسط، أو باب السلام، وكما سبقت الاشارة، يوجد **الصحن الثانى** الذى يفضى إليه من اليسار « باب الموتى » . ومن اليمين مطابخ سنان، وهو يُعتبر أجمل عمل معمارى فى هذا السراى قاطبة، إذ هو عبارة عن قسم رئيسى واسع مغطى بعشرين قبَّة،

---

(١) استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية، تاليف، برناردلويس، ترجمة وتعليق الدكتور / سيد رضوان . الطبعة الثانية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م - ص٩٥ - ١٢٦ .

ومداخن عالية، كان يعمل فيه ما يزيد عن ألف شخص مكلفين بإعداد الطعام لنحو خمسة آلاف من المقيمين فى السراى.

على الزاوية الشمالية - الغربية، مازالت **قاعة المجلس** «قبة آلتى» والتى ترجع إلى القرن السادس عشر، ويفضى باب ثالث، هو باب السعادة إلى المنطقة التى كانت تستخدم كسكنى، وأقدمها مبنى الخزانة حالياً والذى كان قصراً للفاتح.. ويرجع إلى سنة ١٤٦٨م - ٨٧٣هـ وهو مبنى بسيط، ولكنه متناسق؛ يتألف من أربع صالات ذات قباب، ويشكل رواق خارجى إمتداداً لها. ثم مسجد الأغوات الذى يرجع إلى القرن الخامس عشر.

والأكثر إثارة للإهتمام هى القاعة المخصصة **للأمانات المقدسة**، وهى مخلفات النبى ﷺ، والتى نقلها سليم الأول من مصر سنة ١٥١٧م - ٩٢٣هـ، وهى تحفة فنية فاتنة من تحف الزخرفة الخزفية. تشرف بعرض هذه الأمانات فى الوقت الراهن. ثم يتلوها «**قاعة الإستقبال**» عرض أوضاسى التى بناها داوود آغا عام ١٥٨٥م - ٩٩٤هـ ثم قصرى بغداد ١٦٣٨م - ١٠٤٨هـ وقصر روان ١٦٥٣م - ١٠٦٤هـ، وقاعة الختان (سُنَّت أوضاسى) التى ترجع إلى سنة ١٦٤١م - ١٠٥١هـ، ومكتبة أحمد الثالث ١٧١٨م - ١١٣١هـ. ثم المظلة البرونزية الرشيقة، والتى ترجع إلى سنة ١٦٤٠م - ١٠٥٠هـ والواقف تحتها يجد نفسه أمام واحد من أجمل مناظر السراى قاطبة. ولا ينبع جمال هذه القصور، والأجنحة من خصائصها المعمارية فقط، بل يقدر ما ينبع من زخارفها الرخامية، والخزفية.

وأجمل ما يشهد على هذا الرونق هو **كشك بغداد**. «قصر بغداد» فهو مبنى ثمانى الزوايا، تحت قبة، يطوقُ رواقاً على أعمدة رخامية، مع أفريز واسع فسيح، وتخترقه إثنتان وعشرون نافذة، تكسوها طبقة لَّامعة من الخزف الأزرق، والأخضر على أرضية بيضاء..

أما «**الحرملك**» سكن الحريم، فقد كان متاهة معقدة من الأروقة والسلالم، والأقنية الضيقة التى تضم أكثر من مائتين غرفة ذات أبعاد متفاوتة، مزدانة بشتى أنواع الزينة التى تنم عن بذخ مبالغ فيه؛ فغرفة مراد الثالث ١٥٧٨م - ٩٨٦هـ والتى تنسب إلى سنان، تتجاوز كل الطرز المعمارية المتعارف عليها.. فمن الكيلاسيكية إلى الطراز الإمبراطورى، وحيث تمتزج خزفيات إزنيق الجميلة بالرسوم الجدارية التى تقدم أجمل نماذج الباروك العثمانى.

أما النوافذ عامة ونوافذ القصور خاصة، فشأنها شأن نوافذ المساجد فهى تغلق بشبابيك زجاجية مؤطرة بنتوءات من الجبس، حافظت عليها عمليات الترميم التى مرت عبر العصور..

لم يغفل الفنان المسلم، توفير كل أسباب الراحة فى كل أقسام السراى بما وفره من مراحيض،

ومناهل المياه، والمغاسل، والحمامات، والمدافيء والمداخن الجميلة المكسوة بالبرونز المطلى بالذهب، أوالخزف، والتى تحقق ظهرياتها المزخرفة، والمكسورة الزوايا شكلاً مخروطياً بالغ الامتداد.

لا يعدم المشاهد لهذه الروائع الفنية، عند تجوله في أقسام هذا السراى الذى تحول فى العصر الجمهورى إلى متحف. نماذج الأثاثات النادرة فى العالم الإسلامى، والتى تبرز عن جدارة تفرد الفنان المسلم، فالموائد المنخفضة المطعمة بالمركيزى، والخزانات، والصناديق البديعة الصنع، والتى تبعد كل البعد عن التدخل، أو التأثير الأوروبى.. وإن كان فن التصوير للقرن الثامن عشر قد يبدو هناك جديداً، ومستحباً، كما هو الحال فى قصور السكن، وقاعة تناول الطعام التى ترجع إلى عهد أحمد الثالث (١٧١٠م - ١١٢٢هـ فإن المصوِّر الرئيسى فيها هو صحاف الفواكه والمزهريات التى تزدان بها الجدران.

تزدان مدينة استانبول بسرايات أخرى عتيقة، تتمثل فيها روعة الحضارة الإسلامية.. فمن منَّا لا يقف مبهوراً، وشامخاً أمام ....

ضولمه باغچه سراى: أي سراي حديقة ضولمه:

وهو أكبر سراى، قد أقيم فى حى بشيكتاش على الساحل الأوروبى فى مدينة إستانبول. الساحة التى تنتشر عليها ملحقات السراى وقصوره يمتد تاريخ تزينها، وإعمارها بالقصور منذ زمن السلطان بايزيد الثانى.. ثم ألحق به القصر الذى شيده السلطان سليم الثانى تمت عليه توسعات، وأضيفت له ملحقات منذ زمن السلطان أحمد الأول، وعثمان الثانى.. وعلى مر العصور، إحتشدت السرايات والقصور فى المنطقة الممتدة من «يشيكتاش» حتى «ضولمه باغچه». ولقد اكتملت كل منشآت السراى وملحقاته فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر (سنة ١٨٣٥م - ١٢٥١هـ)

يعتبر هذا السراى تحفة فنية معمارية، وكل قصر من قصوره، يعتبر نموذجاً فريداً فى فن المعمار الإسلامى؛ فعلى البوسفور يطل القصر الصينى.. حيث غُطت الجدران بأجمل القطع الخزفية التى أبدعها الفنان المسلم، وإلى جواره تحفة أخرى هى القصر الكبير الذى يشكل الأساس الأول للسراى، ثم يتلوه قصر العِمْدان الرخامية، وقصر المابين.. وقاعة الديوان.. وجميعها تشكل منظومة معمارية، تعترف للفنان المسلم بالقدرة والتفرد.

أقسام السراى، كما هو متعارف عليه فى العمارة الإسلامية للسرايات يشتمل على قصر والدة السلطان، وقصر آغادر السعادة، وقصر السلحدار، وقصر الخزيندار، والجناح الخاص.. وجناح الخزينة.. وجناح رئيس الأطباء.. والحراملك.. وجناح الخونكار. السلطان وقد أقيم على أعمدة رخامية رائعة الجمال، تربط ما بين الدهاليز والأقسام الأخرى للجناح.

بعد أن أقام السلطان عبدالمجيد مدة بهذا السراى، أمر بهدم قصر بشيكتاش القديم، وأقامه قصر ضولمه باغجه الحالى مكانه. وقد بدأ العمل فى هذا السراى الجديد سنة ١٨٥٤م - ١٢٧١هـ وتكلف خمسة ملايين ليرة ذهبية آنذاك.

وعلى الرغم من أن هذا البناء الجديد قد إزدان بشتى الزخارف والأساليب المعمارية، والزخرفية السائدة فى القرن التاسع عشر إلا أنه فى العديد من قصوره، وأجنحته قد حافظ على الطابع المعمارى القديم الذى يشهد بالعظمة، والنبوغ، والتفرد للفنان المسلم.. فالمنظر العام للسراى، وقاعة الإستقبالات المرتفعة وسط البناء، والدهاليز المغطاة، والتى تربط بين القاعة، وبقية الأجنحة والقصور تشكل جميعا منظومة معمارية فريدة.

إن واجهة السراى التى تمتد من دائرة المابين - والتى تحولت حالياً إلى متحف لأعمال الرسم والنحت - حتى قصر ولى العهد يصل طولها ٢٨٤ متراً، أما قصر والده سلطان المتعامد على هذه الواجهة، والمرتبط ببقية المبانى من القسم الخلفى فطوله ٩٥ متراً.

يكون السراى بكل مشتملاته مائتين قاعة. وبقصر المابين، وجناح الخونكار= السلطان وحدهما ثمانية صالونات ضخمة يحمل كل صالون اسم يميزه عن الصالونات الأخرى. أصغر هذه الصالونات بطول ٤٣ متراً وأوسعها صالون الإستقبال إذ يبلغ طوله ٤٧ متراً.

أما صالون المعايدة بهذا السراى، فهو بنقوشه، وأبعاده، وزخارفه ومحتوياته، يشكل معزوفة فنية مرهفة الجمال.. كان السلطان يستقبل فيه كبار الزوار وأركان الدولة ورجالاتها للمعايدة. وخلال الاستقبال كانت الموسيقى تعزف من اللوجات التى تعلو الصالون. وكانت سيدات القصور والأجانب يتابعون هذه الاحتفالات من المقصورات المخصصة لكل منهن.

ويشتمل هذا القصر على قاعات قد شهدت أحداث تاريخية مهمة، مما جعل لها أسماء مهمة فى التاريخ، فهناك مثلاً «صوماكى صالون» = الصالون الرخامى الأحمر وقد كان السلطان يستقبل فيه كبار زوار الدولة، كما أن رؤساء الجمهورية فى العصر الجمهورى كانوا يستقبلون فيه رؤساء الدول الأجنبية.

وهناك أجنحة وأقسام أخرى مسماة فى هذا القصر، فهناك «الجناح الخاص، وجناح الوزير، وجناح الانتظار». وفى قسم المابين = البلاط، فى الدور العلوى، وفى الناحية المطلة على الحديقة يوجد جناح الموسيقى = قاعة الموسيقى. فى نفس المحاذاة، وفى قسم الخونكار= السلطان توجد القاعات التالية، الغرفة الرئيسية، وغرفة المرايا، وقاعة الرسم، وقاعة الملابس. وكان يطلق على الصالون الكبير المزود بالمدافىء اسم «القاعة الحمراء».

وكان يوجد سلم كبير وأربعة سلالم أخرى ذات درابزين = قضبان زجاجية تؤدى إلى الطابق الأعلى من صالون مدخل البلاط الكبير، هذا بالإضافة إلى ستة سلالم أخرى للخدمة. ولما مرض مصطفى كمال أتاتورك وخلال اقامته فى هذا الجناح تم تركيب مصعد به. وللسراى ما يقرب من عشر بوابات تطل على البحر والشارع المجاور. وكانت إحداها تقع على شارع خط الترام. كما توجد بوابتى السلطنة فى ناحية برج الساعة.

لقد نال سراى ضولمه باغچه عناية خاصة من ناحية الزخرفة الخارجية والداخلية على حد سواء. وقد استخدم فيه نوع خاص من الرخام المستخرج من جزر مرمره، هذا إلى جانب الرخام الزجاجى، وأروع وأغلى الخامات المعروفة عالمياً.. وقد شارك فى زخرفته فنانين من إيطاليا وفرنسا جنباً إلى جنب مع الفنانين الأتراك المسلمين.

ورغم ما تعرض له طراز هذا القصر من انتقادات، فهو يعتبر واحد من أجمل سرايات العالم وأكبرها والتى شيدت فى القرن التاسع عشر. وهو صورة طبق الأصل لأعظم السرايات الأوروبية، وقد زوده السلطان عبدالعزيز خلال جولته فى أوروبا بأجمل، وأندر، وأروع التحف، والأثاث. كما يحتوى هذا السراى على مجموعة فريدة من اللوحات والصور التى جمعها هذا السلطان من أوروبا أو استخدم أشهر الرسامين فى رسم البعض الآخر. هذا علاوة على الثريات، والشمعدانات والساعات النادرة الصنع.. كما يحتوى صالون المعايدة على نجفة تزن أربعة أطنان ونصف الطن، وبها سبعمائة وخمسين لمبة، وقد قدمتها الملكة فيكتوريا هدية بمناسبة بناء هذا القصر.

لقد أقام السلطان عبدالمجيد معلن التنظيمات فى هذا السراى لمدة ست سنوات، وتوفى به. كما قضى السلطان عبدالعزيز فترة حكمه التى بلغت خمسة عشر عاماً بين أركانه، وشهد عملية خلعه عن العرش على يد مدحت باشا ورفاقه.. وأتم السلطان مراد الخامس مدة سلطنته التى لم تتجاوز الثلاثة شهور بين جدرانه. وبعد أن أقام السلطان عبدالحميد الثانى به سبعة أشهر، تركه، وانتقل إلى سراى يلديز.

كما افتتح السلطان عبدالحميد الثانى فى ١٩ مارس سنة ١٨٧٧م - ١٢٩٤هـ أول مجلس للمبعوثات فى صالون المعايدة فى هذا السراى وجلس السلطان محمد رشاد الخامس بعد أن اعتلى العرش بدلاً من السلطان عبدالحميد الثانى فى هذا السراى(١).

ولما زار مصطفى كمال أتاتورك استانبول كأول رئيس للجمهورية فى الأول من تموز - يوليو سنة ١٩٢٧م - ١٣٤٦هـ تحدث فى هذا الصالون مخاطباً أعضاء مجلس الأمة، والقادة العسكريين،

---

(١) Turkiye Ansiklopedisi, Cilt, II. Ankara, 1956,s 188 -190.

وممثلي المدينة قائلاً « . . إن هذا السراى لم يعد سراى ظل الله، بل أصبح ملكا للأمة التى ليست ظلاً بل حقيقة » . كما استقبل أتاتورك فى صالون المعايدة بهذا السراى، أول مجمع لغوى . وحضر معهم أول اجتماع به .

لقد قضى مصطفى كمال أتاتورك أيامه الآخيرة فى هذا السراى، وقضى نحبه فى الغرفة رقم ٧١ فى اليوم العاشر من شهر نوفمبر سنة ١٩٣٨م - ١٣٥٧هـ . وأقيمت مراسم الوداع فى صالون المعايدة .

وقد أجرى رؤساء الجمهوريات، آتاتورك، وعصمت اينونو، وجلال بيار محادثات سياسية، ولقاءات مهمة مع العديد من رؤساء الدول فى السراى .

وتعتبر القصور الكبيرة التى بناها السلطان عبدالمجيد، وعبدالعزيز فى عدة أماكن بضواحى إستانبول، فإلى جانب ضولمه باغچه، بنى السطان عبدالعزيز قصراً صيفياً سنة ١٨٦٥م - ١٢٨٢هـ هو قصر بكيلربك أى قصر أمير الأمراء، ثم قصر چراغان عام ١٨٧١م - ١٢٨٨هـ، فى موقع قصر قديم لم يكن قد تم بعد . . أما قصر يلديز الذى تم بناؤه فى القرن التاسع عشر، فيتكون من عدة أجنحة، ثم زاد فيه السلطان عبدالحميد الثانى، وأضاف إليه شاليهاً، ومظلة، وعدة أكشاك، ثم اتخذه مقراً لحكمه . وكان السلطان عبدالحميد الثانى من هواة النجارة ومارسها ببراعة ودقة، ولذا أضاف للقصر بعض الورش ومسرحاً، ومكتبة غنية .

وإذا ما تركنا السرايات، والقصور، والشاليهات واتجهنا إلى البيت التركى الذى يمثل غالبية الأحياء فى مدينة إستانبول قديماً، فنجده إمتداداً للطراز المعمارى التركى، والسلجوقى، فهو فى الغالب يتكون من طابقين، وسط حديقة، وبدروم، وجناح استقبال= « سلامليق »، وأجنحة للحريم، ومطبخ، وبهوين، يطلان من خلال صف من العقود على الحديقة . وتزخرف بواطن الأسقف بزخارف هندسية متشابكة، وأخرى مرسومة، ومثلها مصاريع الأصونة، والأدراج، وحنيات أرفف الكتب .

وكان أثاث المنزل التركى فى العادة من أريكة عريضة، ومنخفضة وعدد من الطنافس لتغطية الأرضيات، وحشيات تنثر فوق الأرائك(١) .

O.Aslanapa, Turk Sandte. S. 292 - 297. (١)

ب- الحمامات ومناهل المياه:

١ -الحمامات :

لم يغفل التخطيط العمراني لمدينة إستانبول، وتوسعاتها تكملة العمارة المدنية اللازمة لراحة الرعيَّة. وقد كان لكل حى حمامه أو حماماته، للرجال وللنساء على حد سواء، وهى أماكن لقاء يقضى المرء فيها ساعات طويلة للراحة، ولتجاذب أطراف الحديث، جنباً إلى جنب عمليات الغسل، والتطهر، والنظافة. فالحمامات لها وظائف اجتماعية لا يغفل تأثيرها على المجتمع، ولذلك ساهمت هذه الوظيفة الاجتماعية على العناية بها، وتطويرها، بل واضفاء طابع باذخ عليها.

ولقد كان كل مجمع سلطاني في إستانبول يضم واحداً على الأقل من هذه الحمامات. فأقدم السجلات تبين أن جامع الفاتح وجامعته كان بهما حماماً. ولكن لم تمدنا النقوش بتخطيط هذا الحمام. وما يمدنا بهذه المعلومات نقوش ترجع إلى حمام النبع الجديد، وأنه قد تأسس عام ١٥٥٣م- ٩٦٠هـ على يد الصدر الأعظم رستم باشا، في عهد سليمان القانوني. وينم تخطيطه عن أسلوب بالغ التطور، فبعد غرفة تغيير الملابس، والغرفة الدافئة بقبتها، وبالإمتداد الحاصل بأنصاف القباب، يمر الداخل إلى الغرفة الساخنة من خلال غرفة موصلة، تُغطيها قباب ثلاث صغيرة ومتجاورة. وتحتوى الغرفة الساخنة على حوض كبير للماء الساخن، وتجد تحت القبة هنا، ثماني حنيات على هيئة إيوانات، ولها عقود مدببة، وتتجاور كلها، مكونة شكلاً نجمياً. وجدران الغرفة كلها مربعة وسميكة، ويكسو أرضيتها رخام، وأحجار ملونة بطريقة الفسيفساء. وأشكال نجمية متشابكة. وتزين الجدران بلاطات خزفية سداسية الشكل وكذلك الحنيات حيث تحتوى أشكالاً مماثلة. وفى الحنية المواجهة للمدخل نص مكتوب باللون الأبيض على أرضية كوبلتيه. وفيه أن الحمام من عمل رستم باشا.

كذلك هناك حمام محمود باشا، وقد بُنى أصلاً ليكون حماماً مزدوجًا. بحيث يجمع خدمات كاملة لراحة الرجال، وخدمات أخرى كاملة ومنفصلة لراحة النساء. ولم يبق من هذا الحمام إلى الآن سوى القسم الخاص بالرجال.. وهذا القسم مكوَّن من غرفة لتبديل الملابس، عليها قبة كبيرة تحملها مقرنصات، وغرفة ساخنة مثمنة الشكل، ومحاطة بعدد من القباب الصغيرة. ولكل منها نمط مختلف من الزخرفة، وترجعه النقوش إلى سنة ١٤٦٦م- ١٨٧١هـ وهو بهذا أقدم حمامات إستانبول(١).

ومن الحمامات المزدوجة أيضاً حمامات بايزيد، وهى حمامات ضخمة ترجع إلى القرن السادس عشر الميلادى، العاشر الهجرى، والقبة الموجودة فى غرفة تبديل الملابس يزيد قطرها عن ١٥ متراً.

---

(١) O.Aslanapa..T. Sanati, s, 299.

وبالرغم من تشابه الوظيفة التى تحد من التطوير إلا أن المعمارى التركى المسلم، قد خلق أشكالاً جديدة. ويُعتبر خاصَّكى حمام من أكبر الحمامات التى بناها سنان باشا لخُرَّم سلطان بالقرب من مسجد السلطان أحمد عام ١٥٥٣م - ٩٦١هـ وهو من الحمامات المزدوجة غير العادية. يبلغ طوله ٧٥ متراً والشيء الذى يراه المختصون جديداً فى هذا الحمام هو استخدام الطوب والحجر فى زخرفة الجدران. كما أن له صفة ذات أعمدة تواجه الآيا صوفيا وتقع هذه الصفة البديعة الصنع، قبل غرفة تغيير الملابس بالحمام. وبلاط أرضية الغرفة الساخنة من الرخام الملوَّن، وتحلية تعبيرات غنية من الرسوم الهندسية النجمية والمتشابكة.

لا يخلو حيٌ - تقريباً - من أحياء إستانبول من حمامات أخرى بناها أو أشرف عليها سنان، سواء فى طوپ قاپى سراى أو غيره من الأحياء. فهناك الحمام الخزفى «چينلى حمام». وهذا الحمام من أوقاف خير الدين بربروسه. وإن سقفه الخشبى الذى يغطى غرفة الملابس جدير بالمشاهدة. والشادروان المحلى بالرخام الملون. وبلاطات الخزف المرسومة، والتى تغطى جدران غرفة المياه الساخنة(١).

كان الناس يفضلون التردد على الحمامات الصغيرة المنتشرة فى كل الأحياء، عن التردد على الحمامات المركزية ذات الأحجام، والمساحات الكبيرة.. ومعظم الحمامات مازالت تؤدى وظيفتها إلى اليوم، وما مِنْ مواطن من مواطنى إستانبول إلا وله مواعيد للتردد على هذه الحمامات مهما كان مستواه الاجتماعى.

٢ - مناهل المياه:

كانت مناهل المياه وفيرة فى المدن الإسلامية. وهى تأخذ شكل منشآت مستقلة فى أحواش الجوامع، والمساجد.. وهذه تسمى شادروان «Sadirvan». أما إذا كانت فى الساحات، وتقاطعات الشوارع؛ فكانت تسمى «چشمه çesme» «عين» نبع. وإذا كانت على شكل هياكل معمارية مستندة على جدران العمائر العامة فتكون سبيلاً.

وقد بلغ عددها فى مدينة إستانبول فى عهد مراد الرابع ١٠٣٩٠. ومازال المعروف منها إلى أزمنة قريبة ما يزيد عن ثمانمائه سبيل عليه كتابة تأريخية.

وهذه المناهل المائية، فى شكلها المعمارى هى بلا شك، إمتداد للطراز السلجوقى الذى انتشر فى شتى مساجد وأحياء المدن الأناضولية.

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

وأبسط أنواع الچشمات = « العيون » تأخذ شكل حنيات حائطية مدببة العقد، ومن الحجارة المنحوتة. ثم تكسى من الأمام ببلاطات رخامية وأحياناً تزخرف بالنقوش، أو بالنقوش، والخطوط الكتابية معاً.

وتتدفق المياه من صنبور، أو صنابير تنبثق من خلال بلاطات التكسية منسابة إلى جفنات تتلقاه. وهذا النمط، بأعداد لا حصر لها، تمد الناس بإحتياجاتهم اليومية، وكانت تنتشر هذه الصنابير فى الشوارع، والأذقة، وعند مفترق الطرق. وكما سبقت الإشارة، فإن التى تحمل نقوشاً تاريخية تبلغ حوالى ثمانمائة فقط.

ان أقدم ما وصل إلينا من الچشمة العثمانية هو نبع داود باشا ١٤٨٥م - ٨٩٠هـ ويضم جفنة رخامية داخل حنية بعقد مدبب. .أما الأسبلة ذات الجوانب الأربعة؛ فقد ارتفعت وارتقت فى مواضعها كالقصور، والفيلات، والأكشاك، والشاليهات، وسط الميادين العامة. وقد أضفى هذا عليها فخامة، ورونقاً، وروعةً. وجهزت هذه الأسبلة بالماء الجارى، زخرفت واجهاتها بالزخارف الجميلة. وبعضها ذات شعبتين. وكانت تُسمى « چاتال چشمه » = النبع الشوكى.

لقد أمر السلطان سليمان القانونى، مهندس المعمار سنان بأن يصل العديد من خزانات هذه الأسبلة، والعيون والشادروانات بقنوات المياه الجارية بالمدينة.

وتزايدت آعداد الشادروانات، والأسبلة، والينابيع، والخزانات فى سرعة واضحة، بفضل تطور، واتساع نظام توزيع المياه بالمدينة وكانت الشادروانات المقامة فى أفنية الجوامع، والمدارس والمساجد على جانب كبير من الرشاقة والأناقة المعمارية. .وبدت وكأنها شاليهات أو فيلات صغيرة. .أنيقة ذات أشكال مربعة، أو نجمية، مغطاة بقبة، أو بسقف مسطح، ومحاطة بالأعمدة والدعامات التى تربط بينها ألواح رخامية، أو معدنية. وقد أُطلق عليها اسم « أسبلة الكتاب » منذ القرن الرابع عشر، وكانت هذه المنشآت تجمع بين خواص سبيل الماء للناس، وكتاب حفظ القرآن. .وقد ظهر هذا النوع فى القاهرة خلال العصر المملوكى ومَنْ يدرى فربما أُخذت عنهم!! وتجيىء مثل هذه الأسبلة على هيئة نافذة فى ركن المبنى، وللنافذة عقد، تحجبه شبكة، أو شراعة مسردة. وكانت لهذه المنشآت وظيفة جمالية؛ فهى تقوم مقام حلية تزين واجهات العمائر، والأبنية المختلفة إلى جانب وظيفتها الحضارية والدينية.

كما شاع فى استانبول فى فترة السلم، والإزدهار المادى، وانتشار الأسلوب الباروكى فى العمارة. .ألا وهو النوع المسمى « السلسبيل » وهو نوع من الأسبلة المبالغ فيها زخرفياً؛ كان هذا النوع يُقام زيادة فى بهجة الحدائق، والبساتين. فكانت الجفان الصغيرة تُرتب فى صفوف متتالية،

الواحد منها تحت الاخر. .بحيث تتساقط المياه من الأعلى إلى الأدنى وإلى مايليه. .وكأنه شلال صغير. .ثم يجتمع الماء كله في حوض أكبر، يجيىء في مقدمة هذا المشهد. وقد اتخذت اشكالاً مختلفة، تلفت الأنظار بين الأشجار، والأزهار، وذلك في شواطىء حدائق البوسفور، والفيلات المطلة عليه.

إكتملت عمارة الأسبلة، ومناهل المياة التركية، ووصلت إلى ذروتها في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، العاشر الهجري أما بهائها، وسمو مراحل تطورها فقد إكتمل في عصر اللالة أي في نهاية القرن السابع عشر وما بعده. .

لقد اتخذت الأسبلة أشكالاً متعددة، وظهرت في واجهات العمائر، وعند منعطفات الطرق، وكأبنية مستقلة. ومن أمثلة النمط البسيط لأسبلة القرن السادس عشر؛ ما بناه سنان في ركن مقبرته، ويتكون هذا السبيل من خمس نوافذ، مربعة الشكل، وقبته لها زخارف ؛ عبارة عن رفرف يعلو تلك النوافذ.

ثم يأتي سبيل قوجه سنان باشا، والذي بناه المعماري داود آغا عام ١٥٩٤م - ١٠٠٣هـ في السوق المغطى «قاپالي چارشي»وهو نموذج كلاسيكي كامل التطوير. أثر فيما أتى بعده لفترة طويلة، ولا سيما في فترة إزدهار زهرة اللالة «التوليب». ومن الأسبلة التي تشبهه؛

سبيل غضنفر آغا (١٦١٣م - ١٠٢٢هـ) عند أسفل قناطر «بوز دوغان». وسبيل قويوجي مراد باشا في حي وزنجيلر (١٦٠٦م - ١٠١٥هـ) وسبيل بيرام باشا في خاصكي (١٦٣٥م - ١٠٤٥هـ) وسبيل ينسب إلى السلطان ابراهيم، في ركن للمقابر بالقرب من آياصوفيا (١٦٤٨م - ١٠٥٨هـ) الخ [١].

أما السبيل ذو النوافذ الخمس الموجود في الركن البارز في مجمع نوشهرلي ابراهيم باشا (١٧٢٠م - ١١٣٣هـ) في شهزاده باشي فيمثل قطعة فنيه رائعة تعكس ثراء، ومميزات الحضارة الإسلامية في عصر اللالة. ولقد اتخذ هذا السبيل نموذجاً لما أُنشيء بعده.

أما التطور الجديد والمشهود في عمارة العيون والأسبلة، فيظهر واضحاً في عمائر السلطان أحمد الثالث، في هذه المسقاة، أو في هذا المنهل الفخيم، فهو ذو أربعة أسبلة، في أركانها الأربعة، وفي كل ركن منها نبع. .تم تشييده خلف الآياصوفيا، وأمام الباب الخارجي لمدخل سراى طوپ قاپي، وهذا المنهل تحفة فنية بالغة الروعة من وجهة النظر المعمارية وإلى يسار كل صنبور حنية للجلوس لراحة الشارب، وهي كحنية المحراب. وأما الأسبلة التي على الزوايا، وفي الأركان فنوافذها مغطاة

(١) فنون الترك وعمائرهم، تاليف اوقطاى آصلان آپا، ترجمة، أحمد محمد عيسى، استانبول، - ١٩٨٧م ص ٢٣٧.

بستائر معدنية؛ مسردة، وشبكية، ويعلو المبنى كله سقف شبه هرمى وكأنه هرم ناقص، تعلوه خمس قباب صغيرة لها رفرف عريض. كل الجدران والرفرف مغطاة بالزخارف. وإلى جانب التذهيب كانت هناك تطعيمات بالحجر الملون، وبلاطات خزفية، وحفر على الحجر، ومدائح من نظم الشاعر سيد وهبى (*) . أما العبارة التى ما زالت مكتوبة، والتى صاغها أحمد الثالث بنفسه فتقول :

« افتح باسم الله، واشرب الماء، وادع لاحمد خان » وتعطينا هذه العبارة تأريخ للإنشاء، وهو ١١٤١هـ الموافق لسنة ١٧٢٨م.

ومن الأسبلة الآخرى التى تزدان بها العاصمة استانبول، والتى وصلت إلينا، مسقاة أحمد الثالث عند مرسى السفن فى حى اسكدار وهى غنية بالزخارف، وتماثل منهله السابق، إلا أن الفنان المسلم المبدع قد استبدل أسبلة الأركان بصنابير صغيرة رقيقة.

وهناك مسقاة أخرى بجوار مرسى « الطوبخانة » المدفعية، فتكسوها بالكامل الزخارف المحفورة فى الحجر، وهى من أعمال السلطان محمود الأول الخيرية، والتى شيدت عام ١٧٣١م - ١١٤٤هـ.

وتزخر مدينة إستانبول بأسبلة أخرى بديعة البنيان، وهى من الأسبلة ذوات الجوانب الثلاثة. وذات طراز وأسلوب باروكى، وأشهر هذه الأسبلة:

سبيل حاجى أمين آغا (١٦٤٤م - ١٠٥٤هـ) فى دولمه باغچه، وفيه استخدمت الأعمدة الكورنيشية لأول مرة.

سبيل قوجه يوسف باشا (١٧٨٧م - ١٢٠٢هـ) فى حى قباطاش وقد تم نقله بالكامل من مكانه الأصلى، ووضع فى مواجهة مسجد مللا حلمى فى حى فندقلى. وفى موقعه الحالى مستند على حائط صاعد.

وهو نموذج أصيل للفن الإسلامى فى هذا المضمار، وهو يضم سبيلين صغيرين، فى نافذتين على يمين ويسار نبع رقراق فى الوسط.

(*) سيد وهبى: من شعراء الديوان فى القرن الثامن عشر الميلادى. كان ميلاده فى إستانبول ووفاته بها أيضاً سنة ١٧٣٦م. كان اسمه الأصلى حسين، وتسمى بسيد وهبى نسبة إلى اسم المدرسة التى كان يدرس بها.. صار مدرساً سنة ١٧١١م. وتولى القضاء بعد أن عاد إلى إستانبول شمله السلطان أحمد الثالث والصدر الأعظم داماد إبراهيم باشا بالعناية والعطف عُرِف فى عصره بالاستاذ. بينما كان يكتب على غرار كتابة الشاعر نابى، فما أن لمع نجم الشاعر نديم حتى سار على دربه، وصادقه. كتب نظائر ومخمسات لكل الشعراء الذين عاصروه. أشهر أشعاره منها تلك الأبيات المكتوبة على سبيل ومنهل السلطان أحمد الثالث فى ميدان الآياصوفيا. وحقق شهرة كبيرة بكتابه « سورنامه » ويصور فيه الاحتفالات التى استمرت خمسة عشر يوماً وخمس عشرة ليلة احتفالاً وابتهاجاً بختان أبناء السلطان أحمد الثالث الأربعة، ومعهم خمسمائة من الأطفال الفقراء. وقد أعيد طبعه سنة ١٩٣٩م.

ولا نستطيع أن نغفل دور سيدات السراى، والمجتمع فى هذا الصدد أيضاً، فإن الوالدة السلطانة مهرشاه قد شيدت على نفقتها الخاصة سبيلاً فى حى أبى أيوب الأنصارى سنة ١٧٩٦م - ١٢١١هـ. وهذا السبيل فى نفس طراز وأسلوب الأسبلة السابقة أما سبيل نقشديل والدة السلطان الموجود فى منطقة الفاتح، والمؤرخ بسنة ١٨٠٩م - ١٢٢٤هـ فهو باسلوب ينبض بالحيوية، مقام على شاكلة نصف دائرة، وله نوافذ من الشبك المعدنى، وقبة ترتكز مباشرة فوق الأعمدة، وبلا أى عقود، وهو فى الساحة المواجهة للضريح الذى يرقد فيه السلطان محمود الثانى. ويعتبر من أبرع النماذج التى شيدت فى العصر الإمبراطورى(١).

المؤسسات العلمية والتعليمية فى العاصمة إستانبول :
الحياة العلمية والتعليمية فى عهد الفاتح وما بعده :

لم ينقطع محمد الفاتح بعد توليه السلطة عن متابعة التعلم، والدرس، كان يحيط نفسه بالعلماء، بصرف النظر عن عرقهم أو دينهم أو مذهبهم، كان إذا ماتوسم فى رجل نبوغاً أو تضلعاً فى علم إلا اتخذه معلماً لنفسه، ومن هؤلاء سنان باشا (*)، وقد كان حد الذكاء والألمعية، وخطيب زادة، وخوجه زاده، وهما إلى الوقت الحاضر من أئمة علم الكلام ومن المبرزين فيه، ومنهم المولى محى الدين ابن الخطيب، وقد اتخذه الفاتح معلماً لنفسه لفصاحته وطلاقة لسانه، وجرأة جنانه، وقوته على المحاورة والمناظرة.

وأكب محمد الفاتح على قراءة التاريخ لا سيما فيما يتعلق بسير عظماء الرجال فى الشرق، والغرب، كما اتجه إلى دراسة الفلسفة اليونانية، ومعرفة مذاهبها المختلفة؛ وقد اهتم بوجه خاص بفلسفة ارسطو والرواقيين واتخذ فى ذلك اساتذة من العلماء النابهين.

وكان أول ما عنى به السلطان الفاتح بعد فتح القسطنطينية وتحويلها إلى عاصمة الإمبراطورية أن انشأ المدارس على نمط المدارس التى كانت موجودة فى بورصة وأدرنة، وأوقف عليها الأوقاف العظيمة، ونظم الفاتح فى قانون هذه المدارس، واشتهرت فى هذا القانون بمصطلح «صحن ثمان».

---

(١) O.Aslanapa..T. Sanatel, s. 303 - 305.

(*) سنان باشا (١٤٣٧ - ١٤٨٥م) من كتاب النثر والحساب النابهين فى عصره. وهو ابن خضربك أول قاضى لإستانبول. اشتغل بالتدريس فى أدرنة، ثم أصبح معلماً ومصاحباً للسلطان محمد الفاتح (١٤٧٠م). تولى القضاء والتدريس فى عهد بايزيد الثانى. اشتهر بكتابة المسمى «تضرعنامه» وهو من أمهات الكتب فى النثر التركى. كان متصوفاً وشاعراً أيضاً. استخدم فى كتاباته الكثير من معجم اللغة العربية والفارسية. أثر فيمن أتوا بعده من الكتاب من ناحية النثر الأدبى له عدا تضرعنامه «رسالة التوسل» رساله الأخلاق، وتذكرة الأولياء. «المؤلف»

أى المدارس الثمانية، ووفقاً لما ورد فى الشقائق، فإن محمد الثانى بعد أن فتح استانبول حوَّل ثمانى كنائس بها إلى مدارس. وعيَّن على إحدهم مولانا علاء الدين الطوسى، وعلى الثانية خوجة زاده، والثالثة، مولانا عبد الكريم.

ثم أصدر السلطان محمد الفاتح قراره بانشاء جامع، وجامعة لتخريج وتنشئة الطلاب على أعلى مستوى، وأسند هذا العمل إلى الصدر الأعظم محمود باشا. وقد بدأت الأنشاءات فى هذه المؤسسة العلمية والتعليمية فى جمادى الأخر سنة ٨٦٧هـ = فبراير سنة ١٤٦٣م، وانتهت الإنشاءات فى يناير سنة ١٤٧١م - ٨٧٦هـ أى خلال ثمانى سنوات. وكانت هذه المؤسسة عبارة عن جامع له منارتين، وحوله ثمانى مدارس للتعليم العالى، وخلف هذه المدارس، ثمانى مدارس أخرى تسمى «التتمة» والهدف منها تخريج طلاب للإلحاق بالمدارس العليا. وبجوارها أمر بانشاء استراحة كاملة للمسافرين ودوابهم، وخلفهم مطعم، وعمارة =أى دار للمرق، وفى جهة الشرق من هذه المنشآت، تم بناء دار للشفاء، وفى مشرق الجامع تم بناء دار لتحفيظ القرآن الكريم، وفى القرب من الجامع، تم تشييد مكتبة ضخمة لطلاب المدرسة. ودار آخرى للتعليم، وأمر ببناء حمامين لخدمة كل هؤلاء الذين يعملون أو يدرسون فى هذه المؤسسات العلمية والتعليمية.

وطبقاً لما ورد فى وقفية الفاتح؛ فإن هذه المنشآت كانت فى وسط المدينة. وتم تكليف محمود باشا والعالم المشهور على قوشچى (*) بوضع لوائح هذه المؤسسات العلمية. وكان أربع مدارس تقع شرق الجامع، والأربع الأخر غربه.

كانت كل مدرسة تتكون من تسع عشرة قاعة دراسية، ولكل مدرسة أستاذاً، له قاعة خاصة به، وأجره اليومى خمسين آقچة. ولكل استاذ معيد «ملازم» له غرفة خاصة به، وأجراً يومياً مقداره خمس آقچات عدا الطعام اليومى. وفى كل مدرسة يُعين عريفاً لكل قاعة، أُجرته اليومية آقچتان بالإضافة إلى السكن والطعام، وقد خصصت غرفتان للبوابين والفراشين.

المعيدون هم المكلفون بعملية الضبط والربط «الإنضباط» بين طلاب المدرسة، ويشتغلون بتكرار وإعادة ما يدرِّسه الأساتذة للطلاب، ويتذاكرونه معهم. ويتم اختيار المعيدين من بين أنجب، وأنشط العرفاء. وكان عدد فصول هذه المدارس الثمان مائة واثنين وخمسين فصلاً.

وكانت مدارس التتمة؛ أى «موصلة صحن ثمان» أى الموصلة للمدارس الثمان، قد أُقيمت

(*) على قوشچى (علاء الدين على بن محمد). من علماء الرياضة والفلك المبرزين فى الحياة العلمية فى الدولة العثمانية. وقد تولى التدريس فى مدارس الصحن ثمانى العالية، وله مؤلفات علمية مشهود بها، وتحدث عنها أ.د. عدنان آديوار فى كتابة عن الحياة العلمية فى الدولة العثمانية، (المؤلف)

خلفها، ومنوط بها تخريج طلاب المدارس المتوسطة والذين يلتحقون بالمدارس العليا . وعددها ثماني . وأدنى منها دار التعليم . وكان يطلق على خريج الصحن ثمان « دانشمند » عالم، عارف، وعلى خريج التتمة « صُفْتَه » أى شيخ . وقد خصصت حجرة لإقامة ثلاثة مشايخ، وتم تخصيص خمس آقجات شهرياً للصرف منها على هذه الحجرة، بالإضافة إلى الشموع = « الإنارة » والطعام كان يعيِّن لهم من العمارة أى من مطعم الجامعة . وبعدها يتلقى طلبة التتمة الدروس على أيدى الدانشمندين، أى طلاب الصحن ثمان .

وعدا كليات الصحن، ومدارس التتمة، فلقد تم تخصيص استاذ للكلية التى تأسست بجوار جامع الأياصوفيا، وآخر للكلية التى تأسست بجوار جامع أبى أيوب الأنصارى . وكانت يومية الأول ستين، والثانى خمسين آقجة . وكان خريج الأياصوفيا معادل لخريج الصحن، أما الأخرى فهو مرحلة وسط بين الصحن والتتمة . وما هى آعلا من هذه المؤسسات فقد كان استاذها يتقاضى يومية مقدارها خمسمائة آقجة، تؤمن له من ضيعة القضاء المخصصة له . ومَنْ يُرقى من القضاء يعيِّن مدرساً = استاذاً فى الآياصوفيا . وخريج كلية أبى أيوب - حسباً لمقدرته العلمية - إما أن يُعيِّن فى الصحن، أو فى المدارس الأقل درجة . وعلى أى حال فإن مدارس أبى أيوب كانت لها مكانة الصحن فى عصر محمد الفاتح .

وعدا السلطان محمد الفاتح، فإن الوزراء قد أقاموا الجوامع والمدارس فى استانبول . ومازالت استانبول تنعم بجامع ومدرسة محمود باشا حتى اليوم . وقد أعقب ذلك كل من چندرلى زاده إبراهيم وخادم على مصطفى، وداود باشا بإقامة كل منهم مدرسة خاصة به . ورويداً رويداً زادت آعداد المدارس فى استانبول (١) .

وبعد أن استقرت الأمور بالفاتح، وبهذه المؤسسات التعليمية، تم تقسيمها أى تقسيم الصحن إلى خمس درجات علمية وهى من أدنى إلى أعلا؛ حاشية تجريد = تجريد الحاشية، مفتاح، قيرقلى = الأربعين، خارج = خارجى داخل = داخلى .

ورُتِّب لمدرس حاشية تجريد أجراً يومياً مقداره خمس وعشرين آقجة، ولمدرس المفتاح ثلاثين آقجة، ولمدرس الأربعين أو التلويح خمس وثلاثين آقجة، ولمدرس الخارجى الذى يعلو درجة عن السابق، فقد رتب له أربعين آقجة، وخمسين لمدرسى الداخلى . وكان هذا النظام، يطبق على كل المدارس التى أسسها الوزراء، وأمراء السناجق، والأمراء على مستوى الإمبراطورية، وقد ورثوا هذا النظام عن النظم الإسلامية السابقة لدى السلاچقة وغيرهم من الدول الإسلامية المعاصرة .

---

(١) O. prof. Ismail Hakki uzun,çarsli Osmanli Devletinin ilmiye Teskilâti. Ankara, 1984, s. 9 - 10.

وقد كانت المدارس = «الكليات» الداخلية هى التى أكثر السلاطين، وأمهات الأمراء أولياء العهد، وأولياء العهد، وكريمات السلاطين، وزوجاتهم من انشائها. وكان المتخرج فيها ينتقل إلى كليات الصحن ثمانى.

وكان على الطالب الذى يبدأ حياته التعليمية أن يدرس المواد التى يُطلق عليها المختصرات، ثم يداوم دراسته فى مدارس تجريد الحاشية، وعقب نجاحه فيها، وبعد أن يأخذ إجازة من مُدَرِّسَه فيها، ينتقل إلى مدرسة المفتاح، وعلى التوالى ينتقل بعد نجاحه ونيله الإجازة إلى التلويح ومنها إلى الخارجى ثم إلى الداخلى. وبعد ذلك ينتقل إلى المدرسة العليا صحن ثمانى، ويتخرج فيها دانشمندياً؛ أى عالماً (١).

لقد كانت الدراسة تجرى فى هذه المدارس طوال أيام السنة، وانشئت بجانبها مكتبة خاصة. وكان يُشترط فيمن يتولى أمانة هذه المكتبة أن يكون من أهل الصلاح، والعلم، عارفًا باسماء الكتب، والمؤلفين، ويُعير الطلبة، والمدرسين ما يطلبونه من الكتب بطريقة منظمة ودقيقة. ويسجل أسماء الكتب المستعارة فى دفتر خاص..وهذا الأمين مسئول عن الكتب التى فى عهدته، بل ومسئول عن سلامة أوراقها. ويجرى التفتيش على هذه المكتبة كل ثلاثة أشهر على الأقل (٢).

وأدخل السلطان الفاتح نظام التخصص فى مناهج التعليم؛ فجعل للعلوم النقلية والنظرية قسماً خاصاً، وللعلوم التطبيقية قسماً خاصاً أيضاً، وحذا العلماء والوزراء حذو سلطانهم، وتنافسوا فى انشاء المعاهد والمدارس، مما أدى إلى انتشار العلم وازدهاره. وقد أضفى السلطان الفاتح على الأساتذة والمدرسين رعاية كريمة سابغة، ووسع لهم فى المعيشة ليتفرغوا للعلم والتعليم.

وقد كان الفاتح يُقرب إليه العلماء، ويعلى من شانهم، ويرفع من قدرهم، ويشجعهم على العمل والانتاج، ويبسط لهم اليد الندية. وكان يجل العالم لعلمه، وفضله أياً كان جنسه، وأياً كان دينه، وأياً كان موطنه، بل ولو كان من عدوه..وقد حدث بعد فتح القرامان أن أمر بنقل العمال والصناع إلى استانبول..وقد اشتط وزيره روم محمد باشا فى الأمر، وأصاب الناس عسف وعنت شديد، وكان بينهم نفر من أهل العلم، والفضل، وفى مقدمتهم أحمد چلبى بن السلطان أمير على من

---

(١) المرجع السابق، ص ١١-١٢.

(٢) محمد الفاتح، مرجع سبق ذكره، ص ٣٨٤-٣٨٥.

سلالة العالم الصوفى المشهور جلال الدين الرومى (*) . فلما علم السلطان محمد الفاتح بأمره، اعتذر إليه، وآعاده إلى وطنه مع رفاقه تحف بهم مظاهر التجلة والتكريم مثقلين بالهدايا (١) .

وبعد هزيمة اوزون حسن. وقع فى الأسر عدد كبير من العلماء وآصحاب المعارف مثل القاضى محمد الشريحى، وكان من فضلاء الزمان، فأكرمه السلطان هو والسيد محمد المنشى، موقع ديوان اوزون حسن وغيرهم من العلماء، فما كان من السلطان الفاتح إلا أن أكرمهم، وأحسن معاملتهم وآغدق عليهم بالعطايا السخيِّة، ثم أسند إليهم المناصب العالية فى الدولة.

ألم يصبح الفيلسوف والشاعر الرومى غورغيوس آميروتزوس الطرابزونى Trabzonlu Gorgios Amirutzes الذى وصلت إلى الفاتح شهرته، من ندمائه، ومن خاصته بعد أن أستصحبه معه إلى إستانبول بعد فتح طرابزون. وقد رفع الفاتح منزلته، وقربه منه، ومنحه أُعطيات واسعة، وكان يذاكره، ويناقشه فى المسائل الفلسفية وقد شرح الله صدر الفليسوف، ودخل فى دين الإسلام. وقد تدارس السلطان الفاتح مع هذا العالم كتاب بطليموس المتعلق بالجغرافيه، والذى وجده ضمن الكتب التى بقيت بعد البيزنطين، وكان ذلك فى صيف سنة ٦٤ / ١٤٦٥م = ٦٩ / ٨٧٠هـ. وقد أمره السلطان بترجمته إلى اللغة العربية وقد أتم الفيلسوف وإبنه ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية، وعرَّب الأسماء التى كانت مكتوبة على خريطة العالم باللغة الرومية. = اليونانية. فأنعم عليه السلطان بالإنعامات السخية (٢) .

ومن الثابت أيضاً أن الرسَّام البندقى الشهير جنتيللى بللينى « Gentile bellini » قد قَدِم إلى استانبول فيما بين سنتى ١٤٧٩ - ١٤٨٠م وعاش فى سراى السلطان محمد الفاتح، وقام برسم الفاتح، ورسم بعض الصور الآخرى. وتلك الصور الخاصة بالفاتح فى ناشونال غالرى بلندن. كما أن الفاتح طلب من جمهورية البندقية الرسَّام، ومصمم المادليات ماتيو دى پاتسى « D'patsi Matteo »

(*) مولانا جلال الدين الرومى: (١٢٠٧ - ١٢٧٣م) من أكبر شعراء التصوف فى العالم الإسلامى، عالم، وفيلسوف ومؤسس الطريقة المولوية. ولد فى منطقة بلخ فى خراسان. والده كان سلطان العلماء بهاء الدين ولد. والدته مؤمنة خاتون من عائلة الإمبراطورية الخارزمشاهية. ترك بلخ متوجهاً إلى بغداد ومنها إلى مكة سنة ١٢١٢م ثم انتقل عن طريق الشام إلى الأناضول وعندما وصل إلى قونيه عاصمة الدولة السلچوقية كان على عرشها السلطان علاء الدين كيقوباد، فاستقبله بحفاوةٍ بالغة سنة ١٢٢٨م. له كتب عديدة فى التصوف ولكن أشهرها قاطبة هو كتاب المثنوى المكون من ٢٦,٧٠٠ بيتاً وقد كتبه باللغة الفارسية، وترجم بعض أجزاءه د. محمد كفافى ثم أكملها وأعدها كاملة من جديد الصديق العزيز المرحوم الأستاذ الدكتور إبراهيم الدسوقى يوسف شتا. وله « ديوان كبير » الديوان الكبير. ومجالس سبعة، أى المجالس السبعة، وكلها تدور حول التصوف والعرفان وما يتعلق بهما من آداب ومراسم. وله مكتوبات وهى رسائل فى الوعظ والإرشاد. « المؤلف »

(١) المرجع السابق، ص ٣٨٦ .

(٢) A.Adnan Adivar, Osmanli Turklerinde ilim. Remzi Kitabevi, 4 bask,.Ist. 1982. s. 34- 36.

وقد تم ارساله على الفور. والمادليات التى صنعها من الفضة للفاتح هذا الرسام موجودة ضمن المادليات الآخرى الموجودة فى المكتبة القومية فى باريس.

أن يطلب الفاتح ترجمة كتب الجغرافية إلى اللغة العربية، وأن يطلب من المدرسين بالمدارس الثمانى أن يجمعوا بين الكتب الستة فى علم اللغة كالصحاح والتكملة والقاموس وأمثالها لخير دليل على اهتمام الفاتح باللغة العربية وحدبه بها، وعنايته الفائقة بها، ولا عجب فى ذلك، فإنها لغة القرآن الذى حفظه الفاتح منذ الصغر، فضلاً عن أنها كانت لغة العلم المنتشرة فى ذلك العهد. وكان المولى على القوشجى عالم الفلك والرياضات الشهير فى عصره كان كلما ألف كتاباً بالفارسية نقله إلى العربية واهداه إلى الفاتح (١).

كان الفاتح يدعم حركة التأليف والترجمة لنشر المعارف بين رعاياه بالاكثار من نشر الكتب العامة، وكما أنشأ له فى قصره خزانة خاصة أحتوت غرائب الكتب، والعلوم، وعيّن المولى لطفى أميناً عليها، وكان بها وقتذاك اثنا عشر ألف مجلد، فقد جعل فى السراى ما يمكن أن نُطلق عليه تجاوزاً، هيئة تأليف وترجمة. مهمتها تأليف الكتب فى مختلف فروع المعرفة والترجمة من اليونانية، والأرمنية، واللاتينية إلى اللغة العربية والتركية. وكان يجزل العطاء للمؤلفين، والمترجمين على حد سواء

وسجل المؤرخون البيزنطيون والأوروبيون اهتمام الفاتح عقب فتح القسطنطينية، وتحويلها إلى عاصمة الإمبراطورية أن اهتم بالدين المسيحى، وأثناء وجوده بالعاصمة كثيراً ما كان يزور البطريرك جناديوس سكولاريوس « Gennadius Scholarius ». وكان رجلاً واسع العلم، كثير التأليف، ويحادثه فى المسائل العقائدية المتعلقة بالديانة النصرانية، ويستحثه على أن يتكلم، وأن يُعبر عن آرائه بحرية وصراحة، بل من بطريَرك القسطنطينية أن يكتب رسالة خاصة يشرح له فيها النصرانية بأسانيدها، وبراهينها..وقد أجابه البطريرك إلى طلبه، وكتب إليه هذه الرسالة. تحت عنوان « عقائد خرستيانيه » وقد ترجمت إلى اللغة التركية، ولما وُجد أن بها بعض الأخطاء، صححت من قبل ياناكى المصرى (٢).

وجرت فى حضور الفاتح مناقشة آخرى حول العقائد النصرانية مع البطريك مكسيم مانويل، وقد طلب الفاتح من البطريك محضر جلسة المناقشة(٣).

كان الفاتح بطبعه باحثاً، طالباً للعلم والمعرفة، نزاعاً إلى الواقعية، شديد التكلف بالعلوم

---

(١) سالم الرشيد، محمد الفاتح، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩٥.
(٢) A.Adivar. s - 41.
(٣) A.Adivar. s. 42.

التطبيقية، إلى جانب العلوم الدينية، والأدب، ويكفينا القول أن له ديوانا مطبوعا . وأنه كان متفتح الذهن يتسم بالسماحة واللين، والشدة فى الحق مهما كان المدان . ولوع بحرية الرأى، والبحث عن الحقيقة، كان يقرأ كل ما يرى فيه فائدة ومتعة لعقله، وفكره، أو يكسبه تجارب من الحياة؛ فقرأ فيما قرأ كتاباً عن سيرة تيمورلنك وهو الذى هزم جده بايزيد الأول . قرأ الكتاب الذى ألفه الإيطالى جيوفانى ماريا انجيوللو G. Maria Angiolello باللغة الإيطالية عن ازون حسن التركمانى، واثبت فيه كل ما تقول به على محمد الفاتح . وبعد أن أتم أنجيلوللو تأليف كتابه آهداه إلى الفاتح، فلم يغضب، ولم يثر - بل غمر المؤلف بالأفضال الواسعة والهدايا الثمينة، وأقبل الفاتح على قراءة الكتاب بشغف ونهم، ثم أمر بترجمته إلى اللغة التركية (١).

وكما سبقت الإشارة، فإن وقفية الفاتح تحتوى على نصوص فى غاية الأهمية تتعلق بتنظيم العملية التعليمية، والاهتمام بتدريس الطب والتمرس به وأن يُستعان بأصحاب الخبرة والعلم بصرف النظر عن العرق أو الدين أو الطائفة التى ينتمى إليها، كما كان يهتم بالعلوم المثبتة الأخرى كالفلك والرياضة، والجراحة ويستكتب العلماء كتباً ورسائلاً فى هذه الفروع . ولم يقل أهتمامه بعلوم الفقه والكلام . بل شمل اهتمامه كل فروع العلوم النقلية والعقلية على حد سواء .

استمر الاهتمام بالعلوم المثبتة، بعد وفاة الفاتح بنفس القدر الذى كان يوليه الفاتح لهذه العلوم . بل أصبح هذا الاهتمام والحماية من التقاليد المرعية، والتى يحرص عليها السلاطين الذين تولوا الحكم خلال نهايات القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر وقد شهدت العاصمة خلال هذه الفترة حركة علمية نشطة، وإلى جانب الترجمة أُلفت كتباً فى الطب، والجراحة، والبحرية، والجغرافية . وأُعِّدت الكثير من الخرائط الجغرافية، والبحرية خلال القرن السادس عشر الميلادى، العاشر الهجرى . ولم تكن علوم الفلك، والمراصد بأقل أهمية أو اهتماماً فى العاصمة بل إن هناك العديد من كتب الفلك وآلات الرصد التى بقيت لنا بين اوراق المخطوطات . وفى كل يوم يتم الكشف عن الجديد منها فى مكتبات الدول الغربية . فقد وجد الدكتور عدنان آيدوار العديد منها فى المكتبات، وعلى سبيل المثال لا الحصر، وجد رسالة فى المكتبة الوطنية بباريس تحت اسم (آلات الرصدية لزيج شاهينشاهيه) لتقى الدين بن محمد بن احمد (١٥٢٠ - ١٥٨٥م) وكان فلكياً . وقد أورد فى رسالته هذه آلات الرصد، ومسمياتها، وأصول صنعها بشكل واضح . (٢)

وهل يستطيع باحث منصف أن يغفل الدور الذى قامت به المدارس العثمانية فى العاصمة فى تنشئة مجموعة من علماء الطبيعة والفيزياء خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . وكانوا من العلماء الموسوعيين الذين ألفوا فى شتى فروع المعرفة . حتى وإن كان من الثابت أن هذه المدارس قد

---

(١) محمد الفاتح، مرجع سبق ذكره ص ٤٠٤ .

A.A.Adivar, O. T.'de Ilim, s 99- 101.(٢)

أعطت اهتماما أكبر إلى حد ما بعلوم الفقه والعلوم الدينية على حساب العلوم العقلية المثبتة فى القرن السابع عشر الميلادى. ومن يريد التثبت من ذلك، فليرجع إلى كتاب « كشف الظنون » لمصطفى بن عبد الله، المشهور بـ « كاتب چلبى » أو حاجى خليفة. فنظرة عابرة على حياة، وتراث، كاتب چلبى لكافيه لاعطاء فكرة واضحة عن الحياة العلمية فى العاصمة استانبول خلال الفترة المشار إليها. (١)

ما أن تولى أحمد الثالث السلطة (١٧٠٣ - ١٧٣٠م = ١١١٥ - ١١٤٣هـ)، واستقر به المقام، وما أن تولى داماد ابراهيم باشا الصدارة العظمى سنة ١٧١٧م - ١١٣٠هـ حتى بسط عنايته ورعايته على العلم والعلماء، وتظاعفت فى عهده أعداد الكتب فى مكتبات استانبول تضاعفاً مشهوداً، وقد قام هذا الصدر الأعظم بتشكيل لجنة مكونة من خمسة وعشرين شخصاً لترجمة أمهات الكتب مثل « عقد الجمان » و « حبيب السير ». وكان الشاعر المشهور نديم(*) من بين أعضاء هذه اللجنة. وكان من بينهم أيضاً، العالم أسد بن على بن عثمان اليانيالى، الذى تولى التدريس فى مدرسة « كلية » أيوب، بعد أن أكمل تعليمه فى استانبول، ثم انتقل إلى منصب القضاء فى غلطة، ثم عيِّن أول مصحح لأول مطبعة تم افتتاحها فى استانبول. وقد قام أسد أفندى - بتكليف من الداماد ابراهيم باشا - بترجمة كتاب ارسطو فى الطبيعة، إلى اللغة العربية. وقد وصلت إلينا هذه الترجمة. (وهى موجودة فى مكتبة راغب أفندى تحت رقم ٨٢٤). ونشطت حركة الترجمة والطباعة فى هذه المرحلة.

وكما سبقت الإشارة، فإن الداماد ابراهيم باشا، هو الذى بعث بيرمى سكزمحمد چلبى سفيراً إلى باريس فى عهد أحمد الثالث أيضاً، وكان معه ولده سعيد چلبى، وقد عادا بفكر طيب عن المطبعة ونشاطها هنالك، وقام ابراهيم متفرقه بكتابة رسالة سنة ١٧٢٦م - ١١٣٩هـ عن أهمية الطباعة تحت اسم (وسيلة الطباعة) وقدمها إلى الداماد ابراهيم باشا الذى كان يعرفه ويثق فى قدراته من قبل. وكما سبقت الإشارة قام بالإتفاق مع سعيد چلبى، وقدما طلباً لإفتتاح مطبعة، وصدرت فتوى تُبيح ذلك وتُؤيده.

ومن أهم الأعمال العلمية التى طبعها ابراهيم متفرقه فيما بين الكتب العلمية العديدة التى طبعها، كتاب « جيهانما » لكاتب چلبى، وما أن وصلنا إلى سنة ١٨٣٠م - ١٢٤٦هـ حتى كان عدد الكتب التى طُبعت قد وصل إلى سبعة وتسعين كتاباً، بينما كان هذا العدد سبعة عشر فقط فى زمن متفرقة

---

(١) A.A.Adivar, O. T.'de Ilim, s, 126 - 158.

(*) الشاعر نديم: من شعراء الديوان (ولد فى استانبول) وتوفى بها سنة ١٧٣٠م بعد أن أكمل تعليمه وتعلم العربية واشتغل بالتدريس، لفت انظار الصدر الأعظم الداماد إبراهيم باشا بنشاطه الأدبى والثقافى، فكلفه بترجمة بعض الأعمال التاريخية من العربية إلى التركية. وعمل فترة ما كأمين مكتبة الصدر الأعظم الخاصة. وقُتل سنة ١٧٣٠م خلال ثورة پاترونه خليل. وهو من أشهر شعراء عصر اللاله وانتشرت أشعاره فيما بين سنة ١٧١٨ - ١٧٣٠م.

(١٧٤٣م - ١١٥٦هـ) . وهكذا يتضح دور المطبعة فى نشر القراءة، والكتابة والطبع، وأن ابراهيم متفرقة عند وفاته سنة ١٧٤٥م - ١١٥٨هـ . كانت فعاليات الطباعة فى العاصمة قد استقرت .

وقد لمسنا فى « عبق التاريخ » بداية التوجه نحو أُوروبا، وإذا كنا هناك قد ركزنا على الجانب السياسى، والتنظيمى، فإننا - هنا - سنكتفى باشارة عبارة عن العلوم العقلية فى العاصمة خلال القرن التاسع عشر .

ان سليم الثالث قد اهتم عن قرب بالثورة الفرنسية التى زلزلت كيان أُوروبا، وكان لها دور كبير فى تفتيح عينيه على دور العلوم الحديثة فى عملية تحديث الدولة، فمن هنا كان اهتمامه بالمؤسسات العلمية تسير جنباً إلى جنب مع تحديث الجيش، والإدارة . ولقد فكر جدياً فى اصلاح الطوبخانه، واستعان بالمهندسين الفرنسين والسويسريين فى تأسيس المصانع، جنباً إلى جنب مع افتتاح المدارس العليا التى تخدم عملية التحديث التى بدأت فى الدولة .

ومما لاشك فيه، أنه إذا لم يكن فى الإمكان عقد مقارنة منصفة بين موقع العلوم المثبتة فى العاصمة استانبول، وبين العواصم الغربية، إلا أنه من الانصاف أيضاً، القول، أنها كانت تحاول التعرف على ما يجرى هنالك، ولكن تكالب المخططات التى كانت تتعجل موت الرجل المريض، وتربص الغربان لنهش الجسد الجريح لم تكن تتيح الفرصة لإلتقاط الأنفاس . وأن الدين الإسلامى لم يكن يحول دون التقدم كما يتقول المغرضون .

الدين والعلم فى الدولة العثمانية :

اعتاد الغرب أن يرادف بين كلمة « ترك » وكلمة « مسلم » أو « محمدى » . وكل من يهتدى إلى الإسلام فى نظرهم أصبح « تركاً » . ولم تكن هناك أية مبالغة، أو بعد عن المنطق فى ذلك، فإن الإمبراطورية منذ بداية نشأتها إلى نهاية أمرها دولة اسلامية . نذرت نفسها لحمل راية الإسلام إلى اقطار جديدة، ثم الدفاع عنه ضد الكفار، ثم أنها كانت آخر الإمبراطوريات الاسلامية، وأطولها عمراً، ولعل أعظمها قاطبة، وكان حاكمها الأعلى حاكم الإسلام الأعلى حسب تعبير كتابها ورجالها الرسميين . وجيوشها جيوش الاسلام وقوانينها قوانين الإسلام، والتى كان من واجب السلطان أن يتمسك بها، ويقوم بتطبيقها، وكان يساعده فى ذلك طبقة من العلماء، والفقهاء، هم حماة الشريعة المطهرة . (١)

---

(١) استانبول وحضارة الخلافة، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٧ .

ولقد كانت السمة الدينية من أهم السمات التى اتسمت بها كل تشريعات الدولة، ومعظم تصرفاتها. وللهيئة الإسلامية وضع معترف به، كان المفتى، ثم شيخ الإسلام هو الذى يشرف على الهيئات القضائية وكل الهيئات ذات الطابع والنشاط الدينى. وكان السلاطين أنفسهم حريصين على تدعيم سلطة شيخ الإسلام، وكان المفتى هو صاحب الفتوى التى تجيز الحرب أو السلام أو الصلح، وكانت الدولة حريصة كل الحرص بنشر التعبئة الروحية.

وقد اعتمد العثمانيون المذهب الحنفى، مذهباً رسمياً للدولة، كان شيخ الإسلام رئيساً للعلماء أيضاً منذ عهد سليمان القانونى (١٤٩٥ - ١٥٦٦م = ٩٠١ - ٩٧٤هـ). وكان نقيب الأشراف يعيش فى العاصمة استانبول، وله حق تعيين النقباء فى الولايات.

وكان من مظاهر الطابع الدينى فى الدولة العثمانية، العناية الفائقة التى أبداها السلاطين بانشاء وتجديد العديد من المساجد الكبرى ورصد الاعتمادات الضخمة لتشييد هذه المساجد.

وكان التطبيق الصارم للشريعة، التى نص الدستور العثمانى على أن قوانين الدولة متطابقة معها، والمحافظة على التقاليد الدينية، والاشراف الفعلى على الحج، وتيسير القيام به من المهام المرعية بدقة فى النظام العثمانى [١]

كان العلماء يتضلعون فى موضوعين رئيسيين؛ العقائد والقانون (الشريعة) ومواهبهم تظهر فى مهنتين عظيمتين؛ التعليم والقضاء، وكانا متصلان ومتقاربان. ولم يكن من حق الدولة سلطة التشريع، بل التشريع منبثق من القرآن والسنة النبوية التى دونها وفسرها العلماء الأوائل. ووظيفة الحاكم هى التمسك بالشريعة وتنفيذها. ووظيفة الفقهاء تنحصر فى تفسيرها وتطبيقها.

منذ محمد الفاتح، أصبح مفتى استانبول هو شيخ الإسلام، ويأتى ترتيبه حسب قوانين الفاتح بعد الصدر الأعظم، وفيما بعد أصبح مساوياً له فى الرتبة، يجلس بجوار السلطان فى المراسم الرسمية، بل كان الأمر يتطلب من السلطان زيارته فى بعض المناسبات.

كان شيخ الإسلام يشرف على عدد ضخم من القضاة والمفتين فى الأقاليم كما كان سلطته الإدارية تطول الجوامع والمساجد والقائمين بشئوونها كالأئمة والمؤذنين والخطباء. وكذلك الإشراف على المدارس بكل درجاتها ومنسوبيها من الطلبة والمربين، والمدرسين، والاساتذة والمديرين. وفى هذه المدارس كان كل أفراد الطبقة البيروقراطية والدينية يتلقون تعليمهم بها، والكثير من المناصب البيروقراطية العليا يشغلها طبقة العلماء.

---

(١) الدكتور / الصفصافى أحمد المرسى، الدولة العثمانية والولايات العربية، الداره، العدد الرابع، السنة الثامنة، رجب ١٤٠٣هـ-ابريل ١٩٨٣م.

كان آعلى وظائف التدريس الاستاذية، وكانت فى معاهد وكليات استانبول . وكما سبقت الإشارة كانت المناهج الدراسية تتكون بصفة خاصة من علوم الدين والشريعة، وأُعطيت العلوم الأخرى المسماه بالعلوم العقلية جانباً من الأهمية . كالتاريخ الطبيعى، والفلك والرياضيات، كما كان يدرس الطب والجراحة حسب مدرسة القرون الوسطى الإسلامية . وكان اساتذه المدارس = الكليات والمعاهد مرتبين فى درجات، وتمنح لهم الرواتب وفقاً لهذه الدرجات كما سبقت الإشارة .

كانت الطبقة الدينية فى العاصمة تتمتع بصلاحية مراقبة تطبيق الشريعة، والقضاء، والشئون الدينية والتعليم، بدون أى تدخل من الحكومة، كما كانت هذه الهيئة تتمتع بالاستقلال المالى، وكان العلماء أنفسهم معفون من الضرائب، كانت درجاتهم وممتلكاتهم يتم توارثها . .وكان فى أيديهم مراقبة أموال الأوقاف الخيرية(١) .

وقد أخذت الدولة العثمانية على عاتقها مؤازرة الطرق الصوفية، فقد أولتها، وأربابها أهمية بالغة، وأمدتهم بالعون المادى، وألحقتهم بالجيش، وانتسب السلاطين إلى الطرق الصوفية، وكان كل منهم حريص على هذا الانتساب، كما أخذت الدولة بنظام الفتوة الذى يعد الطابع الإسلامى للفروسية العربية والذى ورثته عند قيامها فى الآناضول وقد خالطهم ابن بطوطه، ووقف على نظامهم، وتعرف على زواياهم واسلوبهم فى الحياة، ثم تحدث عنهم فى كتابة (تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) (٢) وكانوا جميعاً معتنقين للمذهب السنى، واستفادت منهم الدولة فى حروبها مع الدويلات والثغور . وقد تعلم السلطان محمد الفاتح فى شبابه على يد واحد من أقطابها مهنة صب المدافع، والحدادة .(٣) ولم تكن الدولة العثمانية تفرق قط بين رؤساء العلماء العثمانيين، وخاصة فى الفترة الأولى، وازدهارها فقد كان العلماء من النازحين من بلاد اسلامية ذات حضارة اسلامية قديمة؛ من فارس، ومن البلاد العربية، أو من اولئك الذين كانوا قد هاجروا إليها لأجل الحصول على العلم . كان العلماء هم رجال الفقه والدين فى نفس الوقت أى أنه لم تعرف الدولة العثمانية ـ وخاصة فى العاصمة ـ عملية التفرقة بين العلم والدين، حيث أن الدين الإسلامى لم يكن فى أى يوم من الأيام يتعارض، أو يعارض العلم، بل كان يحض عليه، وإلى السعى لإمتلاكه . وأود أن أختتم هذا الجزء بما أورده الرحَّالة آولياچلبى فى كتابه سياحتنامه عن المدارس، والمعاهد، والجوامع والأضرحة وخلاف ذلك مما شاهده فى استانبول حيث يقول :

---

(١) استانبول وحضارة الخلافة، ص ١٧٧ ـ ١٨٣ .

(٢) ابن بطوطة؛ تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦٨م، حـ١ ص ١٥٦ ـ ١٦٦ .

Osmanl, padisahlari Ansik . s. 114. (٣)

. .أنه فى سنة ١٦٣٨م - ١٠٤٨هـ، أصدر السلطان مراد الرابع أوامره لاعداد وصف شامل لمدينة استانبول، وكان الهدف منه الحصول على مساعدة فى الحرب ضد إيران :

. .أريد أن تجتمع كل نقابات استانبول الكبيرة منها والصغيرة ، فى معسكر ى السلطانى ، وذلك لأجل مساعدتى فى هذه الحملة العظيمة وعليهم أن يعرضوا عدد رجالهم، ودكاكينهم، ومهنهم حسب نظمهم المعهودة وعليهم أن يمروا مع جميع شيوخهم، ونقبائهم ومرشديهم الروحانيين وآغواتهم، ومعتمدوهم، ورئيس فتواتهم، والجاوشية، سيراً على الأقدام أو راكبين الخيول ومعهم كامل موسيقاهم فى ثمانى صفوف متراصه، ويمرون أمام منصة الاستعراض، حتى يتسنى لى أن أرى كم ألف من الرجال، وكم من النقابات الموجودة، وأنه سيكون استعراضاً لم يسبق له مثيل فيما مضى . .

ويجب إعداد وصف عام لجميع الجوامع السلطانية، وجوامع الوزراء. والمساجد، والكليات، ودور تحفيظ القرآن، ودور الحديث، والمدارس، والمعاهد الدينية، والنزل، والحمامات، والمتاجر، والفنادق، وقصور الوزراء، والوجهاء، والنافورات، والمؤسسات لتوزيع المياه، والقنوات، والصهاريج، وأحياء المسلمين والمسيحيين واليهود، والكنائس، والبيع (معابد اليهود)، والمخابز للخبز والبسكويت، والمعامل التى تدار بالماء والهواء، والخيول، والقاعات العامة، والاستراحات، وجميع الدور، والبساتين، والأكشاك و« الشاليهات » وجميع المبانى التذكارية التى توجد فى أقسام المدينة الأربعة التى يحكمها قضاة استانبول الأربعة الكبار (مُلاّيان) (*).

وعلى سكان كافة الأحياء، وأعضاء النقابات، والأئمة، والخطباء، وكيخياوات معتمدو جميع الأحياء أن يجتمعوا ويسجلوا كل شيء، ثم يرسلوا الوصف الكامل إلى بابى العالى (*). والذين يُعدون الوصف يجب أن يكونوا ممن يتمتعون بصفة عدم المحاباة. وإذا وجد خلاف ذلك فاننى سوف آمر بتقطيع أوصالهم.

ولقد صدرأمره بأن تمرّنقابة صانعى البوظة (أى البيرة) آخر الجميع كما أنه ينبغى أن لا يوجد

(*) جمع « مُلاّ » . .وهى تحريف لكلمة « المولى » العربية بمعنى السيد . ويطلق هذا اللقب على علماء الدين الإسلامى فى الأقطار غير العربية مثل تركيا وايران وباكستان وافغانستان . كما كان يطلق على قضاة استنبول الأربعة .

(*) ومعناه الحضره أو مقام السلطان تشريفاً وتعظيماً . ويتبين من هذا النص ان = استعمال مصطلح « الباب العالى » للتعبير عن الحكومة العثمانية لم ينشأ فى ١٦٥٤م فى عهد السلطان محمد الرابع عندما منح هذا السلطان لوزيره داراً عظيمة كمقرة الرسمى كما يقول برنارد لويس فى كتابه، استانبول وحضارة الخلافة الاسلامية، أو كما قال Gibb فى كتابه عن النظم العثمانية. وهكذا فيصح ما قاله هامر أن هذا المصطلح كان يطلق أولاً على ديوان السلطان، ثم عندما تخلى السلاطين عن الأشراف على شؤون الحكم، وتركو حرية التصرف لرؤساء الوزراء أطلق على دواوينهم ومقرهم الرسمى أو على الحكومة العثمانية.

أى صاحب « حان » (*) فى المعسكر السلطانى . وعليهم أن يساعدوا صانعى « البوظة » ويخدموهم كـ « ياماك » أو الزملاء المساعدين فى الاستعراض، كما يجوز لهم أن يلعبوا موسيقاهم ذات ثمنى قطع كالنقابات الأخرى، ولكنهم سوف يمرون مع طبولهم وصنجاتهم فقط . وينبغى بهذه المناسبة أن يجرى إحصاء لبيوت صانعى البوظة والخمر وأصحاب « الخانات » .

ولقد أصدر السلطان بهذا الخصوص الخط الشريف (أى المرسوم السلطانى) موجهاً إلى الوزير الأعظم بيرم باشا . وإلى المفتى يحيى أفندى وملايان (قضاة) استانبول وأيوب (*) وغلطه واسكدار، يأمرهم جميعاً بأعداد وصف لكافة النقابات والمهن مع ذكر رؤسائهم ومؤسساتهم والآثار الفنية ومنشآت الوقف . فقبلوا الأرض (أمام السلطان) وأعدوا وصفاً شاملاً للدكاكين، والنقابات، والمؤسسات، والمنشآت الموجودة فى كل حى تنفيذاً لأوامره . فجاء هذا الوصف مائة الف مرة أكمل من الوصف الذى أعده مُلاّ زكريا أفندى فى عهد السلطان سليم، لأن استانبول، منذ ذلك الوقت إلى عهد السلطان مراد قد تضخمت بحيث لم يبق فيها موضع لأى مبنى آخر . ولقد اكتمل وصفها ووصف جميع ضواحيها، وقراها على شواطىء البوسفور فى ثلاثة اشهر . وشكل كتاباً جامعاً يحمل عنوان : « وصف القسطنطينية »، وقرأه المؤرخ صولاق زاده (*) ليل نهار فى حضرة السلطان، فهتف : « ياإلهى ! ارع هذه المدينة الى الأبد » .

وفيما يلى وصف مدينة استانبول الرائعة المعد حسب المرسوم السلطانى حفظها الله من الضعف والانحطاط .

محاكم العدل، تحت أربعة مُلاّيان (قضاة) لاستانبول وغلطة، يوب، واسكدار	٦٧٠
جوامع السلاطين الكبرى	٧٤
جوامع الوزراء الكبرى	١,٩٨٥
الجوامع الأخرى فى « أرباع » المدينة	٦,٩٩٠
المساجد الكبيرة والصغيرة الأخرى	٦,٦٦٥

(*) « الخان » هنا بمعنى محلات البغاء أو بيوت الدعارة . ومنه الاستعمال العامى فى العربية « كارخانة » بهذا المعنى . والظاهر أن هذه البيوت كان يديرها الأجانب من اليونانيين وغيرهم فى العاصمة العثمانية

(*) يسمى الأتراك حى الأصحابى أبى أيوب الأنصارى هكذا دون ذكر « أبى »

(*) وهو مؤرخ رسمى للدولة، توفى فى ١٦٥٧م . وتاريخه عن الدولة العثمانية فى اللغة التركية معروف بتاريخ صولاق زاده ومطبوع .

المطاعم الحكومية للفقراء = دور الحساء	١٩
المستشفيات	٩
المدارس الابتدائية	١,٩٩٣
مدارس تحفيظ القرآن	٥٥
دور الحديث النبوى	١٣٥
الزوايا أو التكايا الكبرى	٥٥٧
حجرات وقاعات لسكن الصوفية الدراويش	٦,٠٠٠
دور المرضى للغرباء	٩١
النُزُل (كاروان سراى) = الاستراحات على طرق القوافل	٩٩٧
فنادق للتجار	٥٦٥
فنادق للعزاب	٦٧٦
أحياء المسلمين	٩٩٠
أحياء اليونانيين	٣٥٤
أحياء اليهود	٦٥٧
أحياء الإفرنج (*)	١٧
احياء الأرمن	٢٧
قصور الوزراء	٦,٨٩٠ (*)
الحمامات العمومية والخاصة	١٤,٥٣٦
النافورات العمومية والخاصة	٩,٩٩٥
حنفيات المياه = المناهل	٩٨٩
مؤسسات توزيع المياه	٢٠٠

(*) وهم الجنويّون والبنادقة والفرنسيين والانكليز وغيرهم من سكان أوروبا غير اليونانيين .

(*) يبدو أن هذا العدد مبالغ فيه، أو أنه بالأحرى يشمل قصور الوجهاء والأعيان وذلك لأن الأمر السلطانى قد صدر باحصاء قصور الوزراء والوجهاء والأعيان » .

النافورات المسماة بـ«آيازما» الحلو والمالح	١٠٠
الآبار	٦٠,٠٠٠
الصهاريج	٥٥
مخازن المياة	٣,٠٠٠
الأسواق المسقوفة = المغطاة	٣
المطاحن الكبرى	٣٧
القبابين السلطانية	٣٥
مطاحن البُن (القهوة)	٢
مصنع الحرير	١
مصنع الشمع	١
مصنع الأسلاك الذهبية	١
مخزن الجمارك البحرية	١
مخزن الجمارك البرية	١
مصنع الزيت	١
مصنع السمك (المجفف)	١
مصنع الملح	١
مصنع البسكويت	١
مصنع الخمر	١
مصنع لـبارود	١
مصنع السجق	١
دار الضرب السلطانى	١
مغازة الأقمشة = متجر الأقمشة ـے	١
مغازة الذرة = متجر الذرة	١
مغازة الشعير = متجر الشعير	١

مغازات بايزيد وسليمان للخشب . والخيول ، والدقيق والدريس	٤
اصطبلات القصر وعند وفا (*)	١
دار الأسلحة(ترسانة ؟)	١
سجون الدولة	١
سجون المجرمين	٤
الأفران	٦٠٠
المطاحن الهوائية	٦٠٠
المطاحن التى تدار بالمياه	٢٨
دور مفتشى المواد التموينية، والخضار، واللحوم، ومفتش المدينة ومفتش المطابخ، واللحم المملح، والمذابح، وثكنات الإنكشارية القديمة والجديدة وفرقة سكبان (*)	١٦٢
ثكنات عجم اوغلان وثكنات الفرق المدرعة وعمال البحرية، الترسانة، وثكنات رماة القذائف	-
دور المولوية	٤
دار اللبن الرائب (يوغرت) = الزبادى	١
مصنع ورق البطال	١
دار الأسود السلطانية	١
دور الصباغة	٧٠
دور أوانى الفضة	١٠
مصنع البنادق	١
مخزن الرصاص	١
دار الموسيقى	١

(*) اسم ميدان فى استنبول.

(*) لفظة فارسية مستعملة فى التركية معناها حارس أو مدرب الكلاب . وكانت فرقة من الجيش الانكشارى هم المتطوعون الذين يقدمون أنفسهم للجندية بمحض اختيارهم وقت الحاجة الشديدة إلى الجند، ويؤلفون قسماً خاصاً من خمسة أقسام جنود الأيالات عزب، سكبان، تفنكچى، إجاره لى، ومسلم»

دار الخيامين	١
دار الفراشين	١
دار الرسامين	١
دار السقائين	١
دار رجال المدفعية (طوپچية)	١
دار السباكين	١
دار الخياطين	١
دار عمال العربات	١
دار صناع الألعاب النارية	١
دار تدريب الإنكشارية	١
دار « سمسونجى » أو (محافظو الكلاب الضخمة)	١
دار كلاب الصيد	١
دار البُستانجية	١
دار مدربى الصقور	١
دار رئيس الصاغة	١
دار صانعى السماور	١
دار صانعى الخل	١
دار صانعى الأزارير	١
دار صانعى السروج	١
دار صانعى الزجاج	١
دار رئيس التجار	١
دار حلوانى الفواكه أو الفاكهة الحمضية	١

سأعطى أنا الفقير أولياء تفاصيل عن الدكاكين والنقابات المختلفة للمهن اليدوية الموجودة فى القسطنطينية .

إن وصف نقابات استانبول البالغ عدة مئات من الصفحات ليعطى صورة حية زاهية لحياة المدينة المختلفة الألوان . وتنقسم هذه النقابات إلى ٥٧ قسماً، وتحتوى على ألف نقابة ونقابة . ومن المحتمل أن لا يعنى هذا الرقم إلا العدد الضخم، لأنه لم تذكر فيه غير سبع مئة ونيف نقابة . ويشتمل القسم الأول على المعلمين، وضباط الشرطة، والوصفاء فى البلاط، وضباط الصف (عجم أو غلان)، وكناسى الشوارع، وحفّارى القبور، وجنود الطلائع، عمال الألغام، والحجارين .

والطائفة الثانية تحت الرئاسة العامة لرئيس الشرطة تشمل نقابات الجلادين، وجنود الشرطة، ورجال الشنق، والنشالون، وقطاع الطرق والمجدفين ، والسائسين، وسماسرة الخيول، والخفراء .

ولكل قسم من الأقسام المذكورة رئيس، ويكون عادة زعيم النقابة الرئيسية فى ذلك القسم . وتتبع النقابات بعضها لبعض حسب « جدول الأسبقية » وكانت تظهر خلافات بين بعض الطوائف حول احقية كل منهما

كما حدث بين التجار والجزارين، وعرض كل منهم حجحه امام السلطان وبعد أن انتهى التجار من كلامهم، قرأ المفتى يحيى أفندى والمعيد أحمد أفندى نصاً من الحديث النبوى « خير الناس أنفعهم للناس » . وأصدر الإمبراطور من حينه مرسوماً قرّر أسبقية التجار على الجزارين. فطار هؤلاء فرحاً وابتهاجاً، وأخذوا مكانهم فى الأستعراض بعد قباطنة البحر الأبيض المتوسط مباشرة .

وكانت النقابات تقيم مهرجاناً عاماً مرة كل سنة :

ويمكن ذكر بعض النقابات على سبيل المثال :

إن تجار لحم البقر المجفف ستمائة . وهم تجار أغنياء . .ومعظمهم من مولداڤيا وولاشيه (*) (Moldavia, Wallachia) . .وذكر فى البيان الرسمى الذى قُدم إلى السلطان مراد الرابع، أنه فى الأيام التى كان فيها على آغا مفتش الجمارك، وحسين « نائب » اللحوم المجففة، كان يذبح ثلاثمائة ألف ثور. ولا يُعرف من هو رئيس هؤلاء الذين يسوقون الغنم والمواشى الأخرى . ويطهو الطباخون رؤوس وأكارع هذه الحيوانات المذبوحة . ويمرّ هؤلاء التجار الذين يسوقون الغنم والمواشى الأخرى . (فى الاستعراض) وهم راكبون خيولهم العربية فى زىّ جميل، وهم جماعة فى غاية النظافة .

تجار المشروبات ٥٠٠ رجل، ولهم ٣٠٠ دكان، وهم يزينون دكاكينهم بالآف من الكوبات والقصعات الصينية والفخارية اللامعة، الممتلئة بالمشروبات .

(*) وتعرفان فى النصوص العربية بالبغدان والأفلاق على التوالى .

ولتجار الثلج والجليد مؤسسة قرب سوق اخصار حيث يسكن رئيس دار الثلج السلطانية صيفاً وشتاءاً، ويشتغل ٣٠٠ بحارة تحت قيادته فى جبال قاطرلى (Katlrll ومُدانيا (Mudanya) واولمب (Olympus) دائما ويحملون الثلج والجليد والماء الحلو من هذه الجبال فى سفنهم ويأخذونها إلى المطبخ السلطانى وإلى دار الحلويات، وإلى منازل الحريم ودور الوزير الأعظم وكبار الشخصيات الأخرى. وإن العمال الذين يحملون الثلج والجليد من الجبال إلى البحر هم أصحاب البغال من مُدانيا ورجال قبائل بورصة الرحل، والحجارون. وعلى رئيس دار الثلج تفتيش تسعة مخازن كبرى للثلج القائمة فى جوار القسطنطينية.. .وفى الشتاء عندما ينزل الثلج، يجتمع الوزير الأعظم، وآغا الانكشارية، وبُستانجى باشى وقيودان باشا مع جم غفير من مائتى الف رجل فى آق ميدان maydan وهم يحملون المعاول وبعد أن يكوّموا الثلج فى أكوام كبيرة يرمونه فى مخازن الثلج.

وإن صيادى السمك الذين يصطادون فى شباك يدعى «قراطية» (Karatia) وأحصينا فى ميناء القسطنطينية، من نقطة سيراجليو إلى «أيوب» على جانبى الشاطىء ١٥٠ شبكة من المسماة بـ قراطية. وإن عشرة من صيادى السمك المنحدرين من الأصل اليونانى الذين فتحوا بوابة «بيترى» (Petre Gate) للسلطان محمد الثانى مُعفون حتى الآن من كافة أنواع الرسوم. وهم لا يدفعون أية ضرائب لمفتش مصائد الأسماك. و«قراطية» اسم جهاز الاصطياد الذى يتكون من ياردة أو عصا تمتد إلى الخارج من بيت على الشاطىء وشبكة مربعة مربوطة فى آخر طرفها، والتى تصطاد بها الأسماك. ويخضع جميع اليونانيين الذين يسكنون شاطىء الميناء لسلطة «بُستانجى باشى» القضائية، ولا يجوز لأى واحد أن يلقى أى شباك فى البحر بدون اذنه. وهم يدفعون إليه دوقة (Ducat) عن كل شبكة. .ويجب على الصيادين المُعفون من الرسوم أن يصطادوا الدُلفين (Dolphins) التى تستخدم كدواء للسلطان. وهم يعرفون المواضع التى تختفى فيها فى «جزر الأمير» (Prince's Islands)؛ وإذا طاردها أى واحد آخر فيعاقب.

وتجار الرقيق ٢٠٠٠ رجل، وهم يستعملون حجرات الخان (الفندق) الكبير حيث سوق الرقيق المنظمة. ويلبس هؤلاء الناس أحسن الثياب فى يوم الاستعراض العام ؛ كما يلبسها العبيد من بلاد الچركس (Circassia) ومكريليه (Mingeralia) وداديان (*)(Dadian) وغيرها، الذين أتى بهم كغنيمة شرعية، ويمرون بهم للاستعراض أمام الإمبراطور فى الكشك السلطانى، ويأخذ الإمبراطور مائة من ألمع عبيد الكرج، والأباظه، والچركس للقصر الإمبراطورى، ويجزل لأصحابهم الصلات العظيمة، وينتهى طابورهم بمفتش الرقيق

(*) بلاد الچركس او الشركس، ومكريليه (فى التركية) وداديان من مناطق القوقاز أو جمهورية ققفاسيا

رجال الختم. إن مكتب الختم بناية عظيمة بالقرب من مصنع الصاغة فيها حديقة وحمام، ويخدم فيه سبعون موظفاً. إنهم يختمون الطغراء (أى علامة التوقيع السلطانية) على جميع أوانى الفضة المصنوعة فى القسطنطينية وتختلف هذه الطغراء من الطغراء المنقوش على قطع النقود بفارق الكلمة: «المنتصر دائماً» المنقوشة على مؤخر الذكر. ورئيس الختم مفتش جميع الصاغة فى نفس الوقت، لأنه يضع الختم على مصنوعاتهم بعد فحص الفضة المستعملة فيها. وضريبة الختم ٦ آقچة يذهب ثلاث منها إلى الخزينة، ويقسم الثلاث الباقية بين رئيس دار الختم والصوفية الثلاثة فى القبة. وإن تجاسرالصوفية الثلاث بختم الفضة ذات عيا ر أقل من المأمور به قطعت رؤوسهم، وعيّن مكانهم رجال أتقياء. وإن وجدت الفضة المطروحة فى النار لأجل الفحص غير خالصة، صادرها رئيس مكتب الختم باسم الإمبراطور، أو كسرها بمطرقة فى قطع صغيرة وأعادها إلى صاحبها. وهو يعمل هكذا بأزارير الفضة إذا وجدها مجوفة، أو محشوة بمعدن رخيص. وكل ذلك حسب قانون السلطان سليم الأول الذى كان بنفسه صائغاً وختاماً. وإن المبنى المختص بمكتب الختم من إنشائه هو.

الخياطون. لهم مؤسستان عظيمتان: الأولى قرب دار الأسود، من بناء السلطان محمد الثانى (الفاتح) ويسكن فيها رئيسهم. والثانية مقابل «كشك الاستعراض» من بناء السلطان سليمان. ويعمل فى كل منهما ٥٠٠ رجل. ويبلغ عدد دكاكين الخياطين خارج القسطنطينية ٣,٠٠٠ دكان فى كافة أحياء أرباع المدينة. ويبلغ عدد العاملين (بها) ٥,٠٠٠ رجل. وبالإضافة إلى رئيس الخياطين السلطانية اللذين يسكنان فى المؤسستين المذكورتين، هناك رئيس ثالث، وهو رئيس جميع الخياطين فى داخل المدينة وخارجها. وهم يزينون دكاكينهم على عربات. فيها جميع أنواع الثياب الغالية كما يحملون عدداً كبيراً من الملابس المصنوعة من القماش المصرى فوق العصى، ويكون جميع غلمانهم لابسى الدروع، لأنهم نقابة مهمة جداً فى المعسكر، ولأجل ذلك حصلوا على مرتبة فوق مراتب المؤسسات الآتية:

الدباغون. هناك ١٢ مدبغة كبيرة فى أقسام القسطنطينية الأربعة.

وصانعوا الأحذية ٤,٠٠٠ رجل ولهم ٣٤٠ دكاناً، وسبعة مصانع فى سوق المرجان، حيث يسكن ما لا يقل عن ٨,٠٠٠ رجل عازب، المستخدمين فى هذه النقابة. ولهم رؤساؤهم الخصوصيون، الذين يعينون بحسب الفرمان السلطانى الصادر من السلطان سليمان (القانونى) الذى أعفاهم عن الخضوع لأية سلطة قضائية أخرى غير سلطة هؤلاء الرؤساء القضاة. فإنهم يعاقبون مجرميهم بأنفسهم حتى عقاب الموت، ويدفنونهم فى حدود مؤسستهم.

ويمر صانعوا الأحذية وهم مسنحون، ولكن حفاة الأقدام، حاسري الرؤوس، وهم يزينون دكاكينهم بأنواع من الأحذية والنعال من جميع القياسات الممكنة.

وصانعو العَرق (*) ٣٠٠ شخص ولهم مئة دكان، وإنهم يعصرون المشروبات الروحية من جميع أصناف النبات . . .

وكان التجار ووكلاء الحكومة من البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط ومن وادى النيل ووادى الدانوب يزودون سكان المدينة بحاجاتهم الاستهلاكية اليومية العديدة من الخبز، واللحم وغيرها من الأطعمة. وكان المستوردون وأصحاب المصانع يستوردون الأقمشة وحاجات الزينة والكماليات. وكان المال يسيل فى المدينة، من الضرائب. وأموال الجزية من الولايات، ودخل الإقطاعات، والمنح، والصياغ، والمناصب، وارباح التجارة. وكان ثمة رجال آغنياء يسكنون فى القصور الفخمة. وإلى جانب الكثيرين الذين ازدادت ثرواتهم بواسطة ممارسة السلطة أو الوظائف الحكومية، كان ثمة تجار أغنياء، ورجال المال المرفهون، ورجال الأعمال، لهم أعمال ومشاريع تجارية واسعة النطاق.

إن النقابات، وبصورة خاصة منظمات «الأخيان» (الأخوان) الفتوة والمهنيين لعبت دوراً هاماً فى حياة المدينة الاجتماعية والتجارية [١].

الحياة الثقافية فى إستانبول:

بعد فتح القسطنطينية، وتحوُّل اسمها إلى إستانبول، وإقامة بلاط السلاطين بها. . اتخذت الحياة الثقافية، فيها بعداً جديداً. . تحولت من الأقليمية فى بورصة، وأدرنه إلى مركز فى عاصمة الإمبراطورية. . ومركز مهيب يقع بين أوروبا وآسيا ويجمع بين أجمل سمات القارتين. .

فالواقع أن الفاتح نفسه، كان مثقفاً ممتازاً، وشاعراً، على دراية بفنون الشعر، ومجيداً للعربية والفارسية، ملما ومحيطاً بالأرمنية، واللاتينية، والسلاڤية، وحتى اليونانية والكلدانية والعبرانية. . كان يشعر بالسعادة لوجود بعض أمراء بيزنطة، فى القصر، ليتقن معهم بعض هذه اللغات. . كما كان واسع الاهتمام بأصول الدين، وعلومه. . وقد عمل بشكل منهجى على تحويل عاصمته إلى بؤرة فكرية، وثقافية عظيمة. . تمثلت إحدى مهامه الجليلة فى إصلاح المدارس، ونمط التعليم، وتحديثه، فقام بتقسيم المدارس - «الجامعات» إلى كليتين بما يتمشى مع مستويين من مستويات

(*) نوع من المشروبات الكحولية، يصنع من غير العنب.

(١) استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية، مرجع سبق ذكره ص ١٤٤ - ١٦١.

المعرفة.. فيهما يجرى تدريس العربية والفارسية، وعلوم الدين، والشريعة الإسلامية، والمنطق والحساب والفلك والطب.. ويؤسس فى إستانبول، جامعة كبرى، تضم ثمانى كليات.. ويستدعى إليها أفضل العلماء المسلمين، من شتى العواصم الإسلامية، واتاحة تعليم الطب على أيدى أفضل الممارسين من جميع الطوائف دون النظر إلى الدين، أو العرق، أو الخلاف العقائدى.. ويأمر بالحاق مستشفى بكلية الطب، ليتم المزج بين النظرية والتطبيق.. ومنافسة لعمل الزهراوى بالعربية، يتم إعداد رسالة ضخمة بالتركية عن الجراحة مزودة بصور المنهنمات، وأهديت إلى السلطان سنة ١٤٦٥م - ٨٧٠هـ. بل ويأمر بترجمة مؤلفات علمية، وتاريخية وجغرافية عن اليونانية إلى العربية، والفارسية.. كما أبدى اهتماماً طيباً بالمسيحية، وبالحضارة الغربية، واستدعى إلى بلاطه عدداً من المثقفين والفنانين الإيطاليين، من بينهم الرسام چنتيل بيلليني، الذى رسم له بورتريها رائعاً.. وصمم بعض الميداليات التى كان يمنحها للسفراء، والأدباء، والعلماء والمبرزين فى ساحاتهم..

الموسيقى:

ونحن نقدم للحديث عن ثقافة العاصمة.. إستانبول.. لا يمكن أن نوغل فى الحديث قبل الإشارة إلى جمال، ونقاء، وروعة الموسيقى التراثية العثمانية.. فقد صهرت التراث الرصين للعرب والفرس وأضافت إليه الذوق التركى، فظهرت الموسيقى الكلاسيكية العثمانية التى يندر، بل يصعب على الباحث المدقق؛ أن يرصد فيها تأثير غربى فى التطور المتزايد الرهافة للموسيقى العثمانية.. خاصة الموسيقى الأوركسترالية، المرتبطة حميماً بالسراى، وأفراح البلاط، وإحياء الاحتفالات الرسمية، والإحتفالات الدينية للطرق الصوفية، والتى مازالت تلقى ابتهاجاً، واصغاءاً كموسيقى الطريقة المولوية حتى اليوم .

الأدب:

الأدب، فى العاصمة، تعتبر أجناسه، وأشكاله موروثة، من حيث الجوهر، من قرون سابقة، وروافد متعددة، والمؤثر غير التركى فيه، هو المؤثر العربى - الفارسى. فهو كسابق عهده وعنعناته أدب إسلامى بشكل نموذجى.. حتى فى المؤلفات الأكثر دنيوية، وإن كان مصدر الإلهام فيه ليس دنيوياً.. لكن التعبير فيه هو الذى يُحيل دائماً، وأبداً إلى الإسلام.. بل إن شعر الغزل.. يتدثر بالشعر الصوفى، حيث يأخذ الحب الإنسانى شكل التوحد فى الحب الإلهى.. ويوحد الشعر الخمرى بين السكر، والنشوة الدينية والاستغراقة الصوفية وهو فى ذلك استمرار لخصائص الشعر الفارسى..

الشعر والشعراء:

إن الشعر، وأعداد الشعراء، وأهميتهم فى الحياة الثقافية فى البلاط الارستقراطى، وبين الطبقة الأرستقراطية المتأدبة فى تزايد، وتطور، ونماء مع توسع الإمبراطورية.. يتمتع الشعراء بالحماية، بل والرعاية والإعاشة،، من جانب السلاطين، والوجهاء.. بل كان من السلاطين مَنْ يقرض الشعر، وينشد الغزل، ويعارض الشعراء.. وكان من بين الشعراء من يتميز بصدق الإيمان، وعلو الجاه والمنصب، بل عرفت العاصمة شيوخاً للإسلام من ذوى الباع الطويل وعلو الهمة فى الشعر، ومَنْ لاقوا نجاحاً كبيراً فى الطرق الدينية، ذات الاتجاه الصوفى، والتى ازدهرت طوال التاريخ العثمانى.

كان بلاط العاصمة، ساحة مميزة للشعر، يتبارى فيها كل الشعراء بمن فيهم السلاطين والأمراء ذوى المواهب.. للشعر والشاعر احترامه ومكانته بين سيدات السراى. والقصور. وسيدات المجتمع الراقى، تهتم عديدات منهن به، بل منهن مَنْ تقرضه. الشعر هو سلطان المجالس، المهيمن على الأجناس الأخرى، حتى فى عواصم الولايات، وفى العاصمتين السابقتين؛ بورصه، وأدرنه فى بغداد بعد فتحها ١٥٣٤م-٩٤١هـ.

والواقع أن شعراء البلاط-«الديوان» العثمانى، كانوا جميعاً ممن تخرجوا فى المدارس الكيلاسيكية، وتلقوا التعليم على مستوى عالٍ فى تلك المدارس السلطانية، وهم على دراية كاملة بالعربية، والفارسية شكلاً، ومضموناً..مُفْعَمون بالثقافة الأدبية العربية، والفارسية؛ مُعجماً ثرياً، وروحاً شعرية فارسية كلاسيكية، يُطوِّرون اللغة الشعرية بشكل مضطرد..محتفظين بجوهر البناء اللغوى للغة الأم، وبنحوها..حتى وإن اختزلوا الإستخدام اللفظى لها، أمام طلاوة اللفظ العربى، ورقة المفردة الفارسية..

لم يبتعد شعراء بلاط العاصمة عن استلهام تيماتهم، وصورهم الشعرية من التراث العربى-الفارسى..ولكنهم جددوا بشكل ملحوظ، وبخيال واسع الرموز، والحيل اللفظية، والمحسنات البديعية، تخيروا المفردات ذات المعنى المزدوج، أو الثلاثى عمداً، لإظهار البراعة من ناحية، والخلق اللبس بين المقَّدس، والمعنوى من ناحية آخرى..دون الإخلال بموسيقية الشعر، وجرسه اللحنى..

حذقوا العروض العربى-الفارسى، وتألقوا فيه، وتنمقوه تنمقاً حذقاً..وبرعوا فى المزج بين الإيقاع الداخلى، والخارجى أو المجانسات الصوتية الأكبر براعة، إمتثالاً لدعوة الفن للفن دون صياغة نظرية مسبقة.

طوَّر أغلب شعراء العاصمة، ببراعة التيمات الفارسية للشعر، أشاروا إلى تقلب أطوار الدنيا، داعين للتأمل فى الآخرة..يدور على ألسنتهم عشق الغلمان. والخمر..ولوعة الفراق..وخشية

ابيضاض الشعر. .إحساسهم بالطبيعة هو إحساس عاشق مَدِين للجمال ، راغب فى الوصال . .يُغنون للحدائق، والأزهار، والفراشات والأطيار . .يتنسمون نسمات الورود، ومياه الأحواض والنافورات فى المتنزهات . .مع ميل خاص لطائر العندليب، ولون الوردة . .واقتراب الفراشة من ضوء الشمعة . .وإيثار لضوء القمر على حرارة الشمس وللربيع على أى فصل آخر . .مفضلين السرو، على الحور، والدلب . .

ولما كانت الساحة الزمنية ممتدة . .والعاصمة جاذبة معطاءة توافد إليها الكثير، وترعرع بين أحضانها الأكثر من الشعراء، مما يصعب معه التخير، والتفضيل . .لذا رأينا الإكتفاء بالإشارة إلى أصحاب الباع الطويل، والبصمة الواضحة فى التطوير والتجديد، والانتقال من مرحلة إلى آخرى . .

يأتى فى مقدمة هؤلاء أحمد باشا، أحد رجال حاشية محمد الفاتح، والذى عاش بعده حتى سنة ١٤٩٧م - ٩٠٣هـ. كان مقلداً جيداً للشعراء الفرس، ومن بينهم حافظ الشيرازى له دور تاريخى هام؛ من حيث كونه مجدداً لشعر البلاط العثمانى، حاذقاً للمعجم اللغوى، وللرمز، ولبحور الشعر الفارسى، مدشناً لسلسلة من شعراء البلاط الذين نال بعضهم مجداً تليداً . .

باقى:

ثم يأتى باقى (١٥٢٦ - ١٦٠٠م- ٩٣٣ - ١٠٠٩هـ) وهو فى الواقع أكثر الشعراء تألقاً . . ظهر، ونبغ فى عهد السلطان سليمان القانونى، الذى أدرك بسرعة بالغة موهبة الشاعر، فضمه إلى مجلسه الأدبى، تلقب وهو مازال على قيد الحياة بسلطان الشعراء. كان والده مؤذناً لجامع السلطان، فأتاح له ذلك ثقافة عميقة، وصعوداً سريعاً إلى زمرة العلماء . . تولى منصب قاضى عسكر الروميلى . . ترشح لمنصب شيخ الإسلام، ولكنه لم يظفر به، له نتاج يعلى من شأن صاحبه فى مجال الدراسات الدينية . . ولكن قصائده الغنائية هى مصدر شهرته . . مزج فى أدبه بين أدب الدين، والدنيا . . كان من عشاق المزاح، والثقافة العربية - الفارسية . . طور التيمات الدينية الصوفية . . تحتل الخمر، والغلمان، مكانة رمزية هامة فى أعماله . . يجمع أسلوبه الرائع بين القوة والرشاقة . . والجذالة، والرصانة وما مرثيته للسلطان سليمان القانونى إلا سيمفونية تجسد موسيقية أشعاره الرصينة . . جاء بعده؛

فضولى:

فجسد فضولى (١٤٩٤ - ١٥٥٥م = ٩٠٠ - ٩٦٣هـ) عظمة الإمبراطورية فى القرن السادس

عشر الميلادى، العاشر الهجرى، الذى يعتبر العصر الذهبى للعاصمة، والإمبراطورية معاً. إزدانت العاصمة بأروع المنشآت المعمارية، والمؤسسات التعليمية، والمحافل العلمية ومجالس الفكر، وليالى السمر، فكما أن عصر سليمان هو أزهى عصور العاصمة، فإن شاعرنا فضولى البغدادى، هو أعظم شعراء التركية العثمانية قاطبة؛ صهر الثقافات الإسلامية، والعرقية، والمكانية، وأخرجها من بوتقة الحضارة الإسلامية فى ثوب جديد، وطعم جديد.. وغنائية فريدة.. مزج بين ثقافة اللغات العربية. والفارسية، والتركية، وطرح الصراع المذهبى جانباً، واستمد الزاد من معين الشعر الغنائى العربى، والفارسى، وصاغه بالتركية إلى جانب العربية والفارسية فأصبح من أصحاب الدواوين الثلاثة. تغنت العاصمة بشعره الغنائى، حتى وإن لم يدخلها مع الداخلين.. لقد مزج فى «ليلى والمجنون» بين الحب العذرى، والتسامى الروحى، ترك تراثا صوفياً، نقياً، لا تشوبه شائبة التأويل، وعشقاً صوفياً لا يلقى صاحبه الجزاء الأوفى، إلا فى الآخرة.. تسامى بالعواطف والصور، والرموز فوق كل إلتباس.. جدد بتعبير بهيج عن هذا الجنس الأدبى التقليدى فى الشعر العربى والفارسى.. عبر عن مكابدات الحب، بنبرات صادقة، ورقة وغنائية متناهية.. ففى مثنويته «ليلى والمجنون» يكتسب إلهامه الصوفى قوة، وعظمة. وتعبر المنظومة عن وحدة الثقافة الإسلامية. فى بلاط الإمبراطورية، ويحذو حذوها حتى المعاصرون من الكتاب والشعراء الأتراك..

نفعى:

بز نفعى (١٥٨٢ - ١٦٣٥م - ٩٩٠ - ١٠٤٥هـ) كل أقرانه وأترابه فى شعر المديح، خلال القرن السابع عشر الميلادى، الحادى عشر الهجرى فقد كان جليسا للسلطان مراد الرابع، وكتب له المدائح الفخيمة.. تعتبر فريدة فى بابها.. ولم ينس نفسه فى هذا الصدد، له غنائيات خفيفة، وهجائيات لاذعة تكون سببا فى شهرته، وفى أن يلقى حتفه قتلاً، ويأمر السلطان بالقاءجثته إلى اليم.

تشهد العاصمة بعض ملامح الفساد، والتدنى، لكثرة الحروب، وتلهى السلاطين، فى العقود الأخيرة من القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر الميلادى، الثانى عشر الهجرى.. فيظهر الشاعر نابى (١٦٤٢ - ١٧١٢م - ١٠٥٢ - ١١٢٤هـ) الذى يغادر العاصمة إلى حلب بعد أن يكتب إلى ولده، وفلذة كبده، كتاباً صغيراً، يتضمن مجموعة من النصائح الشعرية، يبثه فيها خلجات قلبه، وأمنياته فى أن يبتعد عن مفاسد الدهر، حتى يأمن غدر الزمان.. ومن هنا فإن خيرية نابى، من أمتع الأعمال فى الشعر العثمانى.. فهى إلى جانب كونها عملاً أدبياً مشهوداً لها بالجزالة، وإعلاء شأن الأدب، فهى تصور بصدق - وبدون أدنى مجاملة - أحوال الحياة آنذاك؛ من صعود للفساد، وخراب للذمم، ويرسم الشاعر لوحات شعرية للوسط السائد تتميز بحيوية فائقة..

وقصائده الأخرى تتضمن عناصر ساخرة ذات نبرة جديدة على الأذن العثمانية فى حاضرة الدولة . .

عصر اللآله:

تميزت فترة حكم السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠م) وخاصة، تلك الفترة التى تلت معاهدة ١٧١٨م - ١١٣١هـ، بين الإمبراطورية العثمانية، من ناحية، والنمسا والبندقية من ناحية أخرى، وفى ظل صدارة الصدر الأعظم إبراهيم باشا بالهدوء والسلم، كما تميزت بالرفاهية، ورغد الحياة فى البلاط، وفى العاصمة، واتسمت بالأعياد، والاحتفالات. ومباهج المعيشة اليومية، وبأشكال من اللهو والتسلية المختلفة، وبإنشاء الحدائق العامة، وفى السرايات، والقصور وكلها مزدانه بشتى أنواع زهرة اللاله - الخزامى » . لقد كان بين البلاط، والطبقة الإرستقراطية إفتنان غير عادى بهذه الزهرة التى تم استيرادها من هولندا بعد أن كانت مستنبتة من زهرة برية فى الأناضول . . بحيث أصبحت سمة للعصر كله . . وأصبحت موضة . . العصر فى الفن والأدب ومختلف منابع الثقافة . وفى العمارة أيضا . .

كان شاعر عصر اللاله النزق هو نديم (توفى ١٧٣٠م - ١١٤٣هـ) ابن أحد قضاة إستانبول . الذى تدرج فى سلك التدريس حتى أصبح استاذا فى المدرسة . . ومن صفوة الصدر الأعظم إبراهيم باشا . ولا تكمن عظمة نديم، وآصالته، فى قصائد المديح، التى دبَّجها فى السلطان، والصدر الأعظم، بل فى القصائد القصيرة التى قرضها لكى تُغنى فى الأعياد، والاحتفالات بمصاحبة الموسيقى . .

هذه القصائد، حتى وإن كانت تراثية التيمات، إلا أنها كانت تعالج التراث بنبرة مرحة، رشيقة مغناة . . تتجنب الرياء الصوفى الكاذب . . بل انطلقت قصائده لتصف الحدائق، والملابس، والألوان، والمباهج بشكل تلقائى وعفوى خلق نديم صوراً شعرية جديدة، تجنب الأسلوب الملتبس المعقد . . اتسمت أشعاره ببساطة معبرة عن روح العصر، وما فيه من رغبة فى الترف، والتمتع بمباهج الحياة . . ومن هنا كانت أشعاره بعيدة عن الوعظ الأخلاقى المباشر، والتجديف المتدثر بالطلاء الدينى البراق . .

كرد فعل، فى الأوساط الفقيرة . فى العاصمة، لهذا الاستقلال الفكرى واللامبالاة بما هو مقدس، ومتوارث . وبذخ البلاط المنفلت الزمام، وفلس الإنكشارية، وعدم انضباطهم لسيادة السلم، تمرد السلفيون، والإنكشارية، وخلفهم الأوساط الفقيرة، فخلعوا السلطان أحمد الثالث سنة ١٧٣٠م - ١١٤٣هـ وذبحوا الصدر الأعظم، ويكون شاعر البلاط، ونديم السلطان من بين ضحايا هذه الثورة .

توالت الإنكسارات . . وتتابعت الهزائم، وتوارى شعر البلاط، وتاقت النفوس، ولو لسويعات قليلة إلى التخلص من أسن الحياة ومطالبها . . واشتاقت من جديد إلى النبع الصوفى الرقراق، ومن هنا شهدت العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادى . الثانى عشر الهجرى بزوغ نجم شاعر حقيقى آخر . . وإن كان مصدر الهامه مختلف، ووسطه الثقافى متغاير . . ذلك هو غالب دَدَه . أو الشيخ غالب .

الشيخ غالب: (١٧٥٧ـ ١٧٩٩م = ١١٧١ ـ ١٢١٤هـ)

ولد، ومات كنديم فى العاصمة . هو درويش مَوْلَوِى راسخ العقيدة، تولى رئاسة تكية مولوية غلطة . مات . ولم يتجاوز الثانية والأربعين من عمره فى بداية سنة ١٧٩٩م ـ ١١٤هـ . أعطى الشعر الصوفى عذوبته المعهودة . . خلق عالم جديد من الحُسن والعشق، وشيد مدينة فاضلة للمحبين العاشقين فى قصته الرمزية، الشعرية « حُسْن وعشق » . أبدع الشيخ غالب فى منظومته هذه بطلين خياليين . . أبدعهما ببراعة خياله، جعل « عشق » الولد، و« حُسن » الفتاة، يولدان فى جزيرة العرب . . يعيشان وسط شخصيات مجردة، كالشهوة، والحيرة، والتواضع . . يتحاب الشابان . . ولكن توضع أمامهما العقبات التى تحول دون الوصال . . تتبارى الشياطين والملائكة فى مخيلة الشاعر، فيبدع مغامرات غريبة، منبعها، وإلهامها نزعة صوفية صادقة . وفحوى القصة الرمزية أنه . . :

ولد فى قبيلة « بنى المحبة » فى جزيرة العرب فتى يقال له (عشق) وفتاة تدعى « حُسن »، يذهبان معاً إلى « مدرسة الأدب » ليتعلما على يد (مولانا جنون) فيخفق قلباهما بالحب، وينعما بالوصل فى « متنزه المعنى » وصاحب هذا البستان هو (اللفظ) . . ولما يكبر الحب لديهما، وتعلم به القبيلة، تفرق بينهما . . فيتراسلان، ويتشاكيان حتى يعصف الوجد بهما . . فيطلب (عشق) يد (حُسن) من أهلها، فيطلبون منه مهرها، أن يرحل إلى (مدينة القلب) ويأتيهم منها (بالكيميا) .

يمضى العاشق فى طريق موحشة، تكتنفها العقبات والأخطار من كل جانب، وكاد يقع فريسة للمردة والشياطين، إلا أنه ينجو بفضل مساعدة (اللفظ) وارشاده حتى يوافى مدينة القلب، وينال مراده عندما يجد هناك من يحب . .)(*) .

الغرض كما نرى صوفى، أراد الشاعر المولوى أن يصور فيها بالرمز الطريق الذى يجب على السالك أو المحب أن يسلكه، حتى يدرك محبوبه، وهو الحب المجازى، الذى يبدأ به السالك حتى ينتهى به المطاف إلى المحبوب الحقيقى، أو الحب الإلهى . . والسبيل إلى ذلك هو الجمال الروحى، أو جمال المخلوقات، للوصول به إلى الجمال المطلق، أى إلى الله . .

(*) الصفصافى احمد المرسى، دراسات فى الشعر التركى، القاهرة ١٩٧٨ . ص ١٣٧ ـ ١٦٦ .

وهكذا، فإن غالب دَدَه، ذا المعرفة التامة بأعمال المتصوفة الفرس، ومولانا جلال الدين الرومى (١٢٠٧ - ١٢٧٣ - ٦٠٤ - ٦٧٢هـ)، يُظهر براعة أدبية عظيمة، وتبتكر نزعته العقلانية الدينية أشكالاً جديدة للتجريد العاطفى، فالسالك هو «عشق» و«حسن» هى جمال الخلق، أو الجمال المجازى، الذى هو بالتأمل والتفكر سبيل المحب إلى الجمال المطلق و«اللفظ» هو رمز للشيخ، والمرشد الذى يعين المحب على اجتياز الطريق من المجاز إلى الحقيقة.. و«الغيرة» التى أراد لها الشاعر أن تكون ملازمة للمحب، ما هى إلا حمية المريد، وعاضده على التعلق بعين محبوبه.. أما «الحيرة» فهى القلق الذى يدفع المحب العاشق إلى التعلق بالجمال الإلهى..

العاصمة ترتدى ثوب الحداثة:

سيظل الشيخ غالب، دون قراء، آخر شاعر تقليدى عظيم فى عاصمة الإمبراطورية، وحتى الأعوام الأولى للقرن العشرين، وسوف يستمر تعاطى الأجناس الأدبية، والتيمات الكيلاسيكية بشىء من التحديث خلال القرن التاسع عشر الميلادى، والثالث عشر الهجرى..

إن تنامى صعود الإمبراطورية، نحو الهاوية خلال القرن التاسع عشر قد دفع بقادتها، ومفكريها إلى التأمل فى أسباب التدنى، والإنحطاط، ورأوا أن السبب الأعم هو تزايد الدونية العلمية، والتقنية، وأن المؤسسات التعليمية. لم تعد متوائمة مع سرعة التطور العالمى ويؤدى هذا التأمل إلى ظهور مفهوم الحداثة عندهم.

لم تتوان الأوساط المؤثرة؛ بتبنى فكرة التحديث، فى المجال الدنيوى، وخاصة الميدان العسكرى؛ حيث تظهر الأولوية الملحة للإقتداء بنموذج جيوش أوروبا الحديثة، وحيث يبدو للعيان ما وصل إليه محمد على فى مصر.. فيجرى اتخاذ إجراء حاسم سنة ١٨٢٦م - ١٢٤٢هـ من جانب السلطان محمود الثانى على غرار ما حدث من جانب محمد على تجاه المماليك.. فلم يتورع محمود الثانى عن ذبح الإنكشارية عندما تمردوا، ويتم حلّ قواتهم وتنظيم الجيش، وفق النظم الغربية الحديثة. ويمد السلطان يد التحديث إلى ميادين أخرى، ويسير إبنه، وخليفته عبدالمجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١م = ١٢٥٥ - ١٢٧٨هـ) على نفس الدرب، بل يتعداه، ويُعلن أمام اجتماع مهيب، فى ضولمه باغچه سراى «التنظيمات» الأولى سنة ١٨٣٩م - ١٢٥٥هـ والتى يتمثل فكرها الأساسى فى إعلان المساواة بين جميع الرعية دون أى امتياز على أساسٍ من العرق، أو الدين أو القومية.

ومما له دلالته؛ أن نص لائحة التنظيمات قد صدر بالفرنسية، جنباً إلى جنب مع التركية.. ومن بَعْدها.. بدأت الفرنسية تحتل مكان الصدارة فى البلاط، وصفوة العاصمة، ومؤسساتها التشريعية،

وسرعان ما تنتشر الدراية بها، وهى التى تحمل بين طياتها الثقافة والأفكار والأنماط الفرنسية. .ويسرى التأثير بها بين أرستقراطية العاصمة، وجموع المثقفين بها. .ويحدث الزخم بالعلوم المرتبطة بالفن العسكرى، كما حدث فى التجربة المصرية على يد محمد على الكبير، وبالصحة، وتوالت البعثات، وهرب الآحرار فيما بعد إلى فرنسا خاصة، وأوروبا عامة. .وبسط رعايته عليهم هنالك الأمير المصرى مصطفى فاضل .

لم يكن السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١) = ١٢٥٥ - ١٢٧٨هـ . نصيراً كبيراً للتحديث، وصبغ المؤسسات، والثقافة التركية بالطلاء الغربى، فقط، بل سعى سعياً حسيساً، لأَوْرَبَة العلوم التدريسية فتأسست فى عهده أول جامعة حديثة فى العاصمة استانبول سنة ١٨٥٠م - ١٢٦٧هـ. حيث أمر بتشكيل، وانشاء «آنجمن دانش» أى آكاديمية العلوم، ومنذ ذلك الحين، ونحن نرى اللبنات الأولى لثنائية ثقافة العاصمة. .فما زالت المدارس =« الكليات » التقليدية تغذى المجتمع برجال الدين، والطبقة المتعلمة المحافظة، بينما الآكاديميات الجديدة تستهوى الصفوة المثقفة التى تهجر المدارس؛ لتشارك فى الحياة العلمية والثقافية الحديثة. .وتتبنى هذه الصفوة نمط الحياة الغربى، وتصبح الفرنسية بديلاً للعربية والفارسية، وتحتل المرتبة الثانية، وتتزاحم الترجمات، والاقتباسات عن الأدب، والفكر الفرنسى .

ظهور الصحافة، والمدارس الأدبية ومجلاتها :

لعبت الصحافة، الدور المؤثر فى التجديد ؛ الفكرى والسياسى والأدبى، وحتى فى نقل نمط الحياة، والثقافة الغربية إلى المتلقى التركى فى العاصمة استانبول. ولعب الصحفى ، والشاعر، والأديب شناسى (١٨٢٦ - ١٨٧١م = ١٢٤٢ - ١٢٨٨هـ. دوراً كبيراً فى هذا الصدد، إذ أصدر بالإشتراك مع آكَاه أفندى فى اكتوبر سنة ١٨٦٠م = ١٢٧٧هـ. جريدة « ترجمان أحوال » = ترجمان الأحوال، ثم أصدر بمفردة مجلة « تصوير آفكار » = تصوير الأفكار اعتباراً من ٢٧ حزيران سنة ١٨٦٢م - ١٢٧٩هـ. وكان شناسى أول رئيس تحرير، لأول مجلة أدبية، وسياسية، وفكرية مستقلة. كما كان معتدل الفكر، بالرغم من إقامته على نفقة الدولة فى باريس منذ ١٨٤٩ - ١٨٥٣م لدراسة المالية، إلا أنه صادق الشاعر الفرنسى « لامرتين »، فإتجه إلى الأدب والصحافة بعد عودته إلى استانبول .

كانت جولة السلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦م = ١٢٧٨ - ١٢٩٣هـ) فى أوروبا عقب زيارته الرسمية لفرنسا سنة ١٨٦٧م - ١٢٨٤هـ. سبباً فى جدل كبير حول الحداثة، والتحديث فى تركيا، ورآه البعض أصبح ممكناً بشكل أسرع بعد هذه الزيارة. كما شهدت العاصمة فى عهده طفرة

فى إنشاء المدارس،والكليات على النمط الفرنسى، خاصة، والغربى بصفة عامة.. ودخلت الأقليات، والجاليات الأجنبية حلبة الصراع لنصرة ثقافة الحداثة، على ثقافة الموروث..وزاد ذلك من حدة الثنائية والصراع بين التحديث، والتأصيل..

تجمع خريجو غلطة سراى الثانوية، الفرنسية المناهج، والتى تأسست سنة ١٨٦٨م - ١٢٨٥هـ. حول مجلة (ثروت فنون) = ثروة الفنون التى بدأت تصدر اعتباراً من ١٨٩١م - ١٣٠٩هـ تحت اشراف أحمد إحسان (١٨٦٨ - ١٩٤٢م) وعملوا على نشر الثقافة الحديثة بين المثقفين، ولكن ما أن تولى توفيق فكرت (١٨٧٠ - ١٩١٥م) رئاسة تحرير هذه المجلة، حتى كتب صراحة أنها نافذة تطل على الغرب، وتنقل الغرب بتقدمه، وحداثته إلى القارىء التركى.

ولا نستطيع أن نغفل الإشارة إلى جريدة «حوريت» الحرية التى أصدرها عبد الحميد ضيا باشا (١٨٢٣ - ١٨٨٠م) بالإشتراك مع نامق كمال (١٨٤٠ - ١٨٨٨م) فى لندن، «ومخبر» و«علوم» اللتين أصدرها على سيعاوى فى كل من لندن، وباريس..فقد كانت هذه النشريات الصحفية تدخل البلاد سراً، وتحدث أثراً كبيراً فى ايقاظ الحياة الثقافية فى العاصمة.

أما الجماعات الفكرية، والأدبية التى شهدتها العاصمة منذ التنظيمات فأشهرها وأعظمها أثراً هم:

أ - جمعية «العثمانيون الجدد» والتى تشكلت بهدف إقرار القانون الأساسى = «الدستور» فى العاصمة. وقد عملت ضد السلطة المركزية، والصدر الأعظم..

ب - جماعة «ثروت فنون»؛ وهى جماعة أدبية، وفكرية أكثر منها سياسية، أثْرَت الحياة الفكرية، والثقافية بما كانت تُترجمه وتنقله عن الغرب من ترجمات، وأنواع أدبية جديدة.. وكان لرجائى زاده أكرم (١٨٤٦ - ١٩١٤)، وتوفيق فكرت. كما سبقت الاشارة - دور بارز فى تحريك الحركة الثقافية، فى دار الخلافة...

ورغم تعطل الحياة الدستورية، وملاحقة بعض الآحرار، ومصادرة الكثير من التيارات الفكرية فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى إلا أن العاصمة شهدت فى نفس هذه المرحلة زخماً كبيراً فى عالم الصحافة، والمجلات والجماعات الأدبية، ذات الأثر الفعَّال فى الحركة الثقافية فى آواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين - فمن يستطيع أن يجحد دور جماعة «گنج قلملر» - الأقلام الشابة، وجماعة الفجر الآتى - فجرآتى» فى ايقاد الحركة الفكرية، والأدبية، فى العاصمة..

المسرح والحركة الثقافية فى العاصمة:

كان المسرح، وشتى الفنون المرتبطة به، من الأجناس الأدبية الحديثة، والتى وفدت إلى العاصمة، مع انفتاحها على الغرب عامة وفرنسا، بصفة خاصة. ومثل المسرح نموذجاً للفنون الوافدة التى لاقت رواجاً بين سكان استانبول.

ولقد كانت العاصمة تعرف المسرح كمبانى، وكفن قبل إعلان التنظيمات سنة ١٨٣٩م - ١٢٥٥هـ، جنباً إلى جنب مع المسرح الشعبى التقليدى الذى سنشير إليه.

ونستطيع القول أن حركة التحديث، أو لنقل التغريب فى هذا الصدد قد بدأت بالسلاطين، والسراى.. كما أن السلاطين هم الذين صدوا عن المسرح هجمات الرجعية، وتصدوا للدفاع عنه بالحماية، والرعاية، التى شملوه بها.. فمنذ السلطان سليم الثالث، ومحمود الثانى، وخاصة عبدالمجيد، وعبدالعزيز وعبدالحميد الثانى والصدى الذى كان يتردد ضد المسرح قد خفُت تماماً.. واكتسب المسرح من الدعم، والرعاية، ما ساعده على النمو، والتطور فى ظل السلاطين، ولقد كانت الفرق المسرحية التى تفد إلى العاصمة تتنافس فى تقديم عروضها داخل السراى، والقصور السلطانية مع بعضها البعض من ناحية، ومع فرق السيرك المختلفة من ناحية أخرى. وكان السلاطين أنفسهم يدعمون إقامة المبانى الخاصة بالمسارح، سواء داخل القصور، أو خارجها.. كما كانت حفلات ختان الأمراء، وزواج الأميرات، من المناسبات التى تشهد نشاطاً، ملحوظاً، فى إقامة المسارح، ودعوة الفرق المسرحية، والغنائية، والاستعراضية وتقديم الدعم المادى، والمعنوى لهذا الرافد الثقافى الحديث.. فحفلات الختان كانت سبباً فى توسعة، وتطوير مسرح كَديك باشافى وسط العاصمة سنة ١٨٤٣م، وشهد قصر «چراغان»، ومن بعده «قصر ضولمه باغچه سراى» اقامة المسارح الفخمة، داخليهما إعتباراً من سنة ١٨٥٦م - ١٢٧٣هـ. كما شيد مسرحاً آخر فى قصر يلديز بعيد سنة ١٨٥٩م - ١٢٧٦هـ.

كان السلاطين حريصون كل الحرص على دعوة الفرق المسرحية العالمية، لإقامة عروضها فى العاصمة، على شرف كبار الزوار، والسفراء الأجانب، فمثلاً فى سنة ١٨٦٠م - ١٢٧٧هـ قدمت عروض أوبرالية على شرف أمير الأفلاق والبغدان فوق منصة مسرح نعوم خارج السراى، كما شهد «سراى ضولمه باغچه» عروضاً باللغة الإنجليزية، على شرف السفراء الأجانب الذين حضروا مراسم افتتاح السراى سنة ١٨٥٩م ١٢٧٦هـ وتجدر الإشارة إلى أن دعم السراى قد امتد إلى العروض التركية نصاً، وتمثيلاً؛ فقد طلب سراى «ضولمه باغچه» من الكاتب المسرحى إبراهيم شناسى أفندى أن يقدم مسرحيته «شاعر أولنمه سى» - زواج شاعر على خشبة مسرح السراى، وفى حضور السلطان، وكبار رجال حاشيته. بل كانت هناك أيام خاصة تُخصص فيها العروض لسيدات السراى، والأميرات. وسيدات المجتمع آنذاك.

وبقدر الحرص على دعوة الفرق المسرحية، وكبار الكتاب، ودعم المبدعين، ومنحهم الأوسمة، والنياشين، والهبات.. فقد كان السلطان نفسه حريصاً على رؤية هذه الأعمال بلغتها الأصلية، وفى المسارح التي تقدم عليها، فقد شاهد السلطان عبدالعزيز خلال زيارته الأولى سنة ١٨٦٧م - ١٢٨٤هـ عروضاً مسرحية، وأوپرالية فى باريس، ولندن، وڤينا.. ولابد أنه أعجب بها، بحيث أنه بعد عودته إلى عاصمة ملكه قدم سنة ١٨٦٨م - ١٢٨٥هـ عطية كبيرة إلى المسرحى نعوم لتشييد مسرح همايونى يليق بالعاصمة الجميلة.. وبين أيدى الباحثين ما يفيد أن السلطان عبدالعزيز نفسه قد شاهد سنة ١٨٦٣م - ١٢٨٠هـ عرضا مسرحياً ساخراً قدَّمه مسرحيون مسلمون. وهذا مما يدل على أن هذا الفن لم يكن وقفاً على غير المسلمين.

لم يكن رجال الدولة، والبلاط، والسفراء أقل حماساً من السلاطين فى هذا الصدد.. بل كان الكثيرين منهم يقيمون العروض المسرحية، والأوپرالية، والغنائية فى قصورهم، بل كان هناك من رجالات الدولة من أقاموا المسارح فى قصورهم، ودعوا إليها الفرق المسرحية لتقدم عروضها.. فمحمد سعد الدين باشا قائد الفرقة الأولى فى جيش السلطان عبدالحميد قد أقام فى قصره المنيف بحى چمپرلى طاش مسرحاً كبيراً، وكلف كبار المهندسين بإعداد ديكوراته، وأسند إلى إحدى جارياته تكوين الفرقة المسرحية. وكان شقيق الباشا مولعاً بالمسرح. ولم يتورع ياور السلطان عبدالحميد، أيضاً، عارف بك عن إقامة مسرحاً جميلاً، على الأرض الفضاء التى كان يمتلكها.. وأقام عارف بك نفسه أيضاً مسرحاً آخر فى حى «طرابيا». وكانت فرقة مسرحية فرنسية تقدم عروضها على هذا المسرح.

ولقد كان لسفراء الدولة فى الدول الأوروبية دور بارز فى تعريف المجتمع بفن المسرح، وما يتعلق به من فنون أخرى، فهؤلاء الذين سافروا إلى هذه الدول كتبوا عما شاهدوه فيها من صنوف هذه الفنون. وكان لكتاب فترة التنظيمات الفضل الأوفى فى هذا الميدان، فجهود نامق كمال، وعبدالحميد ضيا باشا، والشاعر عبدالحق حامد (١٨٥٢ - ١٩٣٧م = ١٢٦٩ - ١٣٥٦هـ)، وإبراهيم شناسى، وأحمد مدحت أفندى فى هذا الصدد لا يمكن الإعراض عنها.. وكانت كتاباتهم سواء فى المسرح، أو التعريف به، أو نقده من أهم العوامل التى بشرت به، ودعمته..

وقد لعبت الصحافة، بما أفسحته على صفحاتها للمسرح، نصاً، وعرضاً، وتلخيصاً، وتعريفاً، وتنقيحاً، ونقداً، دوراً كبيراً فى إثراء الحركة الثقافية المسرحية فى العاصمة.

ولا يقل دور السفارات الأجنبية فى العاصمة أهمية عمن سواه، فقد قامت هذه السفارات بتقديم الكثير من عروض مسارحها فى العاصمة استانبول، وقد كانت بعض هذه السفارات تقيم المسارح فى داخلها، وتقدم عليها العروض، وتسمح للمشاهد التركى بمشاهدة هذه العروض،

والكتابة عنها . . بل كانت تسمح للفرق التركية بتقديم عروضها داخل السفارة . وكان للسفارة الفرنسية والإيطالية، والألمانية دور السبق فى هذا الصدد . . فكانت كل منها تتسابق فى تقديم العروض المسرحية، والموسيقية والفنية، داخل وخارج السفارة . . مما ساعد على التعريف بفنونهم المسرحية، وتنشيط الحركة الثقافية فى إستانبول .

وكان للجاليات، والأقليات الأجنبية دور فعّال فى تنشيط الحركة المسرحية فى العاصمة إستانبول . . فقد فتحت العاصمة أحضانها وأبوابها أمام الجاليات لكى تقيم فيها إقامة دائمة، وكانت أكبر الجاليات حجماً، وأكثرها نشاطاً تجاريا، وفنياً، هى الجاليات الإيطالية، والفرنسية، والألمانية . كما كانت أهم الأقليات التى تعنينا فى هذا الصدد هى الأقلية اليهودية، والرومية، والأرمنية . فقد كان لها هى الأخرى إضافات ملموسة فى تنشيط الحركة الفنية، وخاصة المسرحية فى العاصمة إستانبول .

فلقد أقامت هذه الجاليات، والأقليات المبانى المسرحية، وأقامت عليها العروض المسرحية بشكل منتظم، فتلك الجاليات، والأقليات التى أتاحت لها الحياة المتسامحة فى العاصمة، حياة دائمة، ومستقرة قد شاركت فى الحركة المسرحية جنباً إلى جنب مع الحفاظ على ثقافاتهم الخاصة بهم . وإذا ما عرفنا أن حى «بك أوغلى» وحده كان يعيش فيه سنة ١٨٧٢م - ١٢٨٩هـ ثمانين ألفاً من الأجانب، منهم ألف فرنسى فقط، وكانوا جميعا حريصون إلى إقامة حفلاتهم، ومهرجاناتهم، واحتفالاتهم لأدركنا كم كانت الحياة الفنية، والمسرحية، بكل تفرعاتها نشطة،ومبهجة .

إن أقدم جالية عرفتها مدينة إستانبول هى الجالية الإيطالية . هذه الجالية أقامت فى مدينة إستانبول سنة ١٥٢٤م - ٩٣١هـ حفلاً للباليه الكلاسيكى قبل أن يُقام مثيل له فى أوروبا ذاتها . . وأن الترك قد شاركوا فى التمثيل جنباً إلى جنب مع الإيطاليين . وأن هذه الجالية بدأت فى تأسيس الجمعيات، والنقابات الفنية فى هذه العاصمة المستنيرة منذ سنة ١٨٦٣م - ١٢٨٠هـ، وأن هذه النقابات والجماعات كانت تُقيم لنفسها الفرق، والعروض المسرحية والموسيقية الخاصة بها .

لم تكن الجالية الألمانية أقل نشاطاً، ومشاركة فى الحياة، والحركة المسرحية فى إستانبول، بل نعرف أن الجالية الألمانية كان لها مسرحها الخاص بها منذ سنة ١٨٧٥م - ١٢٩٢هـ . وأن هذا المسرح كان مفتوحاً أمام الجاليات الأقليات الأخرى لتقديم عروضها عليه . .

وكان المركز الثقافى الفرنسى، الذى تكلفت عمليات البناء فيه سنة ١٨٩٦م - ١٣١٤هـ مبلغاً، وقدره ٣٥٥ ألف فرنك فرنسى من أنشط المراكز الثقافية فى العاصمة إستانبول . فقد كان المركز يستقبل الفرق المسرحية، والموسيقية، وراقصات البالية، ويقدم حفلات أوپرالية للجالية الفرنسية

ويشارك فيها المواطنون الا تراك والأقليات الأخرى فى كل فعالياتها . . ومن هنا تعرف المثقف التركى على أشهر كتاب المسرح الفرنسى منذ البدايات الأولى للقرن التاسع عشر .

وإذا ما وجب الحديث عن الأقليات التى أقامت فى مدينة إستانبول فيجدر القول، أن سماحة المسلمون الأتراك، قد أتاحت الفرصة أمام الأقليات التى كانت مضطهدة فى أوروبا أن تفد إليها، وتستقر فيها . وتشارك فى حياتها الثقافية، ونشاطاتها الفنية . وكانت أهم هذه الأقليات هى الأقلية اليهودية، والبلغارية، واليونانية، والأرمنية .

فاليهود؛ اعتباراً من القرن الخامس عشر، والسادس عشر قد لجأوا إلى إستانبول هرباً من الإضطهاد الدينى، ومحاكم التفتيش فى أسبانيا والبرتغال . وأقاموا إقامة سمحه بين المسلمين . وشجع ذلك التسامح، بل والتعاطف مع هذه الأقلية على وفود أفراد منها من بلدان أخرى . .

إن أكبر مساهمة للأقلية اليهودية، والبلغارية فى المسرح هى مشاركة أفرادها فى الفرق المسرحية التركية - وخاصة الشخصيات النسائية - وشاركهم فى ذلك الأرمن والروم . فالمرأة التركية المسلمة لم تكن تشارك فى بادىء الأمر كممثلة فى هذه الفرق المسرحية، بل كانت أميرات الأسرة الحاكمة، وسيدات المجتمع يُغدقن على هذه الفرق، ويقمن لها المسارح والعروض داخل السراى، والقصور، مما وفر لها الدعم المادى والمعنوى الذى أمَّن لها الاستمرار والتطور .

ربما كان اليونانيون، والأرمن أكثر نشاطاً، وفاعلية فى هذا الصدد، فإلى جانب الفرق المسرحية التى كانت تفد إلى إستانبول، وإزمير من أثينا فى المواسم الثقافية، فإن الأقلية اليونانية والأرمنية قد أمدت العاصمة - إلى جانب الممثلين والممثلات - بكتاب للمسرح، ومخرجين، وفنيين، بل إن أغنياء الأرمن كانوا يقيمون العروض المسرحية فى قصورهم منذ القرن السابع عشر الميلادى، الحادى عشر الهجرى . وأقامت هذه الأقليات المنشآت الثقافية جنباً إلى جانب المنشآت الدينية .

الأدب الشعبى فى العاصمة:

مما لا شك فيه أن المحيط الاجتماعى فى العاصمة؛ بعيداً عن البلاط والديوان، والطبقة الارستقراطية، كانت له ثقافته، وأدبه الخاص به . . يتغنى بأفراحه، ويحزن بأتراحه . . وكانت التكايا . والزوايا، والطرق الصوفية، والأخيان - « الفتوة » بمثابة ورش العمل . . أو معامل التفريخ التى تمد الطبقات الشعبية بمصادر التثقيف . والترفيه . . والتسلية جنباً إلى جنب مع مسارح الأورطه أويونى، والقراغوز، ومنشدى الأحياء ومداحيهم . . والعشاق . . وشعراء الرباب .

لقد كانت مدينة استانبول تحفل بالطرق الصوفية، ولكل منها شعراء يتغنون بأفكار الطريقة،

ويحاولون نشر مبادئها بين الأتباع، والمريدين.. وكانت نفوس الناس تهفو إلى الجلوس إليهم، وقت الشدائد والانكسارات.. ويجدون لديهم مَهرَباً من تحديات الحياة. ومازالت أعمال كايغوسز آبدال «القرن الخامس عشر» والتى وصلت إلينا، تنم عن بالٍ خالٍ ومزاح مقبول، ويتلوه بپرسلطان آبدال (القرن السادس عشر)..

كما حفلت مدينة استانبول بالكثير من شعراء الرباب الذين تغنوا بغير الشعر الدينى، بل ارتبط شعرهم بالرباب، وبالحياة الدنيوية بكل ما فيها من حب، وشوق، وحنين إلى المحبوب، وتَرَنُّم بالغربة، والفرقة وتمنى الوصال.. وكان فيهم من حلَّق مع الانتصارات، وتغنى بها، وعاش الهزائم والثورات فى العاصمة، وفجعته أحداثها.. فترنم بها.. وجهر بأسبابها..

شكل الحب: التيمة الأساسية للشعر الغنائى الذى تغنى به «العشاق» على الرباب، وفى «المانى» خلال حفلات العرس، وليالى الزفاف، وجلسات السمر فى الأحياء الشعبية التركية.

لم تعدم العاصمة سماع الشعر الملحمى، الذى خلد ذكريات الماضى، وشجاعة المحاربين، ومجد الفتوحات الإسلامية التى فرحت بها الطبقات الشعبية،وكونت لديها الشعور الجمعى، بتفوق الفاتح، والغازى المسلم.

ولابد أن ننوه، ونحن نتحدث عن الحياة الثقافية فى العاصمة - بالمسرح الشعبى، وخاصة القره كوز«الآراجوز» خيال الظل، والذى وصل إلى العاصمة من مصر مع عودة سليم الأول بعد ضمها إلى الإمبراطورية (١٥١٧م - ٩٢٣هـ) حيث اصطحب عند عودته فريق من الخيالة المصريين لكى يمثلوا أمام ولى العهد سليمان؛ الكيفية التى تم بها شنق طومان باى على باب زويله فى القاهرة.. لقد جسد هذاالفن الشعبى.. السخرية اللاذعة من التفرنج، ومن التحزلق الدينى، والتعالم عن جهل.. ورصد نبض شوارع العاصمة حول ما يدور فيها من تناقض، وثنائية ثقافية، فالقره كَوز، بطل المسرح الخيالى يجسد رجل الشعب الشهم، ويواصل عراكه، ومشاكسته لجاره الحاجى واد، وهو يمثل الأديب الدعي، ولم يهمل تناول كل الشخصيات الدخيلة على الثقافة التركية كالأرمن، واليهود.. والصرب.. واليونانيين، ونمط حياتهم. وكم كانت دعابته لهم، وسخريته من طريقة نطقهم اللغة التركية مدعاة للضحك، وإثراء للحياة الثقافية فى العاصمة، وخاصة فى حفلات الختان، وخلال شهر رمضان المبارك الذى كانت تحتفى به العاصمة إيما احتفاء.

تزيين المخطوطات بالصور:

إن صورة محمد الفاتح التى أبدعها الرسَّام سنان بك النقاش هى العمل الوحيد الذى وصل إلينا

لهذا الفنان، وهذه هى الصورة الوحيدة التى يمكن ارجاعها بلا تردد إلى الإمبراطورية العثمانية فى القرن الخامس عشر الميلادى، التاسع الهجرى، ولا يمكن أن يقبل العقل أن تكون الوحيدة، كما أنه لا جدال فى أن الكثير من الأعمال المتأثرة بالأسلوب الايطالى، والموجودة فى «ألبومات الفاتح» تُعتبر معاصرة لها. وكانت هناك مدرسة لرسامى المنمنمات العشرين التى لا ترد اسماء من قاموا برسمها فى كتاب يحمل عنوان «رواية الاسكندر» وتم انجازه فى عام ١٤١٦م - ٨٢٩هـ، والتى تُعتبر متأثرة بالفن الأيغورى التركى. كما توجد ١٤٠ صورة من المنمنمات ذات الموضوع التعليمى، والواردة فى كتاب «بحث فى الجراحة» أُهدى فى عام ١٤٦٣م - ٨٦٨هـ إلى محمد الثانى، إلا أن هناك ابداعات آخرى فى مجموعة المخطوطات الموجودة فى مكتبة متحف طوپ قابى سراى. والمكتبات الأخرى فى العاصمة.

ولقد نشأت مدرسة التصوير العثمانى على غرار مدرسة التصوير فى تبريز وخاصة بعد مجموعة المخطوطات، والرسامين الذين اصطحبهم سليم الأول من تبريز، والمخطوطات المملوكية التى آخذها من القاهرة بعد ضمها إلى العاصمة سنة ١٥١٧م - ١٩٢٣هـ. وتتابع الانتاج فى عهد سليمان القانونى وترك الرسام نصوح المطرقى الذى كان يصحب السلطان فى معاركه وحملاته العسكرية أعمالاً غزيرة، وجيدة.

ولا شك أن فن التصوير العثمانى، والذى تزدان به كتب التأريخ - مع الاعتراف بما يدين به لإيران، إلا أنه أخذ يخطو خطوات تنم عن الاستقلال والاجادة، فى مخطوط أخبار حملة سليم الثانى سنة ١٥٦٩م - ٩٧٧هـ مجموعة نادرة، ورائعة من هذه الصور. كما أن الأعمال العديدة التى ترجع إلى عهد مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥م) وخاصة فى مخطوط «سليمان - نامه» الذى يرجع إلى عام ١٥٧٩م - ٩٨٧هـ ومخطوط «سورنامه» كتاب الأعياد الذى يرجع إلى عام ١٥٨١م - ٩٨٩هـ ومخطوط «سلسلة - نامه» الذى يرجع إلى عام ١٥٨٣م = ٩٩١هـ ومخطوط «هونر - نامه» - كتاب الفضل والمآثر الذى يرجع إلى أعوام ١٥٨٤ - ١٥٨٨م = ٩٩٢ - ٩٩٧هـ تدل دلالة واضحة على استقلال مدرسة التصوير العثمانى وإن لم تخرج عن نطاق وحدة الفن الإسلامى. ولقد برزت فى هذه الفترة قوة شخصية عثمان النقاش= «الرسام» مؤلف ورسام الـ(سور - نامه» والـ« هونر - نامه». ومجموعة أخرى من الرسامين والخطاطين الكبار.

ويصف كتاب السورنامه من خلال ٤٣٧ منمنمة الأفراح التى تتعاقب على مدار اثنين وخمسين يوماً، لختان ابن السلطان، وموكب الحرفيين، وما يظهرون فيه من معارف وألعاب.

أما المنمنمات التسعين الموجودة فى الهونر - نامه فهى تُعبر عن مجموعة من مشاهد القصر السلطانى، من صيد، وحرب، والعاب. وهى ذات ألوان زاهية. وتستمر مدرسة التصوير العثمانى

فى النمو والإرتقاء، ومما لا شك فيه أن نظرة على المخطوطات التى تحتوى على هذه الصور، والتى تزدان بها المكتبة الموجودة داخل متحف طوب قابى سراى لكافية لاستكشاف البعد الحضارى، والبيئة الفنية الراقية التى ترعرعت فى إستانبول، والتى أنجبت فنانين عظام مثل لونى الذى مات عام ١٧٣٢م - ١١٤٥هـ ولكن أعماله مازالت خالدة، وتركت بصمات واضحة على مدرسة التصوير العثمانى فيما بعد .

ولما كان المجال لا يتسع لتتبع كل ما تزدان به الكتب، والمخطوطات من تذهيب وتجليد، وخطوط فاخرة، ورائعة . . فتكفينا هنا الإشارة إلى أن مكتبة المتحف المشار إليه، والمتاحف الأخرى مليئة بالعديد من آيات الفن الإسلامى الرائع فى مجال الخط، والتذهيب والتجليد . وبلوحات خطية نادرة كتبها السلاطين جنباً إلى جنب مع كبار الخطاطين، فقد كانت دروس تحسين الخط من الدروس التى كانت تحرص عليها مناهج الدراسة كما كان يحرص السلاطين على دراستها على أيدى كبار الخطاطين.

إن سراى طوب قابى الذى تحول إلى متحف بقرار من رئيس الجمهورية الغازى مصطفى كمال فى الخامس من مارس ٣٤٠ رومية، يُعتبر أكبر وأجمل متاحف العالم الإسلامية . وهو يتكون من مجموعة ضخمة من المبانى المنتشرة على أربعة أفنية، تضم أندر ما وصل إليه الابداع البشرى من فنون، وأغلى ما يمكن أن يتصوره العقل البشرى من مجوهرات، وأثاث، ولوحات وساعات، وقطع من الأسلحة النادرة، والشمعدانات، والأباريق، والأطباق والفناجين الخزفية، وشتى أنواع الفنون المعدنية، ويتوج كل ذلك الأمانات المقدسة، التى تُفتح أبواب دائرتها فى اليوم الخامس عشر من كل رمضان - بعد أن تكون قد غُسلت بماء الورد - لكى يزورها المواطنون، ويستمتعون بالنظر إليها . إنها بحق مع محتويات المتحف الأخرى تشكل منظومة رائعة من أروع ما أنتجه العقل البشرى، وتزدان به مدينة إستانبول .

تم بحمد الله

المــراجــع

آوليا چلبى سياحتنامه سى، استانبول سنة ١٩٣٨م.

أحمد رفيق، بيوك تاريخ عمومى، بشنجى جلد، استانبول ١٣٢٨.

ابن بطوطه، تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الأسفار، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٨.

ابن إياس، محمد بن أحمد، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، طبع كاليفورنيا سنة ١٩٣٠.

ابن إياس، محمد بن أحمد، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، المطبعة الأميرية ببولاق، تحقيق محمد مصطفى.

الصفصافى أحمد المرسى، الدولة العثمانية والولايات العربية، الدارة، العدد الرابعة، السنة الثامنة، رجب سنة ١٤٠٣هـ إبريل ١٩٨٣.

دراسات فى الشعر التركى، القاهرة فى ١٩٧٨م.

برنارد لويس، استانبول وحضارة الخلافة، ترجمة وتعليق د. سيد رضوان ط٢، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض ١٤٠٢هـ= ١٩٨٢م.

تاريخ الدولة العثمانية، اشراف روبير منتران، ترجمة بشير السباعى دار الفكر ـ القاهرة ـ ط ١ ١٩٩٣م، جـ١، جـ٢.

سالم الرشيدى [دكتور]، محمد الفاتح، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، سبتمبر سنة ١٩٦٩م.

گوستاو شلوسيه رزه، استانبولك محاضره سى وضبطى، مترجمى م. ناهد استانبول ١٣٣١.

فريدون بك، منشآت السلاطين القسطنطينية ١٢٦٢هـ.

فنون الترك وعمائرهم، أو قطاى آصلان آبان ترجمة أحمد محمد عيسى استانبول ـ ١٩٨٧م.

Prof. Adnan Advar, Osmanll Tuklexinele ilim Remzi Ktabevi, 4 baski. Istanbul, 1982.

C. Baysun, Mustafa Rasid pasave Tanzimat I. 1940.

Ibn Ulemin Mahmud Kemal, Son Sadrazamlu Istanbul.

Islâm Ansik Lopedisi, cilt 5 Ikinci baskl. Istanbul 1968.

O.Prof Ismail Hakk. uzunçarsili, Osmanll Devletinin ilmiye teski-Lâtl, Ankara, 1984.

M. Sertoglu, Mu Fassal Osmanll Tarihi, Istanbul 1963.

Oktay Aslanapa, Tusk Sanatl, Remzi Kitabevi, 3 baskl, Kasim 1993.

Tanzimat, Istanbul 1940.

Turkiye Ansiklopedisi, Cilt II Ankara 1955.

Yavuz Bahadlroglu, Osmanll padisah larl, Ansik- Lopedisi, yeni Asya yayln, Istanbul, 1986.

Behçet Necatigil Edebiyatlmlzda isimler Sözlügü.

Varlk yaylnlarl, Istanbul 1970.

Sukran Kurdakul, Sairler ve yazarlar Sözlügü, gözlem yaylnlarl Istanbul 1981 3 basim.

الفهـــــرس

ثبت الأشكال

(١) المؤلف أمام : مدخل قلعة الروميلي حصار التي بناها محمد الثاني قبيل فتح القسطنطينية

(٢) المؤلف وتلميذه د. سمير رجب أمام سور قلعه الروميلي وواحد من أبراجها.

(٣) ركن آخر من أركان القلعه، ويظهر فيه مدي ضخامة البناء. وهو الجانب المطل علي طريق البوسفور.

(٤) المؤلف وتلميذيه د. صالح سعداوي، وسمير رجب أمام مثال فريد من الجوامع ذو القبة الواحدة، والمآذن ذات الشرفة الوحيدة أمام السلمياتيه.

(٥) المؤلف أمام نموذج رائع لجامع تتعدد فيه القباب وشرفات المآذن.

(٦) المؤلف وتلميذيه د. صالح سعداوي ود. سمير رجب أمام جامع السلطان أحمد الثالث. ونري ضخامة القبة، وتعدد المآذن.

(٧) المؤلف أمام جانب من جوانب جامعة السليمانية ونموذج آخر لروعة الفن الإسلامي.

(٨) المؤلف أمام شادروان، وسبيل مياه في صحن واحد من أروع نماذج العمارة الإسلامية.

(٩) شادروان داخل صحن مدرسة صحن ثمان بالسليمانية.

(١٠) تجانس فريد، في الزخارف الجصية، والنباتية حتي علي الجدران الخارجية للعمارة الإسلامية.

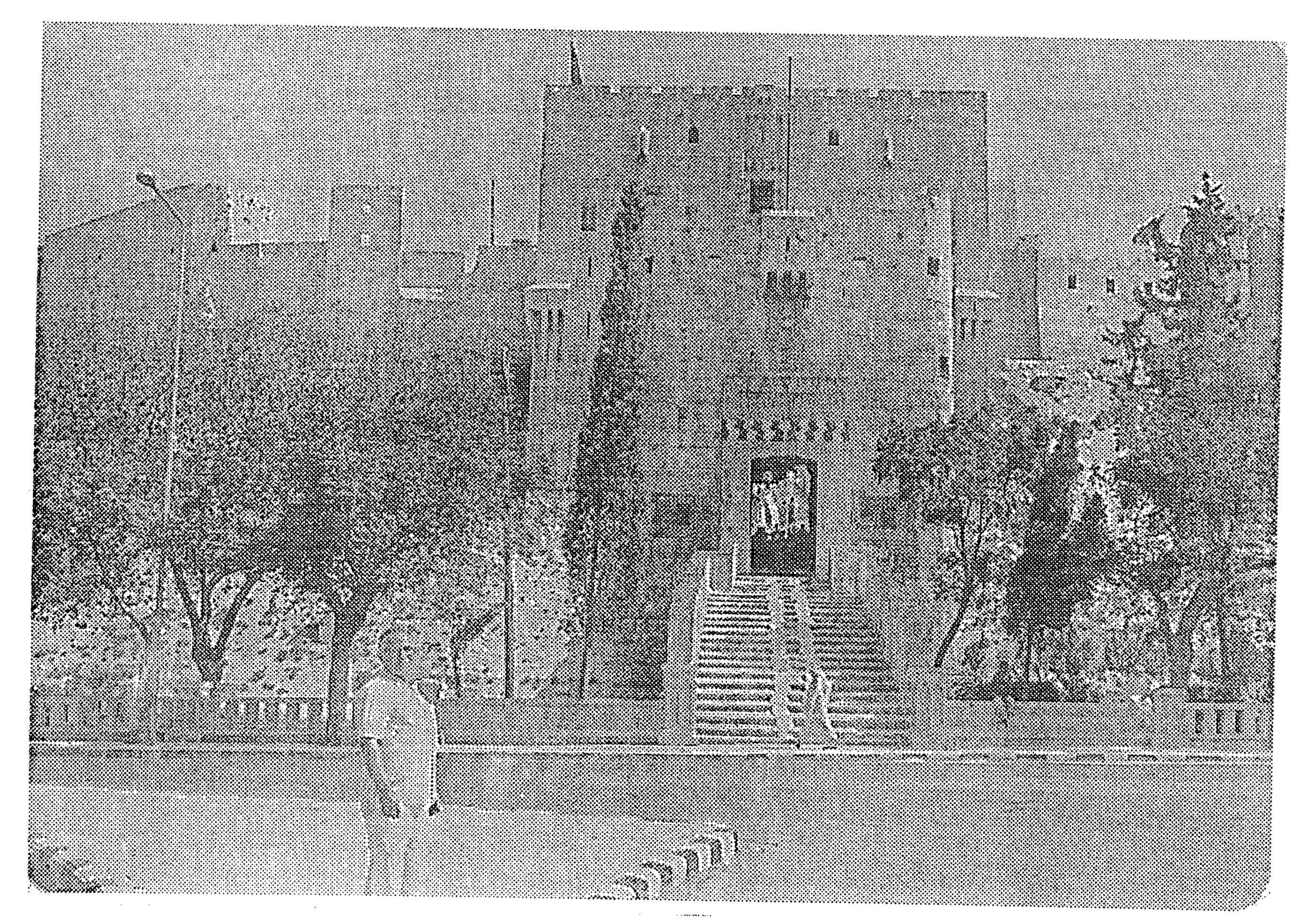
(١١) المؤلف أمام نموذج يدل علي روعة الحضارة الإسلامية في تجانس الزخارف والخطوط والنقوش والخزف علي السطح الخارجي للقبة والمآذن. «جامع الشهزارة.»

(١٢) نموذج آخر لقبة جامع الشهزارة.

(١٣) زخارف كتابية، وسط الزخارف الخزفية التي تزدان محاريب الجوامع العثمانية.

(١٤) زخارف خطية علي أرضية من الخزف الأزرق. وتشكل ابداعاً فريداً في تزيين الجوامع والأضرحة ـ وهي علي تربة الأمير مصطفي.

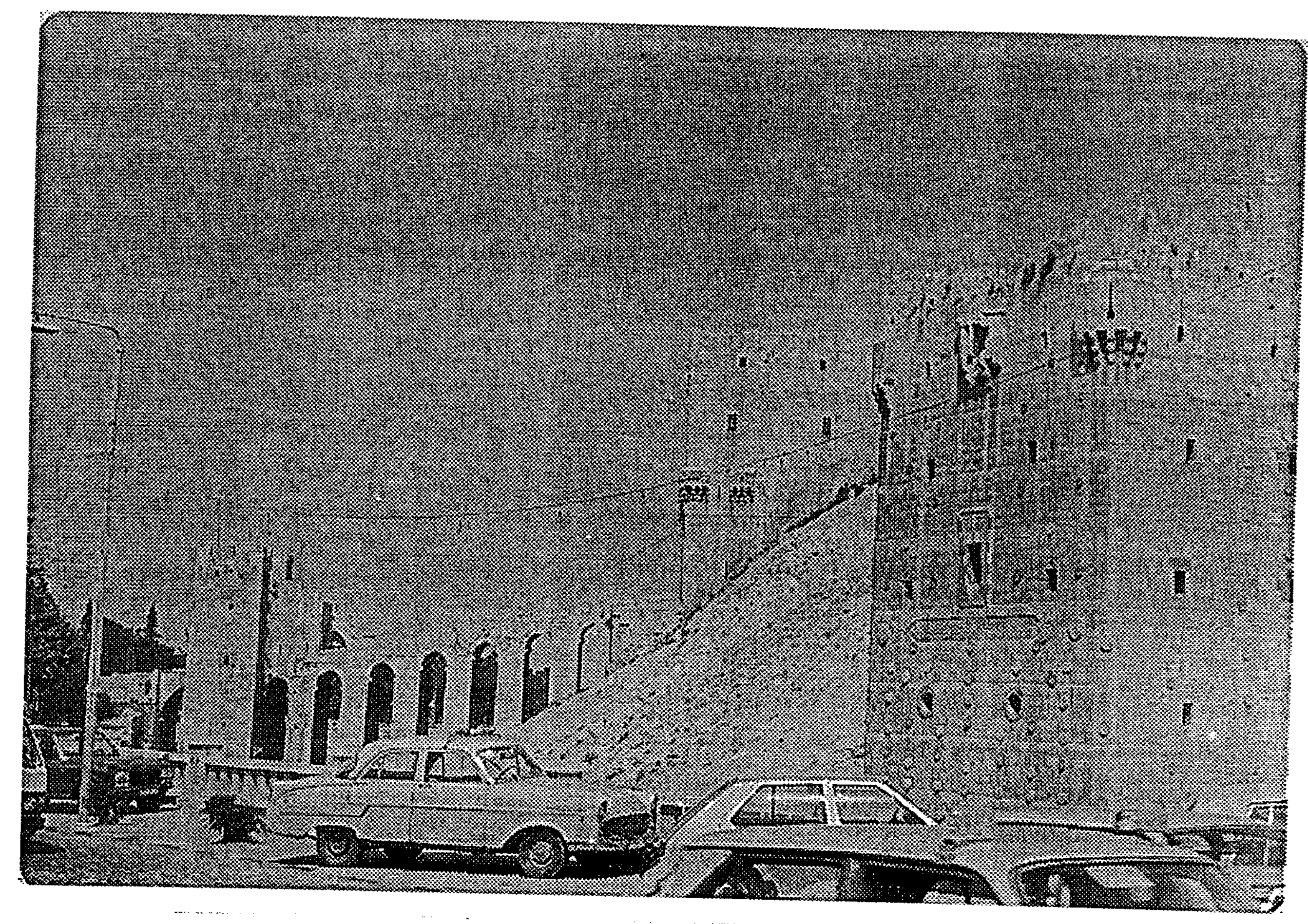
(١٥) المؤلف ومعه تلميذه أ. سمير رجب في زياره لمدنية استانبول سنه ١٩٨٦ ومن خلفهما يري جامع ضوله بافجه سراي بمئذنته السامقة علي شاطئ البوسفور.



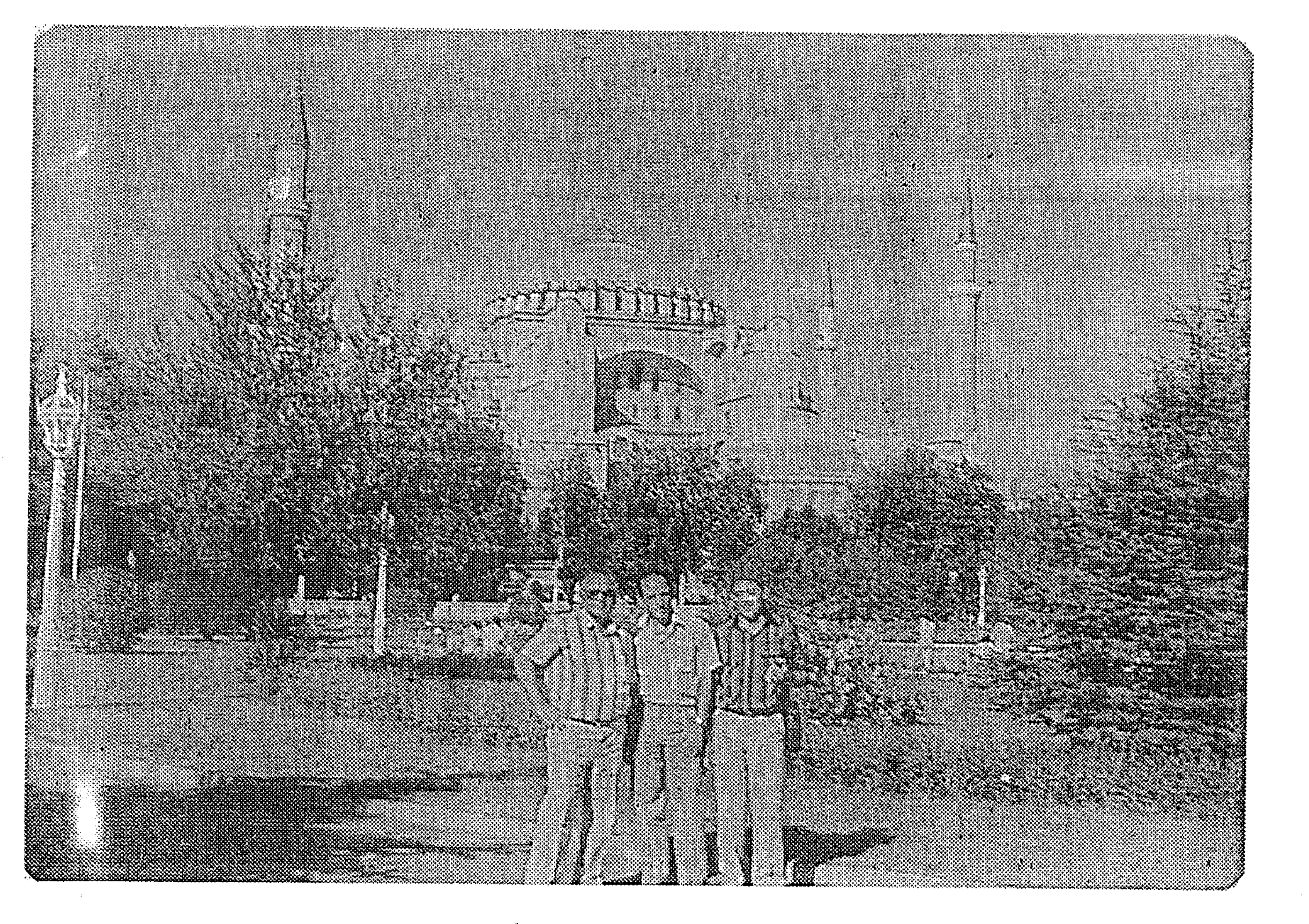
(١) المؤلف أمام : مدخل قلعة الروميلي حصار التي بناها محمد الثاني قبيل فتح القسطنطينية



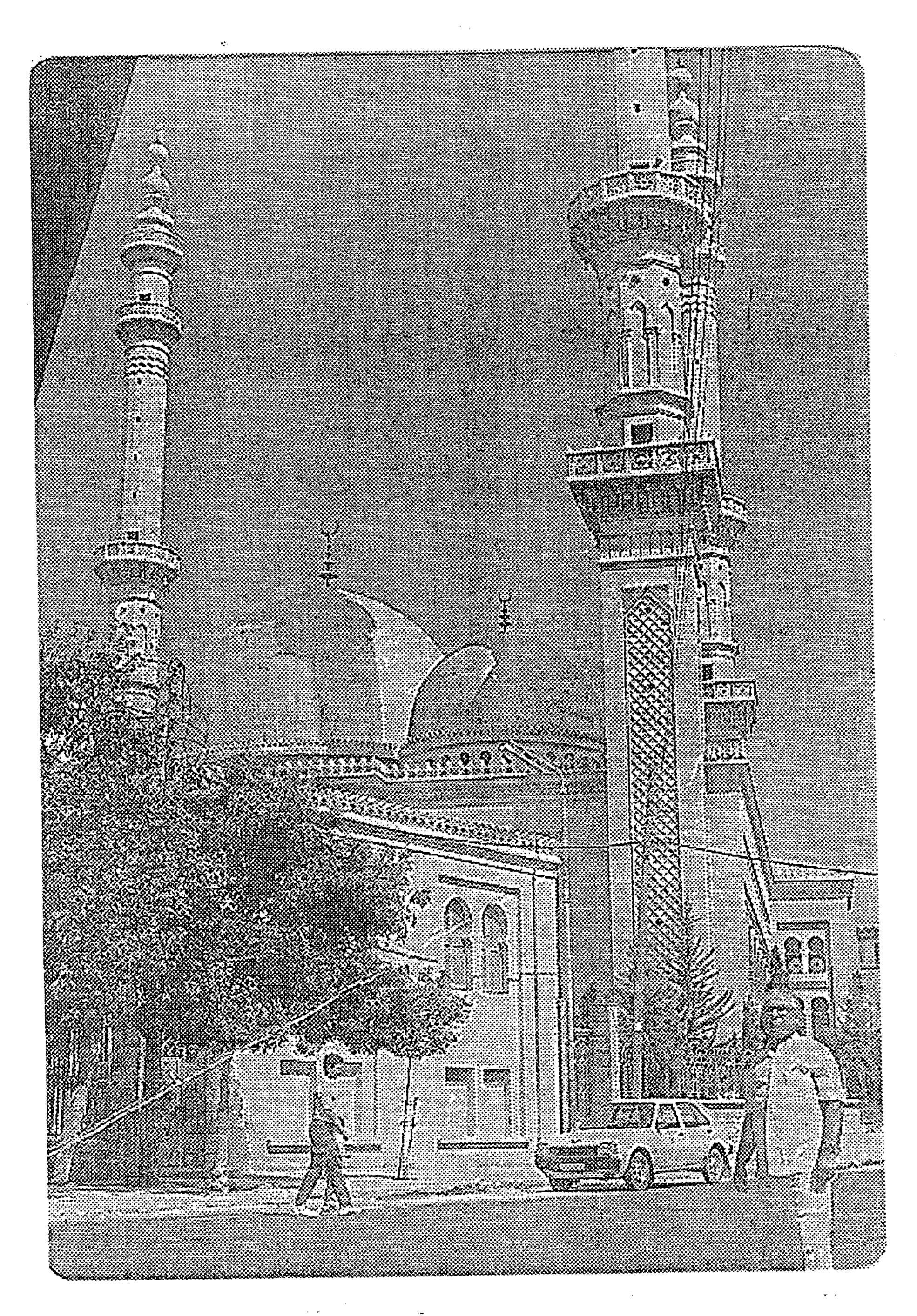
(٢) المؤلف وتلميذه د. سمير رجب أمام سور قلعه الروميلي وواحد من أبراجها.



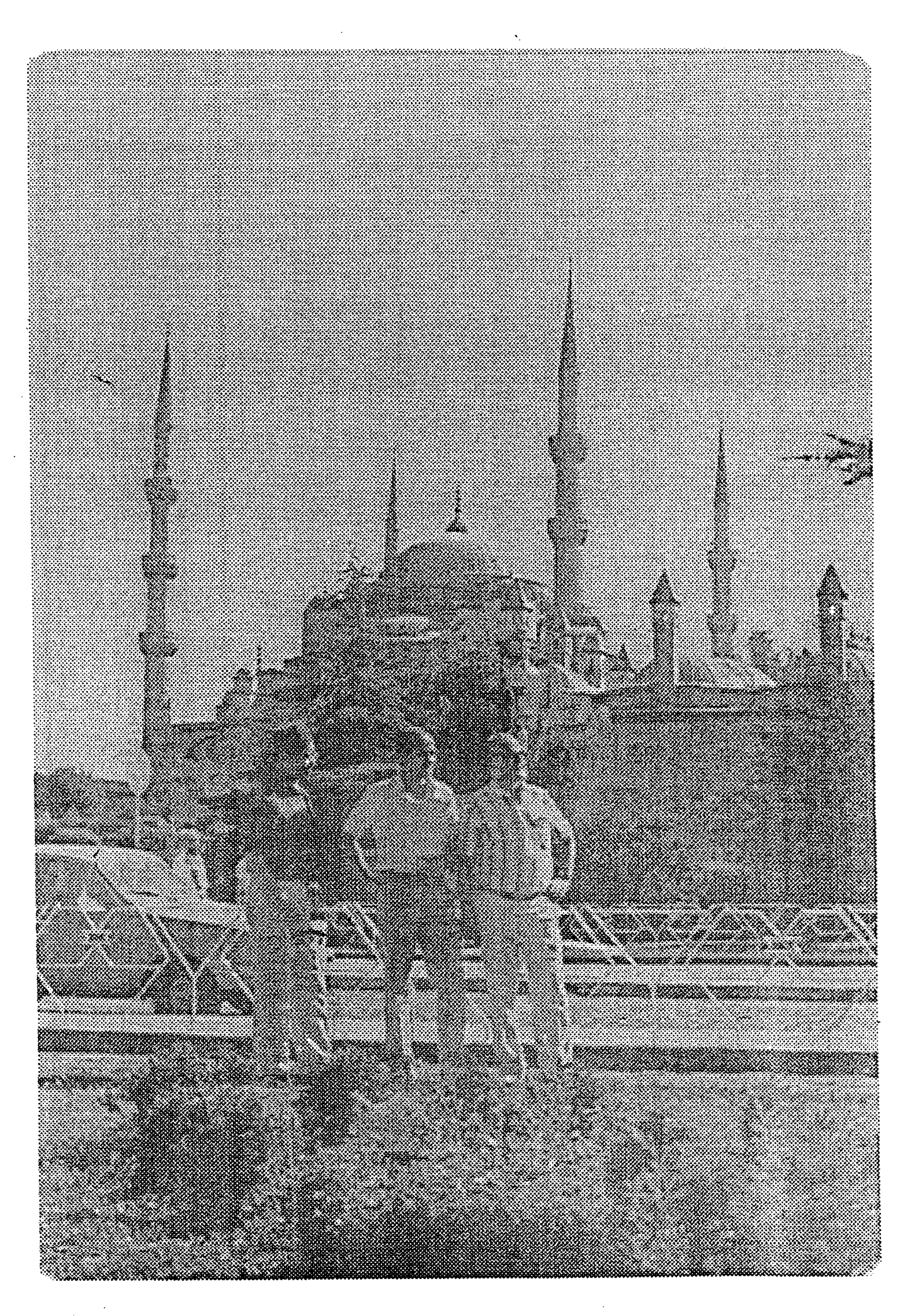
(٣) ركن آخر من أركان القلعه، ويظهر فيه مدي ضخامة البناء. وهو الجانب المطل علي طريق البوسفور.



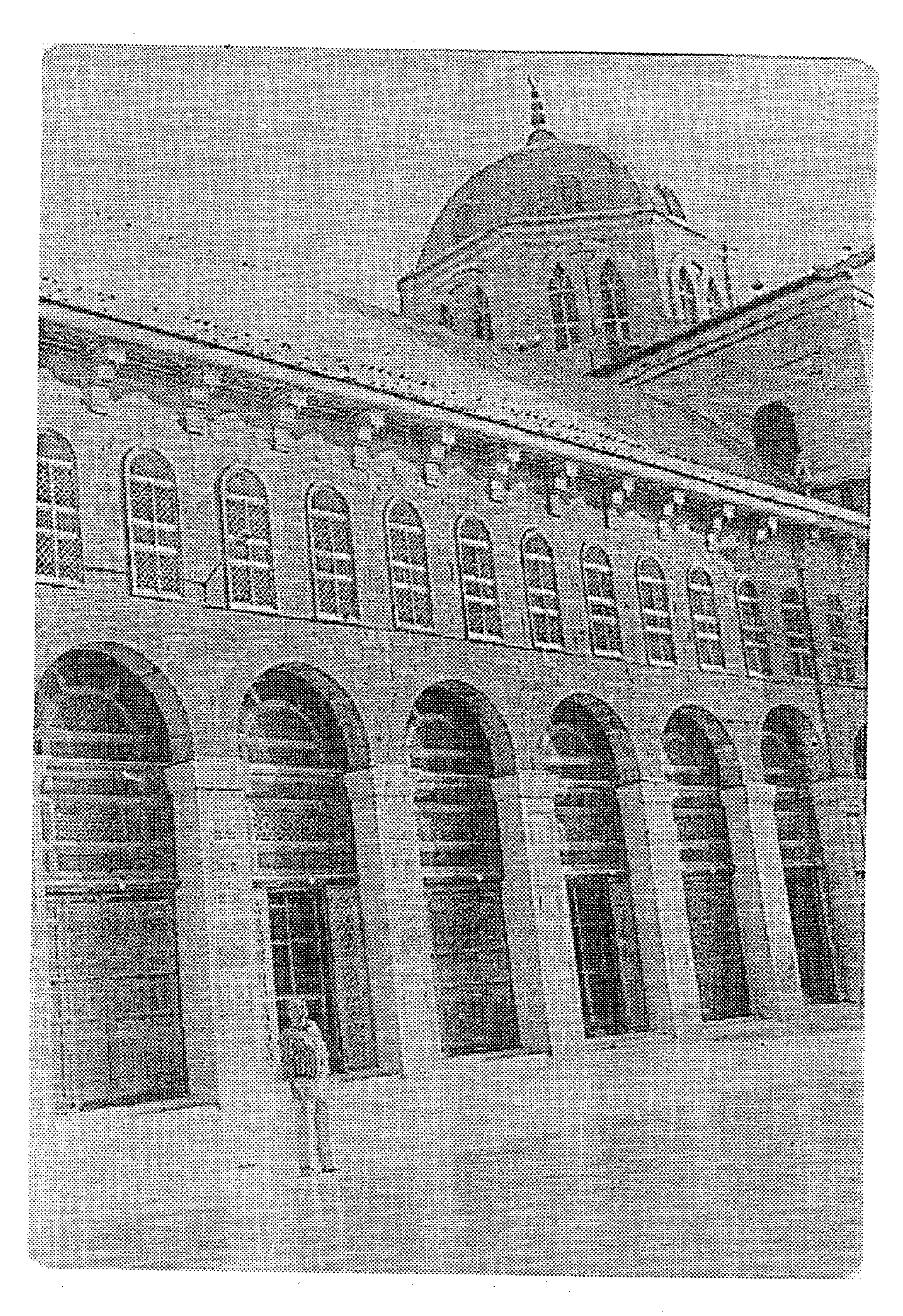
(٤) المؤلف وتلميذيه د. صالح سعداوي، وسمير رجب أمام مثال فريد من الجوامع ذو القبة الواحدة، والمآذن ذات الشرفة الوحيدة أمام السلمياتيه.



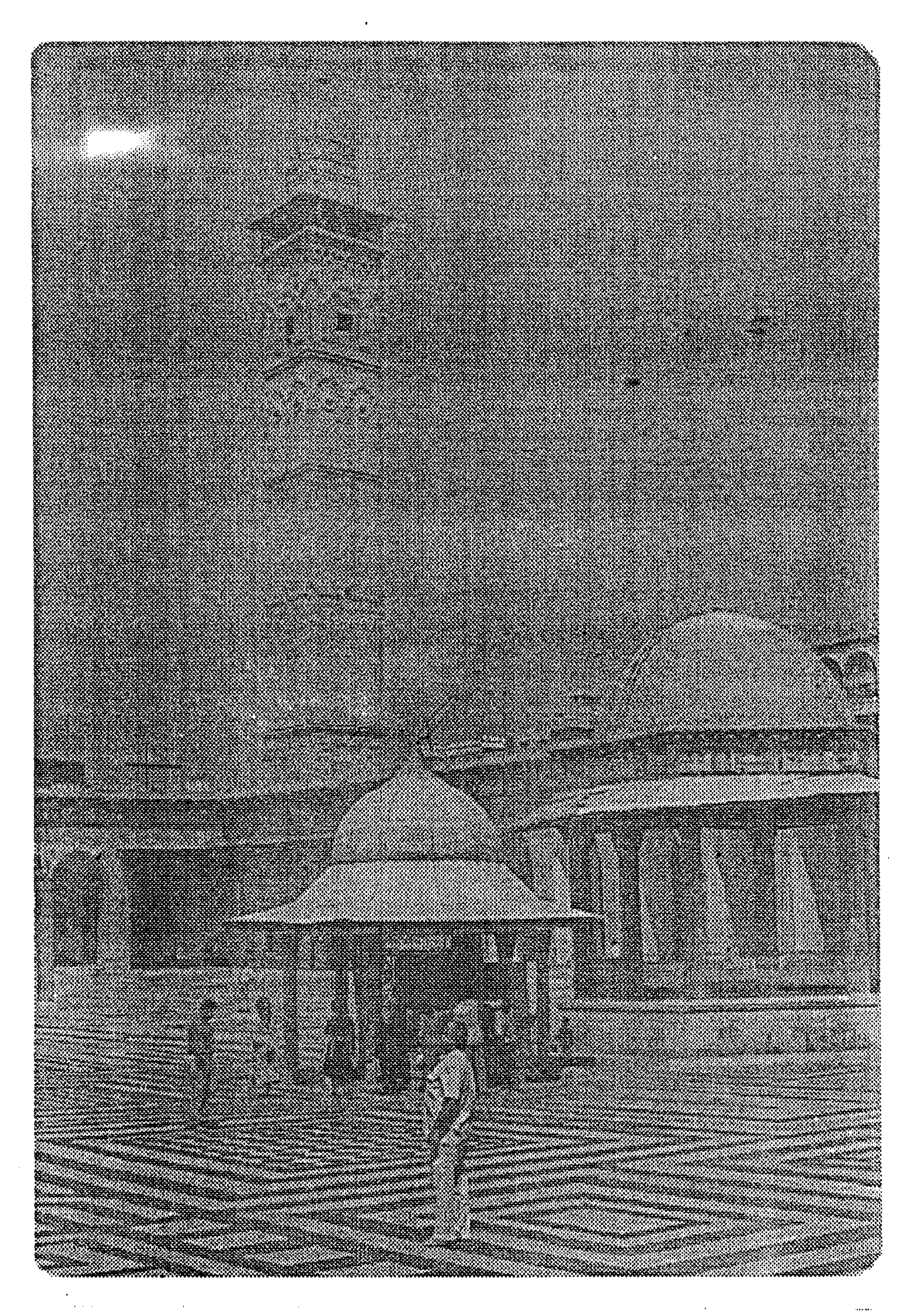
(٥) المؤلف أمام نموذج رائع لجامع تتعدد فيه القباب وشرفات المآذن.



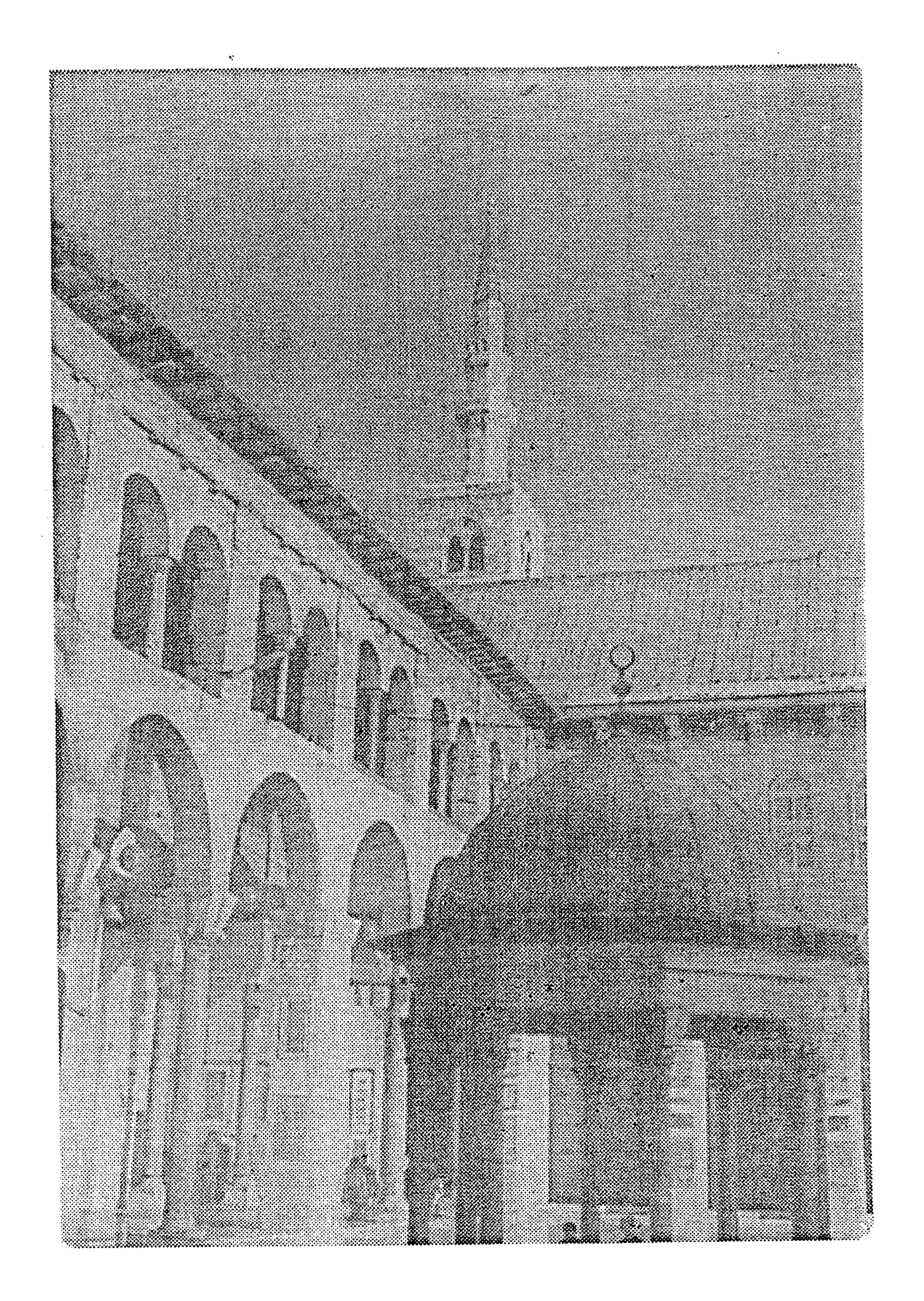
(٦) المؤلف وتلميذيه د. صالح سعداوي ود. سمير رجب أمام جامع السلطان أحمد الثالث. ونري ضخامة القبة، وتعدد المآذن.



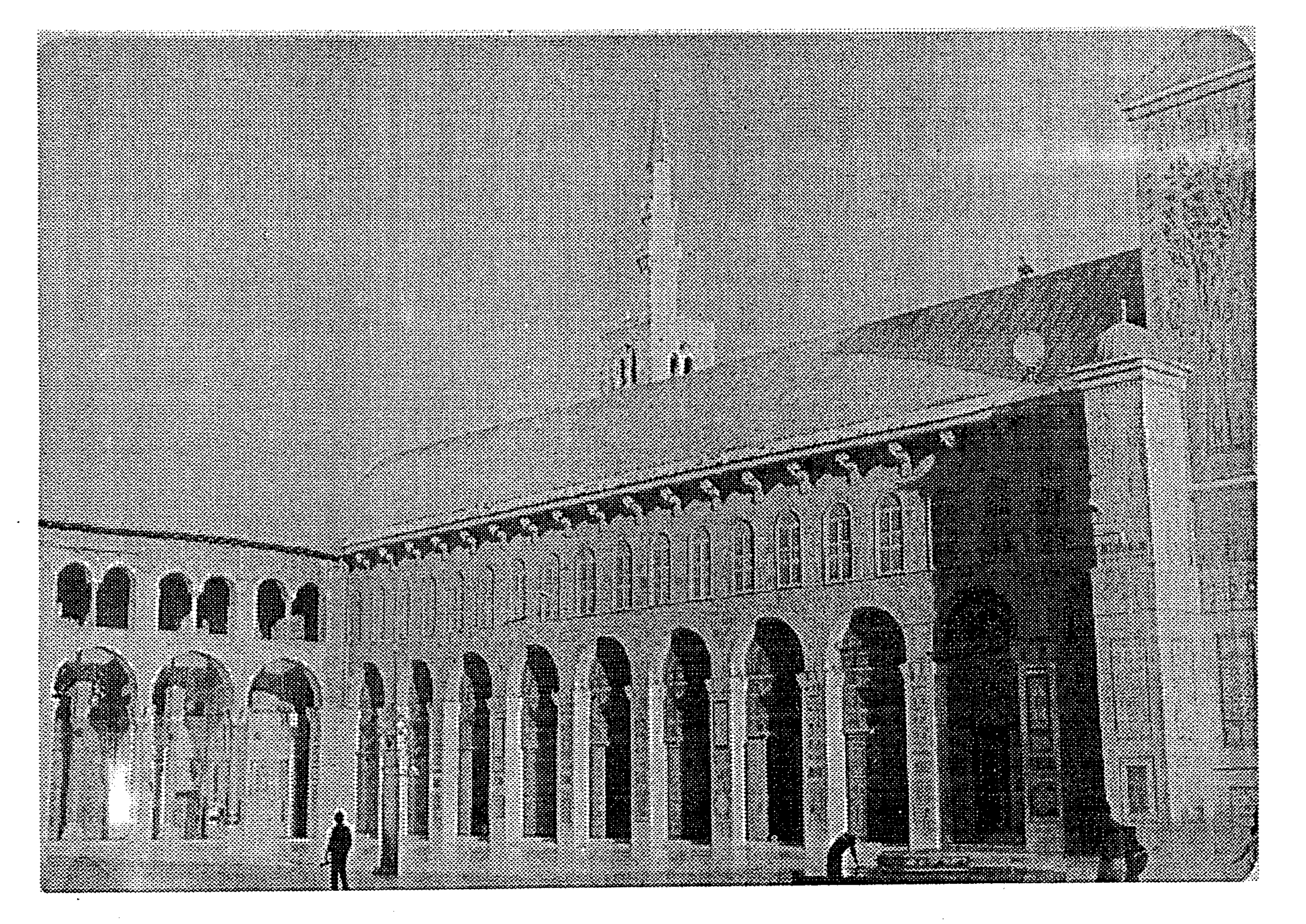
(٧) المؤلف أمام جانب من جوانب جامعة السليمانية ونموذج آخر لروعة الفن الإسلامي.



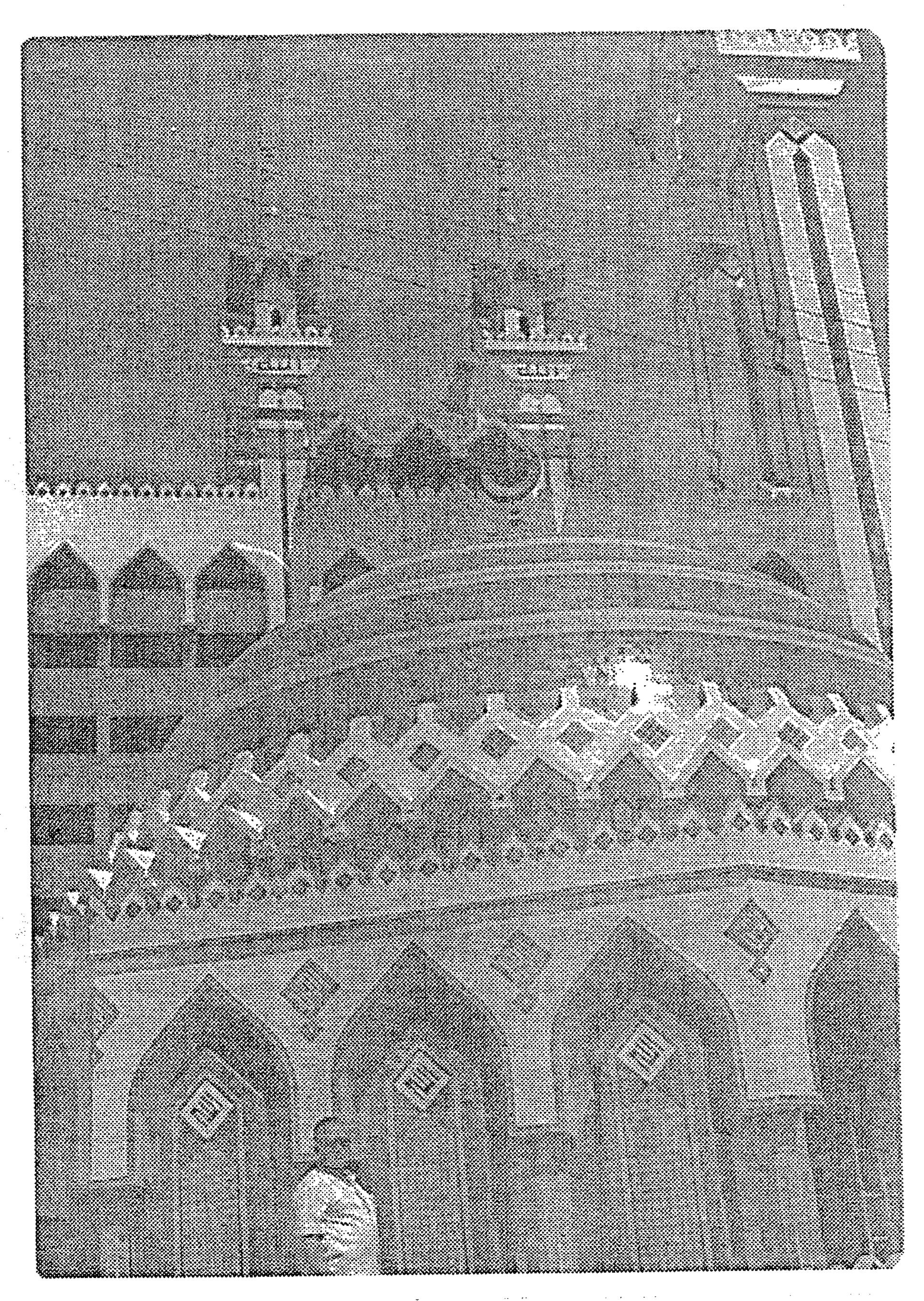
(٨) المؤلف أمام شادروان، وسبيل مياه في صحن واحد من أروع نماذج العمارة الإسلامية.



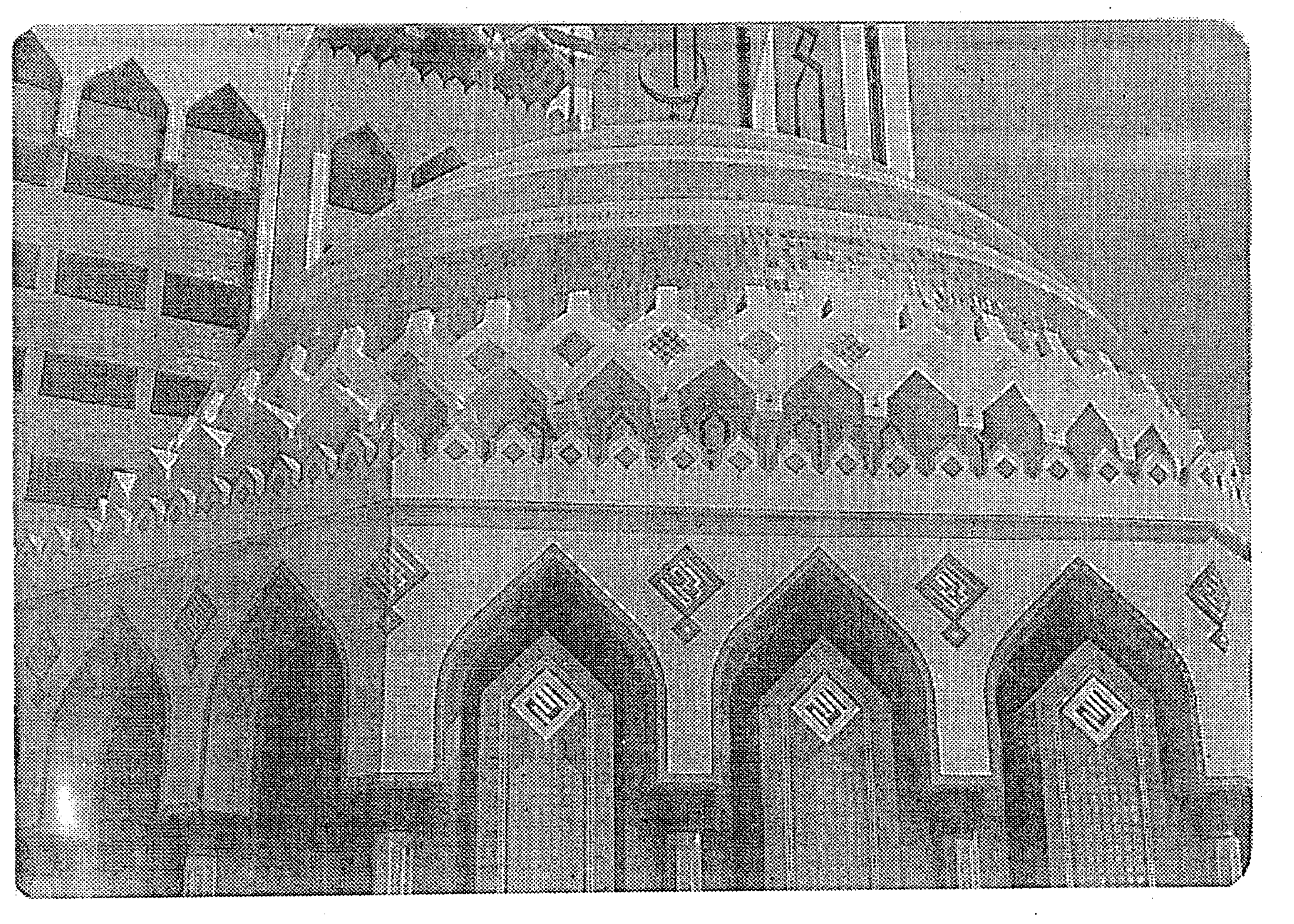
(٩) شادروان داخل صحن مدرسة صحن ثمان بالسليمانية.



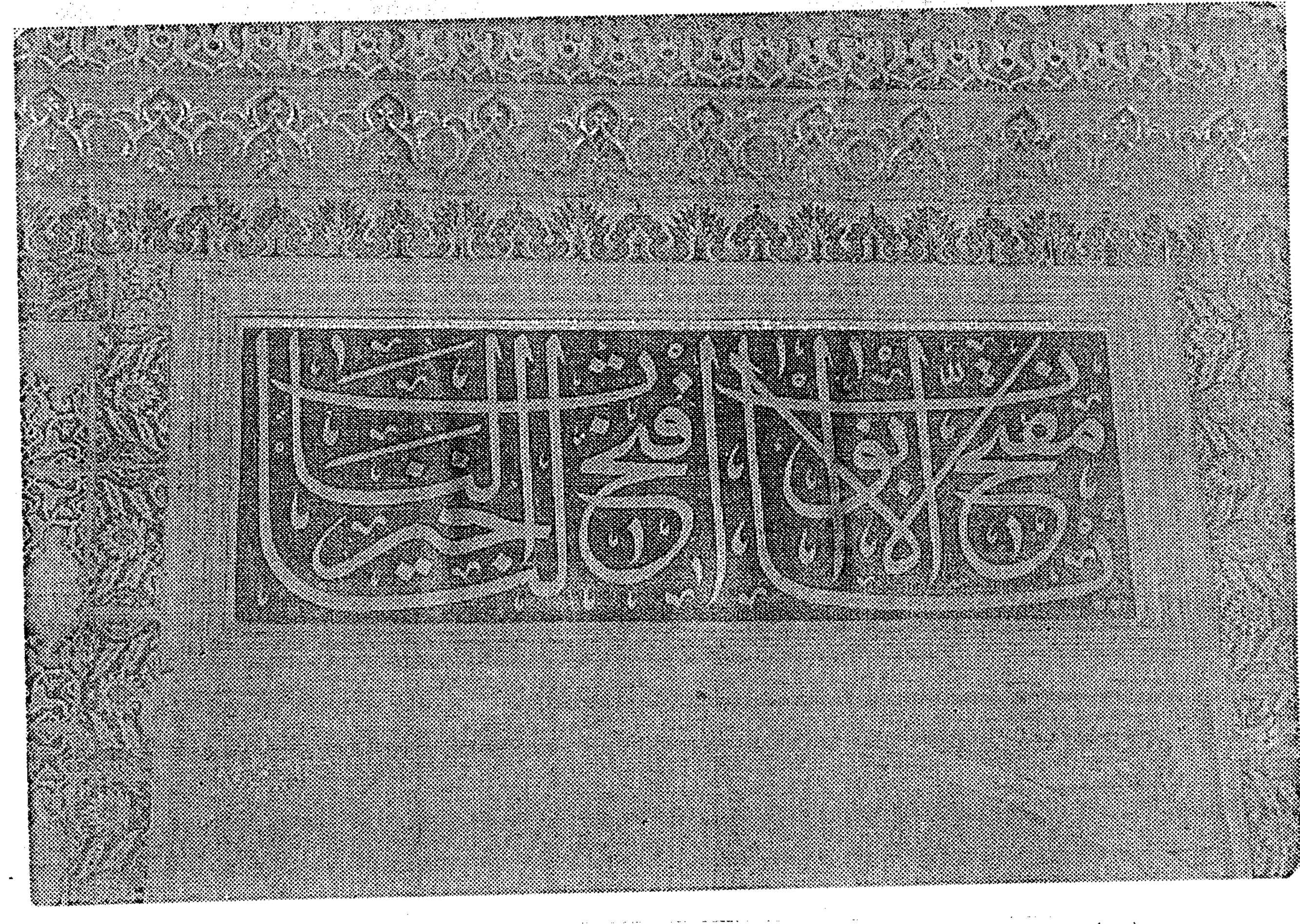
(١٠) تجانس فريد، في الزخارف الجصية، والنباتية حتي علي الجدران الخارجية للعمارة الإسلامية.



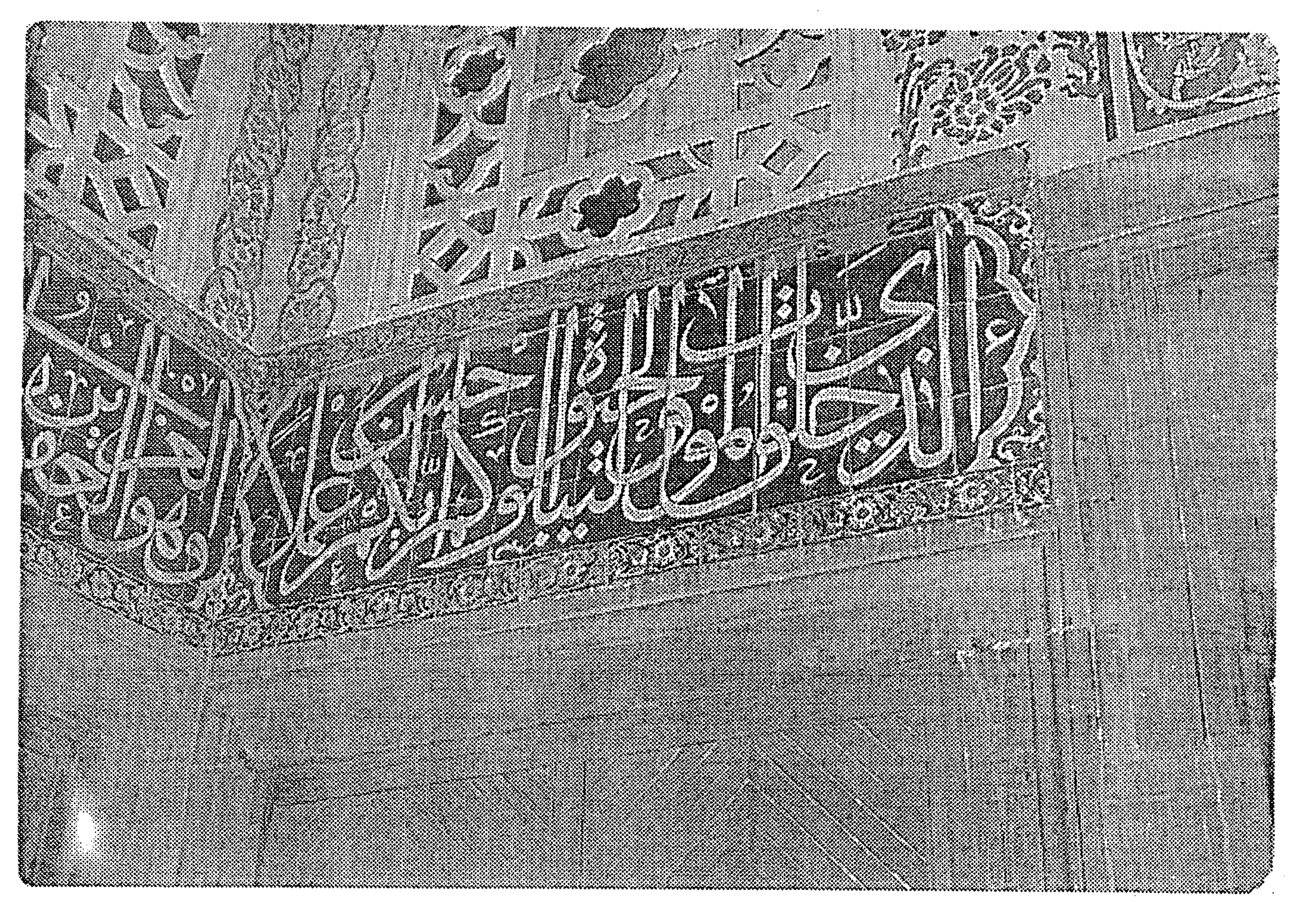
(١١) المؤلف أمام نموذج يدل علي روعة الحضارة الإسلامية في تجانس الزخارف والخطوط والنقوش والخزف علي السطح الخارجي للقبة والمآذن. «جامع الشهزارة.»



(١٢) نموذج آخر لقبة جامع الشهزادة.



(١٣) زخارف كتابية، وسط الزخارف الخزفية التي تزدان محاريب الجوامع العثمانية.



(١٤) زخارف خطية على أرضية من الخزف الأزرق، وتشكل إبداعاً فريداً في تزيين الجوامع والأضرحة - وهي على تربة الأمير مصطفى.



(١٥) المؤلف ومعه تلميذه أ. سمير رجب في زياره لمدنية استانبول سنه ١٩٨٦ ومن خلفهما يري جامع ضولمه بافجه سراي بمئذنته السامقة علي شاطئ البوسفور.

دار المصري للطباعة
ت: ٣٨٣٦٥١٦ – الهرم